

قراءة في حركات مضامين

الشعر العربي الحديث



دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس



darjundi46@gmail.com

(قراءة في حركات مضامين الشعر العربي الحديث)

(مشهور الحبّازي)

الطبعة الأولى (2019).



جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

قراءة في حركات مضامين الشعر العربي الحديث

تأليف

أ. د. مشهور الحبّازي

الطبعة الأولى

2019م

الفهرس

13	قصّة الكتاب 5
17	المقدّمة 14
31	تمهيد 24

الفصل الأول

عوامل نهضة الأدب العربي ومناقشتها 32

41	أولاً-عوامل نهضة الأدب العربيّ (تغريبه) 33
44	ثانياً-مناقشة بعض عوامل نهضة الأدب العربيّ (تغريبه) 37
47	أ. استخدام الدواوين لتنفيذ أوامر الاحتلال، وتمكينه من مصر 38
50	ب. إثارة الفتنة الديّنية في مصر 41
61	ج. إذلال المسلمين، وهدم مقدّساتهم، وتدنيسها 49
64	د. قتل ثمن مواطني مصر 52
66	هـ. نهب ثروات مصر، وإفقار أهلها 53
71	و. إشاعة الفساد الأخلاقي، والفجور في مصر 57
76	ز. ادّعاء تملك مصر، وفرنتها 61
77	ح. إنشاء مجمّع علمي، واصطحاب بعثة علميّة 62
79	ط. تحالف نابليون مع المورانة واليهود 64
80	ي. حركة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسيّ 64
94	أفكار رسالة السلطان 77
95	أسلوب الرّسالة 77
104	رابعاً-المدارس 84
104	-المدارس الأجنبية 85
104	-المدارس التابعة للطوائف غير المسلمة في الدولة العثمانيّة 85
104	-المدارس الأهلية التابعة لأفراد أو جمعيات محلية 85
106	-لويس شيخو 86
107	-أنور الجندي 87
111	من الآثار السلبية للمدارس والصحف 90
116	-أمين شميل 93

116.....	شبلې شمېل 94
116.....	فرح أنطون 94
116.....	يعقوب صروف 94

الفصل الثاني

المذاهب (المدارس) الأدبية العربية 95

121.....	تقديم 97
123.....	أولاً- المذهب العربيّ الأصيل 99
126.....	مبادئ المذهب العربيّ الأصيل 102
131.....	من أعلام المذهب العربيّ الأصيل 107
132.....	- محمود سامي بن حسن حسني البارودي 107
134.....	شاعريّة البارودي 109
135.....	مفهومه للشعر 109
136.....	صفات الشعر الجيد 111
136.....	وظيفة الشعر 111
137.....	العوامل المؤثرة في شاعريته 112
137.....	مميزات شعره 112
138.....	آثاره 113
141.....	- أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي 115
148.....	شاعريته 121
149.....	مفهومه للشعر 123
150.....	موقفه من الدعوة إلى الأدب المصريّ 123
151.....	صفات شعره 124
152.....	موضوعات الشعر عند أحمد شوقي 125
152.....	موقفه من دُعاة التّغريب 125
153.....	التجديد في شعره 125
154.....	آثاره 126
156.....	الشعر المنشور عند أحمد شوقي 129
157.....	نماذج من شعره 129
172.....	- إبراهيم عبد الفتاح آغا طوقان 143
173.....	ثقافته 145

وظائف إبراهيم طوقان	146
شاعريته	148
وفاته	149
آثاره	149
نماذج من شعره	150
ثانيًا-المذهب الرومانسيّ	163
نشأة الرومانسيّة	164
العوامل التي أسهمت في نشوء الرومانسيّة	166
مقارنة بين المذهب العربيّ الأصيل (الكلاسيكيّة) والرومانسيّة	167
-جبران خليل جبران ميخائيل	170
دعوته إلى التغريب (التجديد)	171
آثاره	172
نموذج من شعره	173
-خليل عبده مطران	174
شاعريته	178
مفهومه للشعر	179
العوامل المؤثرة في شاعريته	180
دعوته إلى تغريب (تجديد) الشعر العربيّ	181
أثر خليل مطران في حركات تغريب (تجديد) الشعر العربيّ	181
آثاره	182
ثالثًا-مدرسة الديوان	183
تأسيس المدرسة	183
مشاركة عباس محمود العقاد	184
مشاركة إبراهيم عبد القادر المازني	184
انقسام مدرسة الديوان (الرومانسيّة)	185
عباس محمود العقاد ومدرسة الديوان	186
مفهوم الشعر عند مدرسة الديوان	187
مصادر الشعر عند مؤسسي مدرسة الديوان	187
خصائص مدرسة الديوان الشعرية	188
مؤسّسو مدرسة الديوان	189
1. عبد الرحمن محمد شكري عياد	189

229	شعر عبد الرحمن شكري 190
229	مؤلفاته 190
230	-إبراهيم عبد القادر المازني 191
230	العوامل المؤثرة في تشكيل فكر المازني وأدبه 191
231	شعره 191
231	مؤلفاته 192
232	3. عباس محمود العقاد 193
233	شعره 193
235	نماذج من شعر العقاد 195
235	نماذج من ديوانه "هدية الكروان" 195
235	النموذج الأول بعنوان "الكروانيات" 195
235	النموذج الثاني بعنوان: "الكروان" 195
337	النموذج الثالث بعنوان "الكروان المُجدّد" 197
240	الخلاصة 199
240	رابعاً-جماعة أبولو 199
240	معنى أبولو 199
241	المؤسس 200
241	عضوية الجماعة 200
242	مجلة الجماعة 201
244	العوامل التي ساعدت على تشكيل جماعة أبولو 202
246	نقد جماعة أبولو 204
246	أهداف جماعة أبولو 204
247	خصائص جماعة أبولو 204
248	الثاني- بناء القصيدة 206
248	من أعلام جماعة أبولو 206
248	-أحمد زكي أبو شادي 206
249	شاعريته 206
250	مؤلفاته 208
250	تشكيل شاعرية أبي شادي 208
252	نماذج من شعره: اخترت خمسة نماذج من شعره، وهي 209
255	خامساً- مدرسة شعراء المهجر 212

1-أسباب الهجرة إلى أمريكا	213
2-بدايات الهجرة	221
3-العوامل التي أسهمت في ظهور مدرسة شعراء المهجر	224
4-الندوات، والنوادي، والروابط، والجمعيات الأدبية في المهجر	229
أولًا-الندوات	229
1- رواق المعري	229
2- ندوة الأدب العربي	230
ثانيًا: النوادي الأدبية	230
1- النادي الحمصي	230
2- النادي العربي	231
ثالثًا-الروابط والجمعيات الأدبية	231
-رابطة منيرفا	231
-الرابطة الأدبية	232
-جامعة القلم	233
أهداف جامعة القلم	233
شروط العضوية في الجامعة	234
-الرابطة القلمية	234
تأسيس الرابطة	236
لسان الرابطة	236
مفهوم الرابطة للأدب والشعر	237
أهداف الرابطة وغاياتها	237
مميزات أدب الرابطة	239
أثر شعراء الرابطة في الشعر العربي الحديث	240
شعار الرابطة	250
انفراط عقد الرابطة	251
5- العصبة الأندلسية	251
ظروف النشأة	251
تأسيس العصبة	252
لسان العصبة	252
سبب التسمية	253
دستور العصبة	255

308	أهداف العصبية 255
309	نشاط العصبية 256
310	مميزات شعر شعراء العصبية الأندلسية 256
310	الفرق بين شعر شعراء الرابطة القلمية، والعصبية الأندلسية 261
318	مميزات مدرسة شعراء المهجر 262
318	أولاً- الشكل 263
320	ثانياً- المضمون والمحتوى 264
341	الخاتمة 280
341	أولاً- النتائج 281
344	ثانياً- التوصية 283
345	المصادر والمراجع 284
345	أولاً- المصادر 284
350	ثانياً- المراجع 288

قصة الكتاب

في سنة (2015/1436) أسند إليّ الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور ياسين كتاني، المدير الأكاديمي لأكاديمية القاسمي التربوية - مشكوراً- تدريس مساق "الشعر العربي الحديث"، فبدأت البحث عن مادة علمية تصلح لذلك، وكانت المفاجأة، أنّ معظم الكتب الموضوعية في الشعر العربي الحديث تتفق مع آراء المستشرقين، في إسقاط أكثر من ستمائة سنة من تاريخنا العربي الإسلامي، وربط النهضة العربية بالاحتلال الفرنسي لمصر.

أعادني ذلك إلى أربعة عقود ماضية عندما كنت طالباً في كلية الآداب بالجامعة الأردنية حيث كان أساتذة الأدب الحديث يُعلّموننا أن الأدب العربي توقف في (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، وأنّ ما ظهر على أيدي المتنبي، وأبي العلاء المعريّ، والشريف الرضيّ وغيرهم لم يكن إلّا طفرة، كما علّمونا أنّ مدارس الإرساليات التبشيرية، ومدارس الطوائف المسيحية، والمطابع، والصحف كانت من عوامل النهضة الشاملة.

لم يكن من الممكن النقاش في ذلك لسببين: الأول، الخوف من معارضة الأستاذ، وبخاصة أنّه يحتمي بمظلته التقديمية، فضلاً عن السلطة التي كان يمتلكها، فهو ملك في مادته وطلابه. والثاني، العبء الدراسي الذي كان ثقيلاً، ومطلوباً النجاح فيه بتفوق، علماً أنّ التعليم في ذلك الوقت كان سليماً مائة بالمائة إن لم يكن أكثر. وهو لو يطبق هذه الأيام لتراجعت أعداد طلبة الجامعات إلى ما لا يقل عن النصف.

كان ذلك يُثير فيّ سؤالاً مُهمّاً وهو: هل يُعقل أن نربط نهضتنا باحتلال؟! وكان يزيد من حدة وقع السؤال: الحديث السريع عن هزيمة نابليون أمام أسوار عكا، لكن ما كان يُخفف من وقع السؤال هو إرجاع النصر على نابليون إلى أحمد باشا الجزار، ثم يعود السؤال ثانية إلى طبيعته الأولى عند الحديث عن المساعدة البريطانية للدولة العثمانية الإسلامية مُثلة في أحمد باشا الجزار لتحقيق ذلك النصر.

في مُقابل ذلك كنّا درسنا مساقاً بعنوان "الأدب في مصر والشام"، وهذا المساق يتحدّث عن الأدب في مواجهة الحروب الإفرنجية (الصليبية)، ودوره في استنهاض قوى الأمة المهزومة، وحثّها على الدفاع عن نفسها، وعدم الاستسلام، ثمّ تحريضها على الجهاد من أجل دحر الاحتلال، واسترداد المقدّسات، وحماية العرض، والممتلكات، والأرض.

كان لهذا المساق بفضل مدرّسه الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهديّ، أمّدّ الله في عمره، وأحسن خاتمته، ومدرّسه الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم، يرحمه الله

تعالى، أثر إيجابي كبير في نفوس كثير من الطلبة، وبخاصة أنّ الحقبة كانت تمتاز بصعود تيار الجهاد ضد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وبعض الأراضي العربية في: سوريا، ولبنان، والأردن، ومصر.

في أواخر ربيع سنة (2017/1438) شاركت في مناقشة رسالة ماجستير في الأدب الفلسطيني الحديث، فكانت الصدمة الكبرى أنّ بعض النقاش دار حول أيّ المصطلحين يجب اعتماده هل هو: "وعد بلفور" أم "تصريح بلفور". وحول ضرورة التمييز بين الاحتلال والانتداب البريطانيّ.

سبب الخلاف هو عدم وجود مُنطلقات ثابتة للثقافة العربية الإسلامية منذ احتلال نابليون مصر: إذ كلّ دارس مُفتٍ في مجاله، ولذلك يكاد لا يوجد اتفاق أغلبية في وطننا الكبير على أيّ شيء، وحتى على أسس ثقافتنا.

لقد سادت عندنا عبادة الفرد، فكلّما جاء فرد صنعنا منه زعيماً، وعندما يذهب نلغنه، وننسى أننا نلغنه أنفسنا. وقد قال أحمد شوقي في "أسواق الذهب": "هلكت أمة تحيا بفرد، وتموت بفرد".

أما الفرق بين الاحتلال والانتداب البريطانيّ والفرنسيّ على حدّ سواء، فهو ليس إلّا تجميل من المُحتلّ لفعلته؛ فأول سنوات الاحتلال كان حكماً عسكرياً كاملاً، ثم أرادت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، والتي شكلت "عصبة الأمم" وبخاصة فرنسا وبريطانيا، تحسين صورتيهما، وتنفيذ سياستيهما بسهولة، وبغطاء قانون هما وضعته وسمّته دولياً، فأوجدتا ما أسماه نظام الانتداب، وهو في حقيقته احتلال عسكريّ بكل معنى الكلمة. لا بل هو تحقير للشعوب الواقع عليها؛ إذ يعني ببساطة أن المُنتدب هو المرشد المؤقت ريثما يُصبح الشعب الخاضع للانتداب (أي القاصر) قادراً على حكم نفسه. كما أنّ نصوص صك الانتداب على فلسطين تنصّ بوضوح أنّ بريطانيا مُكلفة من عصبة الأمم بتنفيذ إقامة وطن قوميّ لليهود، فقد جاء في البند الثاني من صك الانتداب البريطانيّ على فلسطين: " تكون الدولة المُنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في حالة سياسيّة وإداريّة واقتصاديّة، تكفل إنشاء الوطن القوميّ اليهودي، كما جاء في ديباجة هذا الصك"⁽¹⁾. وديباجة الصك تضمنت: "ولمّا كانت دول الحلفاء الرئيسة قد وافقت - أيضاً- على أن تكون الدولة المُنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح، الذي صرّحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في ([18محرم 1336هـ] 2 تشرين الثاني 1917)، وصادقت عليه الدول المذكورة بأن ينشأ في فلسطين وطن قوميّ للشعب اليهودي ... ولمّا كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخيّة التي تصل

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 252/3.

الشعب اليهوديّ بفلسطين، والبواعث التي تبعث على إنشاء وطنهم القوميّ في تلك الدّيار" (1).

ثمّ ما الفرق بين الحكم العسكريّ الإسرائيليّ للضفة الغربيّة الذي استمرّ أربعة عشر عامًا من شهر (صفر 1387 الموافق لشهر حزيران 1967 وحتى ذي القعدة 1401 الموافق لشهر أيلول 1981)، و ما أسمته إسرائيل الإدارة المدنية التي أسّستها بعد انتهاء الحكم العسكريّ مباشرة؟!.

الحقيقة هي أنّه لا يوجد فرق إلّا في الاسم، الذي أوجدته إسرائيل لتجميل صورتها البشعة، وتغطية جرائمها ضد الشعب الفلسطينيّ. وها قد مضى على تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربيّة وقطاع غزة-أكثر من عقدين، وما زالت الإدارة المدنية الإسرائيليّة للضفة الغربيّة (تسميها إسرائيل منطقة "يهودا والسامرة") هي الحاكم الفعلي للضفة الغربيّة (دولة فلسطين كما أعلنها الرئيس محمود عباس يوم 16 محرّم 1434 الموافق 2012/11/29 أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة).

إنّ القوّة هي الحاكمة في العالم كلّه، ولا شيء غيرها، منذ هبوط آدم، عليه السّلام، على هذه الأرض، وحتى يرث الله، جلّت قدرته، الأرض وما عليها. وقوّة إسرائيل مُستندة إلى وعد بلفور، وصك الانتداب الصادر عن بريطانيا، وعصبة الأمم. والأولى هي التي هدمت دولة الإسلام، وتُصرّ على موقفها من الوعد، فتحتفل مع الدولة التي أنشأتها بالذكرى المئويّة له، ضاربة عرض الحائط بكلّ صياح عربيّ وإسلاميّ، مهما بلغ مداه، لا يتبعه فعل قادر على تغيير الواقع المعيش.

إنّ ما سبق وغيره أنضج فكرة تأليف هذا الكتاب الذي سبق ظهوره ما كان يجب أن يظهر من مؤلفات؛ لتوضيح حقيقة واقع الأدب العربيّ في العصرين التركيّ والجرکسيّ (المُسمّى ظلماً المملوكيّ)، والعثمانيّ (المُسمّى ظلماً -أيضاً- عصر الانحدار، والجمود، والانحطاط، والجفاف الفكريّ وغيرها من المُسمّيات).

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 251/3.

المقدمة

اعتاد كثير من دارسي الأدب العربيّ على اعتماد المنهج المدرسيّ في دراساتهم تطوّره عبر التاريخ. وهو منهج يقوم على ربط حركة الأدب بالتحوّلات السياسيّة التي مرّ بها التاريخ العربيّ الإسلاميّ. وبناء على ذلك أطلقوا اسم الأدب العربي الحديث، أو الحديث والمعاصر، أو المعاصر - مع اختلاف في فهم الحداثة والمعاصرة، وتحديد الحقبة الزمنيّة لكلّ من اللفظتين- على الأدب العربيّ الذي يبدأ زمنيا باحتلال (حملة) نابليون مصر الذي استمرّ ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع ما بين (1798/1213 و 1801/1216)، ولم يحدّوا نهاية زمنية لهذا الأدب، إذ مازال هذا الاسم شائعاً عند أغلب دارسي الأدب العربيّ الحديث (المعاصر)، حتى يومنا هذا (أي سنة 2018/1439).

ثم عندما أخذوا بدراسة النتاج الأدبي للشعراء والكتاب العرب اعتمدوا مناهج عديدة، وضحها أستاذي المرحوم، بإذن الله تعالى، شكري فيصل في كتابه القيم "مناهج الدراسة الأدبيّة في الأدب العربيّ: عرض، ونقد، واقتراح"، وهي: النظرية المدرسيّة، ونظريّة الفنون الأدبيّة، ونظريّة الجنس (العرق الذي ينتمي إليه الأديب)، ونظريّة الثقافات (الثقافة التي يستمدّ الأديب منها معرفته)، ونظريّة المذاهب الفئويّة، والنظريّة الإقليميّة (المكان والبيئة التي نشأ فيها الأديب)، ثم انتهى إلى أنّه لا يمكن اعتماد منهج واحد في دراسة الأدب، إنّما - غالباً - ما يحتاج إلى أكثر من منهج، وذلك هو ما أسماه "المنهج التركيبي" (وقد شاع عند كثيرين باسم التكاملي)، وهو في رأيي يمكن أن يُطلق على ثلاثة مناهج، فأكثر (1).

بناء على تلك المناهج تمّ دراسة الأدب العربيّ وفق العصور التاريخيّة، التي مرّت بها حضارة العرب والمسلمين، وقد اختلف الدارسون في تقسيم تلك العصور، وبالتالي اختلفت عصور الأدب العربيّ، وأرى أنّ من المفيد تقسيم عصور الأدب وفق الآتي:

- 1 - العصر الجاهلي، ويمتدّ مائة وخمسون إلى مائتي سنة قبل بعثة الرسول، صلى الله عليه وسلّم، وكانت بعثته، صلى الله عليه وسلّم، سنة (610م).
- 2 - عصر صدر الإسلام، ويمتدّ ثلاث وخمسون سنة، ويشمل دعوة الرسول، صلى الله عليه وسلّم، ومدّتها ثلاث وعشرون سنة، وحقبة الخلفاء الراشدين، ومدّتها ثلاثون سنة، أي من سنة (610-632م) ثمّ من سنة (632-632/11-632/11).

(1) انظر: شكري فيصل، مناهج الدراسة الأدبيّة، ص 11-239.

661/41)، حيث تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم، فسُمِّي ذلك العام عام الجماعة.

3 - عصر الخلافة الأموية، ويمتد من سنة (661/41-749/132).

4 - عصر الخلافة العباسية، ويمتد من سنة (661/132-1517/923)، وقد اختلف دراسو الأدب العربي حول قسمة الأدب في هذه الحقبة الطويلة، وأكثرهم قسّمه إلى ثلاثة عصور، هي: الأول، ويُغطي السنوات (661/132-846/232)، والثاني، ويُغطي السنوات (846/232-944/333)، والثالث، وسماه بعض الدارسين باسم عصر الدّول والإمارات، أو عصر الدّول المتتابعة، ويُغطي السنوات (945/334-1258/656)، ثم تحدّثوا عمّا أسموه عصر المماليك، الذي هو ضمن العصر العباسي، وقسموه إلى قسمين برجية وبحرية، ثم العصر العثماني، فالعصر الحديث. والحقيقة أنني أرى غير ذلك؛ لأنّ الدولة العباسية ظهرت فيها إمارات، وممالك، ودول، منذ بداية القرن الثالث الهجري، كما أنّ الأدب كان يزدهر ويخفت في القرون كلّها، ولذلك أرى أن يكون الحديث عن عصر الخلافة العباسية من بدايتها إلى نهايتها، وأن تُذكر أسماء بعض الإمارات، والممالك، والدّول، والسّلطنات، التي ظهرت فيها لعلّ ذلك يدفع الباحثين إلى دراسة الأدب والثقافة التي ظهرت فيها، وهي غنيّة-غالبًا-، وما زال كثير جدًّا من نتائجها مخطوطًا، وعليه يمكن الحديث عن العصر العباسي الذي امتدّ قرابة ثمانية قرون على النحو التالي:

أولًا: الدول التي ظهرت في الشرق الإسلاميّ

ظهرت دول كثيرة في شرق دولة الخلافة العباسية (المقصود بالشرق هو من مصر إلى الصين حيث انتشر الإسلام)، بعضها عمّر عقودًا عديدة، وبعضها الآخر عمّر قرونًا عديدة، ومن تلك الدول:

- 1-الدولة الطولونية في مصر وغيرها (868/254-905/292).
- 2-الدولة الإخشيدية في مصر وغيرها (935/323-969/358).
- 3-الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، وغيرها (929/317-1004/394).
- 5-الدولة المرداسية في حلب وغيرها (1023/414-1080/472).
- 6-دولة بني عقيل في الموصل وغيرها (996/386-1096/489).
- 7-دولة بني مروان في ديار بكر وغيرها (990/380-1096/489).

- 8-دولة بني مزيد في الحلة وغيرها(1150/545-1012/403).
- 9-دولة بني دلف في بلاد الكرج والبرج (ما بين همذان وأصفهان) وغيرها(898/285-825/210).
- 10-دولة بني طاهر في خراسان وغيرها (873/259-821/205).
- 11-الدولة الصقريّة في هراة وفارس وغيرها(908/296-868/254).
- 12-الدولة السامانيّة في سمرقند وفرغانة وغيرها(999/389-887/261).
- 13-دولة بني حسنويه في همذان ونهاوند وغيرها(1015/406-959/348).
- 14-الدولة البويهية في الكرج ثم في كرمان ثم في بغداد وغيرها (932/320-1055/447).
- 15-الدولة الإسماعيليّة الباطنيّة(الحشاشون) في قلعة ألموت (عش النسر) في جبال الديلم جنوب بحر قزوين وغيرها(1256/654-1090/483).
- 16-الدولة السلجوقيّة، وقد ظهرت خمس دول لها، وهي: سلاجقة خراسان، وكرمان، والشام، والعراق، والأناضول، وحملت قريباً من ثلاثة قرون (1308/708-1040/432).
- 17-الدولة الدانשמديّة، وظهرت في ثلاث مناطق بتركيا، وهي: قبادوقيا، وسيواس، وملطية، ما بين (1177/573-1071/464).
- 18-الدولة الأتابكيّة (وأتابك كلمة تركية مكوّنة من مقطعين وتعني مربّي ابن السلطان)، وقد نشأت في ظل الدولة السلجوقيّة، وأشهرها الدولة الزنكيّة التي أسسها آق سنقر، وابنه عماد الدّين زنكي، ثم حفيده نور الدّين محمود زنكي، ثم إسماعيل بن نور الدّين زنكي، وحملت ما بين (1227/624-1094/487).
- 19-الإمارات الأرتقيّة، وتنتمي إلى أرتق بن أكسك أحد قادة الجيش السلجوقي، وقد استطاعوا تأسيس ثلاث إمارات مهمة في حصن كيفا، وحصن آمد، وخرتبرت، وماردين، وهي اليوم جميعها تقع ضمن تركيا، وحكم هؤلاء قريباً من ثلاثة قرون(1408/811-1101/495). وقد ظهرت دول كثيرة في ما يُعرف اليوم بتركيا، وأذربيجان، وأرمينيا، والدول الإسلاميّة التي استقلت اسمياً عن الاتحاد السوفياتي بعد انهياره.
- 20-الدولة الغزنوية في أفغانستان والبنجاب (1183/579-962/531).
- 21-الدولة الغوريّة في أفغانستان والهند (1215/621-1148/543).

22-دولة سلاطين دهلي في الهند (1206/602-1555/962).

23-الدولة المغولية (بادشاهات هندستان) في الهند (1526/932-1858/1275).

24-الدولة الأيوبية، وقد أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان والده وعمّه من قادة جيوش نور الدين زنكي، وحمكت مناطق واسعة من البلاد الإسلامية باسم الخلافة العباسية، إذ شملت دولتهم مصر والجزيرة العربية، وبلاد الشام، وأجزاء واسعة من تركيا اليوم وغيرها، وحكمت ما بين (1174/569 و 1524/930) حيث انتهت آخر دولة لهم كانت في حصن كيفا بتركيا في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني.

25-الدولة التركية الجركسية (المُسماة ظلمًا الدولة المملوكية)، وكان مركزها في القاهرة، وهي ورثة الدولة الأيوبية، وهي قسمان:

أ-الدولة التركية، وتسمى البحرية؛ لأنّ مؤسسوها كانوا جنودًا للملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يُسكنهم في جزيرة الروضة بالنيل، ولمّا كان أهل مصر يُطلقون على النيل اسم بحر، فقد عرفوا بالبحرية، وحكموا (1250/648-1290/784).

ب-الدولة الجركسية أو الشركسية، وتسمى البرجية؛ لأنّ مؤسسوها كانوا جنودًا للملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يُسكنهم في قلعة القاهرة، وحكموا (1382/784-1517/923).

26-دول شبه الجزيرة العربية، ظهرت في شبه الجزيرة العربية دول عديدة، وأهمها:

أ-الدول التي ظهرت في اليمن، ظهر في اليمن اثنتا عشرة دولة، وهي:

1-دولة بني زياد في مدينة زبيد (819/204-1018/409).

2-دولة بني يعفر في صنعاء وجند (861/247-997/378).

3-دولة بني نجاح في زبيد (1021/512-1159/544).

4-دولة بني صليح في صنعاء (1037/429-1098/492).

5-دولة بني همدان في صنعاء (1098/492-1173/569).

6-دولة بني المهدي في زبيد (1159/554-1173/569).

7-دولة بني زريع في عدن (1083/476-1173/569).

- 8-دولة بني رسول في اليمن (1454/858-1229/626).
9-دولة بني طاهر في اليمن (1571/923-1451/855).
10-دولة بني رسي أو بني طباطبا في صعدة (1300/700-893/280). وهي دولة شيعية.

11-الدولة الإمامية في صنعاء وغيرها (1925/1343-1591/1000). وهي امتداد لدولة بني رسي السابقة، وقد دخلت في أوقات كثيرة في طاعة السلاطين العثمانيين منذ بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مع تنازع مع الدول الاستعمارية الأوروبية.

ب-الدول التي ظهرت في الحجاز، ومنها:

- 1-دولة بني الأخيضر في مكة المكرمة واليمامة (961/350-865/251).
2-دولة بني موسى في مكة المكرمة (1061/453-961/350).
3-دولة بني هاشم أو بني فليته في مكة المكرمة، وخضعت للدولة العبيدية، ثم للدولة الأيوبية، (1201/598-1067/460).
4-دولة بني قتادة الهاشمية في مكة المكرمة، وخضعت للدولة التركية والجرسية، ثم للدولة العثمانية، وآخر من حكم منهم هو الشريف حسين بن علي، الذي تحالف مع بريطانيا ضد دولة الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وحكمت (1924/1342-1201/598).

ج-الدول التي ظهرت في عمان، وكانت عاصمتهم مدينة نزوى لمدة تزيد على ألف سنة، ثم مدينة رستاق حوالي ثمانين سنة، وفي بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي مدينة مسقط، ومنها:

- 1-دولة بني نبهان (1406/809-1154/549).
2-دولة بني يعرب (1741/1154-1624/1034).
3-دولة أبي سعيد (1913/1332-1741/1154). ومن هذه العائلة سلطان سلطنة عمان الحالي، السلطان قابوس بن سعيد.

ثانياً: الدول التي ظهرت في الغرب الإسلامي

ظهرت دول كثيرة في غرب دولة الخلافة العباسية (المقصود بالغرب هو من مصر إلى الأندلس وباقي البلدان الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام، وجزر البحر

الأبيض المتوسط)، بعضها عمّر عقوداً عديدة، وبعضها الآخر عمّر قرونًا عديدة، ومن تلك الدول:

1- الدولة الإسلامية في الأندلس، أقام المسلمون دولة في بلاد الأندلس عاشت أكثر من ثمانية قرون (711/92-1492/897). وقد ظهر في هذه الدولة نظم حكم عديدة، أهمها:

أ- الإمارة الأموية، حيث تمكن الأمير الأمويّ عبد الرحمن الداخل (الأول)، وهو حفيد الخليفة الأمويّ العاشر هشام بن يزيد من دخول الأندلس، وإقامة إمارة لبني أمية، واستمرت الإمارة ما بين (756/138 و929/317).

ب- الخلافة الأموية، في بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بلغت الحضارة الإسلامية مستوى عاليًا من التقدّم، فيما ضعفت الخلافة العباسية سياسيًا حتى وصل الأمر إلى أن أقام الشيعة العبيديون خلافة لهم على أجزاء واسعة من أراضي الخلافة العباسية، فلجأ الأمير الأمويّ عبد الرحمن الثالث إلى إعلان نفسه خليفة، وتلقب بلقب أمير المؤمنين، واستمرت الخلافة ما بين (929/317 و1031/422). وكان آخر خلفائهم هو هشام الثالث الملقب بالمعتد بالله.

ج- ملوك الأندلس، بعد انتهاء الخلافة الأموية، استقل في مدن الأندلس الكبيرة حكامها، وأطلق عليهم أغلب الدارسين اسم "ملوك الطوائف"، والحقيقة أنهم لا ينتمون إلى طوائف دينية عديدة، بل هم كلهم مسلمون على المذهب المالكي، وقد ظهرت في أنحاء الأندلس أربع عشرة مملكة، وامتد حكم هؤلاء الملوك ما بين (1009/400 و1091/484)، وذلك مع تفاوت في مدة حكم تلك الممالك، كما أنّ بعضها استمرّ في الحكم بعد قيام دولة المرابطين، مثل ملوك بني هود في سرقسطة، الذين حكموا حتى سنة (1141/536).

د- دولة المرابطين، والمرابطون هم مجاهدون ضد نصارى الأندلس من قبائل لمتونة فرع صنهاجة البربرية، بنوا مدينة مراكش في المغرب، واتخذوها عاصمة لهم، وقد أصبحت الأندلس تابعة للمغرب الإسلامي (1091/484-1150/545). وكانوا يعترفون بالخلافة العباسية، ولقب سلاطينهم بلقب "أمير المسلمين".

ه- دولة الموحّدين، وهم من قبائل مصمودة البربرية، قامت بهدف جهاد النصاري، وحماية الإسلام والمسلمين، واتخذت مراكش عاصمة لها (1130/524-1269/668). ولما ضعفت قامت على أثرها ثلاث دول، هي:

1-الدولة الحفصية في تونس، وكانوا تابعين للموحدين، ثم استقلوا (1228/625-1574/981)، وقد تلقب بعضهم بلقب الخليفة بعد سقوط بغداد بيد المغول. ومنذ منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حاول العثمانيون فتحها لحمايتها من النصرانية الإسبانية، والنمساوية، والإيطالية، حيث دخلها خير الدين باربروسا سنة (1534/941)، ثم في سنة (1574/982) قضي على الدولة الحفصية، وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية العثمانية حتى سنة (1881/1298)، حيث خضعت للاحتلال الفرنسي، حتى استقلت سنة (1956/1375).

2-الدولة الزيانية، في الجزائر (المغرب الأوسط)، وعاصمتهم مدينة تلمسان بالجزائر، وكانوا تابعين للموحدين، ثم استقلوا (1239/637-1554/962)، ثم فتحها العثمانيون تدريجياً منذ بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية العثمانية (1518/924-1830/1245)، حيث خضعت للاحتلال الفرنسي، حتى استقلت سنة (1962/1381).

3-الدولة المرينية، في مراكش (1269/668-1470/875)، ثم ظهرت الدولة الوطاسية (1470/875-1550/975)، ثم دولة الأشراف السعدية والفلالية، وهم قسمان: دولة الأشراف السعدية، وهم ينتسبون إلى السيدة حليلة السعدية، مُرضعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحكمت ما بين (1511/916-1659/1069). ودولة الأشراف الفلالية في مدينة سجلماسة، وينتسبون إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وحكمت ما بين (1640/1050-1912/1330)، حيث خضعت أغلب بلاد المغرب للاحتلال الفرنسي، حتى استقلت سنة (1956/1375). علماً أن أجزاء من بلاد المغرب كانت تخضع للاحتلال الإسباني (وما زال قائماً في سبتة ومليلة حتى يومنا هذا)، والاحتلال البريطاني.

و-دولة بني الأحمر أو بني نصر، وعاصمتها مدينة غرناطة (1232/629-1492/898). وبها انتهى الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس، التي قام على أنقاضها دولتان نصرانيتان هما: إسبانيا والبرتغال.

2-دولة الأدارسة في المغرب، وعاصمتها مدينة فاس (788/1172-974/364). وهي تنتمي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

3-دولة الأغالبة، في تونس (800/184-909/292). وقد أسسها إبراهيم بن الأغلب التميمي، الذي عينه الخليفة هارون الرشيد والياً على تونس، لكنه أقام

دولة حكمها أبناؤه من بعده أكثر من قرن من الزمن، وتلقب بلقب "الأمير"، واستطاع أن ينشر الإسلام في سواحل إيطاليا، وفرنسا، وجزيرتي كورسيكا، وسردينيا، وفتح صقلية سنة (827/212)، فأصبحت جزءاً من بلاد الإسلام، وقد ظلت دولة الأدارسة تابعة للخلافة العباسية حتى قضى عليها الشيعة العبيديون.

4- الدولة العبيدية الشيعية، وعاصمتها المهدية على الساحل التونسي، ثم القاهرة بمصر (909/296-1172/567). وهي دولة شيعية إسماعيلية باطنية، أسسها عبيد الله بن ميمون القداح، الذي ادعى أنه من نسل الأئمة الاثنا عشرية المكنومين، وهو ليس كذلك، واستطاعت هذه الدولة احتلال أجزاء واسعة من الأراضي التي كانت تحت حكم الخلافة العباسية، وتلقب حكامها بلقب الخليفة. وقضى عليها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، بعدما ثبت تعاملها مع الفرنجة ضد المسلمين.

وفي العصر الحديث تمّ تقسيم الدراسات في الأدب العربيّ إلى عناوين عديدة منفصلة بعضها عن بعض، وأهمها: الدراسات في الشعر، والدراسات في القصة بأنواعها، والدراسات في الرواية، والدراسات في النقد، والدراسات في المسرح وغيرها.

وقد اهتمّ دارسو الأدب العربي الحديث، وبخاصة أساتذة المعاهد العليا والجامعات بدراسة فن الشعر أكثر من غيره من فنون الأدب الأخرى لأسباب عديدة، وفي دراساتهم للشعر ظهرت عناوين ومسميات كثيرة منها: حركات الشعر في العصر الحديث، وحركات التجديد في الشعر الحديث، والشعر العربي الحديث، والشعر العربي المعاصر، والشعر العربي الحديث والمعاصر، ومدارس الشعر العربي الحديث، وقضايا الشعر الحديث، وظواهر الشعر العربي الحديث وغيرها كثير، وهذا أدى إلى تعقيد الدراسات الأدبية في الوطن العربيّ.

على الرغم من تشابه كثير من العناوين السابقة إلا أنه توجد أحياناً اختلافات كبيرة في مضامينها. وقد توافق معظم دارسي الأدب العربيّ على دراسة الشعر العربي الحديث من خلال: المذاهب، أو المدارس، أو الحركات، أو الاتجاهات، أو الظواهر التي ظهرت في هذا الشعر، ومع شديد الأسف ركّز هؤلاء

على الشعر في أربع مناطق جغرافية هي: مصر، والشام، والعراق، والمهجر، أما المغرب العربي، وشبه الجزيرة العربية، والسودان، فدراسة الأدب فيها ما زالت غير كافية، وذلك على الرغم من ظهور دراسات جادة للأدب في بعض تلك الأقاليم من قبل أساتذة الجامعات فيها، وبعض المهتمين من خارجها.

هذه الدراسة " قراءة في حركات الشعر العربي الحديث" لن تخرج كثيرًا عن الطريق الذي رسمه السلف، لكنها تثبت أن ما مرّ فيه الشعر العربي خلال ما يزيد على مائتي سنة ليس أكثر من محاولات لإخراج الشعر العربي عن طريقه العربي الأصل الطويل، وتوجيهه إلى طريق التغريب (التجديد) في كل شيء، وأن تلك المحاولات قد فشلت؛ إذ اختلفت المذاهب الأدبية الثلاثة (الرومانسية ممثلة في: الديوان، وأبولو، والمهجر)، كما أن غيرها من المذاهب توشك على اللحاق بها. كما تكاد تختفي كل حركات التغريب (التجديد) في أوزان الشعر العربي، ولم يثبت إلا الشعر الموزون، والمقفى، بغض النظر عن طريقة نظمه، وتدوينه، وتسميته.

وعليه فقد قامت هذه الدراسة على أساس أن الشعر العربي، تعرّض لمؤثرات أدبية غربية، هدفت إلى الإسهام في إحداث التغريب (التغيير) الشامل الذي خطط له المبشرون والمستشرقون، وقام على تنفيذه الجمعيات والإرساليات التبشيرية، والسياسيون بوسائل مختلفة؛ تراوحت ما بين التعليم في المدارس، والغزو الاستعماري العسكري، والثقافي.

وقد اعترف كثير من دعاة التغريب (التغيير) في الشعر العربي بتأثرهم بالأدباء والشعراء الإنجليز، والفرنسيين، والأمريكيين، والروس، واتخاذهم إياهم قدوة لهم في: أساليب الكتابة، والأوزان، والمضامين، ومعايير تقييم الشعر.

انقرضت أو تكاد- حركات التغريب (التغيير) في الشعر العربي؛ لأنها غريبة عن المواطن العربي في: مضامينها، وأساليبها، فأرادت أن تلغي طريقة نظم الشعر العربي، وتستبدلها بالطريقة الغربية، وأن تلغي الفكر العربي الإسلامي، وتستبدله بالفكر والثقافة الغربية المسيحية. ولأنها خرجت على الذوق الموسيقي للمواطن العربي. ولأنها استبدلت التراث العربي الإسلامي القائم على: الوضوح، والإيمان، والتوحيد بالتراث الوثني، والمسيحي، واليهودي القائم على: الإبهام، والأساطير، والخرافات، والرمز، وتعدّد الآلهة، والشرك. ولأنها حاولت أن تُقدّم للمواطن العربي أبطال ثقافة غربية مسيحية غازية كنماذج في البطولة بدلًا من أبطال ثقافته وحضارته العربية الإسلامية، لا بل حاولت تقديم أبطال الأمة، وحضارتها بصورة مُشوّهة، ومُقوّرة، وباعثة لليأس، فعند هؤلاء: الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أول باعث للقومية والعصبية. والحجاج بن يوسف الثقفي، رضي الله عنه،

قاتل مأجور. ويزيد بن معاوية، رضي الله عنه، مخمور. وهارون الرشيد، وسليمان القانوني، رضي الله عنهما، لا همّ لهما إلّا الجواري واللّهو، وهكذا فعلوا في كلّ ما استطاعوا من مواطن الفخر والعزّ في التاريخ العربيّ الإسلاميّ.

وقد اعتمدتُ في بناء هذه الدّراسة على المنهج التكامليّ؛ فأفدتُ من المنهج التاريخيّ في تتبع دراسات الشعر، ومضامينها. والمنهج الوصفي في التعريف بحركات الثّغريب (التغيير). والمنهج الاستقصائيّ، والتحليليّ في الموازنة بين حركات الثّغريب (التغيير)، وآراء الدّارسين، واختيار المناسب منها.

وجاءت هذه الدراسة "قراءة في حركات الشّعر العربيّ الحديث"، في: قصّة الكتاب، ومقدّمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للمحتويات.

تهديد

لا شك في أنَّ الصدام بين الحضارتين المسيحية والإسلامية قديم، فبعض الدارسين يُعيده إلى الرسائل التي أرسلها الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى هرقل إمبراطور الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة، وما تلا ذلك من فتوح إسلامية، وانتشار للإسلام، الذي بلغ -في وقت قصير نسبياً- الأندلس في الطرف الجنوبي الغربي من أوروبا، فتحوّل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية، وإلى تركستان الشرقية على حدود الصين⁽¹⁾، فضلاً عن محاولات عديدة لفتح القسطنطينية تيمناً بالحديث النبوي الشريف، الذي روته أم حرام، "عن أم حرام أنها سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا [أي فعلوا]". قالت أم حرام: قلت يا رسول الله: أنا فيهم، قال: أنت فيهم". ثم قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر [أي القسطنطينية] مغفور لهم"، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله، قال: لا"⁽²⁾. والحديث الذي رواه عبد الله بن بشر الخثعمي عن أبيه، أنه سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "لنُفْتَحَنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش. قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك، فسألني، فحدثته، فغزا القسطنطينية"⁽³⁾.

وبعضهم يعيدها إلى حروب الفرنجة (الصليبية) (نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)، حيث غزت جيوش أوروبا المسيحية بتحريض من بابا الفاتيكان "أوربان الثاني" المشرق الإسلامي-كانت بدأت حرباً صليبية قبيل ذلك في الأندلس-واستمرت هذه الحرب الوحشية والرهيبية مدة قرنين من الزمن. وقد واجه المسلمون هذا الغزو المتوحش بعقيدة جهادية قوية، وكان للأدب دور مهم في

(1) تركستان: منطقة واسعة في آسيا الوسطى، قسمتها سلسلة جبال إلى شرقية وغربية، ومساحتها تزيد عن (2,600,000 كم²). وهي كلمة فارسية مكونة من مقطعين: ترك وستان. وتعني أرض الترك، فتحها القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (98هـ). احتلت الصين الشيوعية سنة (1948) القسم الشرقي منها، وغيّرت اسمها إلى (شينج يانج)، وقامت بإجراءات كثيرة لصهر سكانها في المجتمع الصيني، وتحويلهم إلى الشيوعية منها: القتل، والتجهير، والاستيطان، وفرض اللغة الصينية، وهدم المساجد، ومنع أهلها من تسمية أبنائهم بأسماء إسلامية وعربية. تزيد مساحتها عن مليون و(664) ألف كم²، وعدد السكان الحالي عن (21) مليون نسمة أكثرهم من المسلمين، أما تركستان الغربية فتضم خمس جمهوريات إسلامية استقلت عن الاتحاد السوفياتي بعد انهياره، لكنها ما زالت مرتبطة بروسيا بشكل أو آخر. انظر: موسوعة الموارد العربية، 308/1.

(2) البخاري، الصحيح، حديث رقم (2721)..

(3) ابن حنبل، المسند، حديث رقم (18189).

إذكائها؛ فتمكن عماد الدين زنكي سنة (539 / 1144) من تدمير أول مملكة صليبية في المشرق الإسلامي عندما حرّر مدينة الرّها (أورفا اليوم وهي مدينة كبيرة في تركيا)، إحدى أقدس المدن الستة لدى النصارى، ثم وّحد نور الدين زنكي مصر والشام سنة (564 / 1168)، ما مهّد الطريق لفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (583 / 1187)، فانتقل مركز ملك النصارى إلى عكا، وعرفوا قيمة مصر في معادلة صراعهم مع الإسلام، فأصبحت وجهة حملاتهم، حتى تم طردهم من الشام نهائياً على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة (690 / 1291).

وبعضهم يرى غير ذلك، ولكن الأرجح أنّ هذه الحرب بدأت - بغض النظر عن تاريخ بدايتها - وهي لم تنته بعد؛ لأنّ النصارى يريدون إلغاء الإسلام بكلّ السبل الممكنة، وهم في كلّ حرب شنّوها على المسلمين كانت تُفتضح غايتهم، وفي كلّ نصر حققوه على المسلمين كانوا يُعلنون ذلك بوضوح، ومن ذلك: أنّهم عندما شنّوا سنة (1332/1914) الحرب على الدولة العثمانية الإسلامية، وأنزلوا جيوشهم في شبه جزيرة "غاليلولي"، وخاضوا حرباً استمرّت (261) يوماً في المعركة التي سمّاها المسلمون "جناق قلعة"، وسمّاها النصارى "الدردنيل"، كانوا أعلموا قيصر روسيا أنّهم عندما يحتلون القسطنطينية (إستانبول) عاصمة دولة الخلافة العثمانية الإسلامية، سيقدّمونها هدية له مُقابل تعهده بعدم الانسحاب من الحرب العالمية الأولى.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية الإسلامية، اقتسمت بريطانيا وفرنسا ممتلكاتها، وتكرّتا لعودهما للشريف حسين بن علي، شريف مكة المكرمة بمنح الولايات العربية الاستقلال، وتمكينه من إقامة دولة عربية واحدة يكون هو فيها الخليفة العربي للمسلمين. وعندما احتلت بريطانيا القدس أعلن الجنرال إدmond أَلنبي: "الآن انتصرت الحرب الصليبية، وأصبحت القدس لنا أبدية" (1)، كما أنّ الكنائس المسيحية كلّها؛ شرقية وغربية، وحتى الكنائس التابعة لألمانيا التي هُزمت في الحرب، قرعت أجراسها عند احتلال المدينة من الجيش البريطاني؛ فرحاً وابتهاجاً. قال واصف جوهرية-وكان شاهد عيان-: "وفي ذلك اليوم أذكر أنّ جميع الطوائف المسيحية، في كنائسها دقت الأجراس، والتواقيس ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة، وأقامت الصلوات في الكنائس" (2). وأكّد ذلك محمد كرد علي، مشيراً إلى أنّ الاحتفاء شمل حتى الكنائس الألمانية، قال: "وقيل: سقطت بيت المقدس ... في أيدي الفرنج بعد أن خرجوا منها في الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة، وقرعت أجراس الكنائس فرحاً بسقوط القدس، ومن جملتها الكنائس الألمانية؛ كأنّ ما

(1) نجيب الأحمد، فلسطين، ص126؛ وانظر: واصف جوهرية، القدس الانتدابية، ص280؛ عارف العارف، تاريخ القدس، ص136.

(2) واصف جوهرية، القدس الانتدابية، ص277.

خسرته ألمانيا سياسيًا، فهذا السقوط يُعزّيها بعودة الأرض المقدّسة دينيًا إلى أيدي المسيحيين" (1).

وعندما احتل الجيش الفرنسي مدينة دمشق سنة (1920/1338)، توجّه قائد الجيش الفرنسي "هنري جوزيف غورو" (ت1944/1366) إلى قبر السلطان صلاح الدّين الأيوبي قرب المسجد الأمويّ، وقال بعدما ركّله بقدمه: "ها قد عُدنّا يا صلاح الدّين" (2)، وفي رواية: "قم يا صلاح الدّين، ها قد عُدنّا".

وكان "غورو" حاقّدًا على الإسلام، والمسلمين؛ إذ شارك في حروب كثيرة ضد المسلمين، كان من أهمها معركة "جناق قلعة" حيث كان قائد الجيش الرابع الفرنسي، فأصيب بشظية أفقدته ذراعه، وقد جاءت الشظية من المدفعية العثمانية الإسلامية، التي كان يقودها القائد العربيّ المسلم يوسف بك العظمة من ولاية سوريا، وهو الذي قاد معركة ميسلون ضد جيش "غورو" واستشهد فيها. وكان أهل الشام يُعلّقون على "غورو"، فيقولون: "غورو نصفه خشبة".

وحديثًا أعلن أكثر من رئيس أوروبي وأمريكي عن أنّ ما يقوم به ضد هذا البلد العربيّ، أو الإسلاميّ أو ذلك إنّما هو حرب صليبية. وعندما سقط الاتحاد السوفياتي عام (1991/1412) اعتبر ذلك نهاية للحرب العالمية الثالثة، على اعتبار أنّ الحرب التي كانت قائمة بين حلفي الأطلسيّ ووارسو، هي حرب باردة، وهي الحرب العالمية الثالثة، ونهايتها كانت لصالح حلف الأطلسي، وأنّ على الغرب الاستعداد لمواجهة الإسلام والمسلمين.

وقد أصرّ الغرب المسيحيّ على الإبقاء على حلف الأطلسيّ، وزيادة قوته لمواجهة ما أسماه الخطر الإسلاميّ، وأكد ذلك رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر، وغيرها. وعندما أعلن جورج بوش الأب الحرب على العراق قال في خطاب إعلان الحرب: إنّها حرب صليبية. وقال في لقاء له مع نبيل شعث عضو اللجنة المركزية لحركة فتح: إنّ المسيح يأتي إليه في النوم، ويقول له: افعل كذا.

كما أنّ "توني بليز" قال في لندن-عندما كان رئيسًا لوزراء بريطاني- إنّ الإسلام يشكل خطرًا على المجتمعات والدول الأوروبية، وعلى استقرار العالم كلّها؛ لذلك دعا أوروبا وأمريكا إلى حلّ مشاكلهم مع روسيا والصين للتفرّغ لمواجهة الإسلام.

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 146/3.

(2) انظر: جلال العالم، قادة الغرب، ص26.

وفي كل الأحوال فإنّ هذا الصدام كان يؤدي إلى تمازج بشكل، أو بآخر بين الحضارتين الإسلاميّة والمسيحيّة، وبين شعوبهما.

والمهم هو ما تكون عليه نتائج هذا التمازج، وآثاره، فالغرب أفاد من خسارته في نهاية الحروب الصليبيّة إفادة كبيرة، تمثّلت في ضرورة أن يتبع العمل العسكري عمل في مجالات الحياة كلّها، وبخاصّة: الدّينيّ، والفكريّ، والتربويّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والسياسيّ؛ لأن ما يتمّ عمله في هذه المجالات يؤدي إلى تثبيت نتائج العمل العسكريّ من دون خسائر بشرية، أو مادية تُذكر.

تلك السياسة بدأ الغرب والاتحاد السوفياتي (ثم خليفته روسيا) بتطبيقها تدريجيّاً منذ بدأت الامتيازات الأجنبيّة، التي بدأها السلطان سليمان القانونيّ لأهل البندقية سنة (928 / 1521)، ثم تبعها امتيازات أخرى حتى أصبحت قرحة في جسم الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، لا بل دخل الخنزير الأوروبيّ الخيمة العثمانيّة، وأخذ يتوالد حتى تكاد تضيق الخيمة بالخنزير⁽¹⁾، وزادت وتيرتها قوة بعد الاحتلال الفرنسيّ لمصر وبعض الشام، فيما سُمّي "حملة نابليون بونابرت" على مصر، ثم في مرحلة الاحتلال الغربيّ العسكريّ للوطن العربيّ والإسلاميّ، الذي استمرّ حتى (العقد التاسع من القرن الرابع عشر الهجريّ/ السابع من القرن العشرين)، بحيث غادرت الجيوش الغربيّة كثيراً من المواقع، كقوّات احتلال، وسلّمت صنائعها- غالباً- في البلدان العربيّة والإسلاميّة مقاليد الحكم، فأخذوا يُعَرَّبون المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، أو يجعلونها شيوعيّة، وكلّ ذلك بهدف مُحاربة الإسلام، ومنع إقامة خلافة إسلاميّة، أو أي رابطة، أو جامعة إسلامية يلتقي العرب والمسلمون في ظلّها لقاء حقيقيّاً لا اسميّاً، وتكون عامل وحدة، وصهر، وقوّة وعزّة للإسلام والمسلمين، لا عامل ضعف، وشقاق، ونزاع كما هو الحال في الجامعة العربيّة، ومنظمة المؤتمر الإسلاميّ التي تحوّلت حديثاً إلى منظمة التعاون الإسلاميّ.

إنّ ذلك بالضبط هو ما دعا إليه المبشّر صموئيل زويمر في مؤتمر المبشرين الذي عقد في جبل الزيتون بالقدس الشّريف سنة (1935/1354) برعاية الاحتلال البريطانيّ وتأييده، حيث قال مخاطباً مئآت المبشرين: "أيّها الإخوان الأبطال والزملاء، ممّن كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحيّة واستعمارها لبلاد الإسلام، فأحاطتهم عناية الرّب بالتوفيق الجليل المقدس.

لقد أدبتم الرّسالة التي نيّطت بكم أحسن الأداء، ووَقَّعْتُمْ لها أسمى التوفيق، وإن كان يُخَيَّل إليّ أنّه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه، لم يفتن بعضكم إلى الغاية

(1) علق المستشرق فيليب حتّي على الامتيازات بقوله: "وبذلك دخل رأس الجمل الأوروبي الخيمة التركية". انظر: فيليب حتّي، تاريخ سوريا، 313/2.

الأساسية منه، إني أقرّكم على أنّ الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية، لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قُلتُم أحد ثلاثة - إمّا صغير لم يكن له من أهله مَنْ يُعرّفه ما هو الإسلام، وإمّا رجل مُستخفّ بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته - وقد اشتدّ به الفقر وعزّت عليه لقمة العيش-، وإمّا آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مُهمّة التبشير التي ندبّتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المُحمّدية، ليست هي إدخال المُسلمين في المسيحية، فإنّ هذا هداية لهم وتكريماً، وإمّا مُهمّتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام، ليُصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قُمتُم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه، وتُهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً من أجله كلّ التهنئة.

لقد قبضنا أيّها الإخوان في هذه الحقبة من الدّهر، من [النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري] ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا [أي سنة 1354/1935] على جميع برامج التّعليم في الممالك الإسلامية المُستقلّة، أو التي تخضع للنّفوذ المسيحي، أو التي يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً. ونشرنا في تلك الرّبوع مكامن التبشير المسيحي، والكنائس، والجمعيات، وفي المدارس الكثيرة، التي تُهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية، وفي مراكز كثيرة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولاً، وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلّها.

إنّكم أعدّدتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السّير في الطريق الذي مهّدتم له كلّ التّمهيد [إخراج المسلم من الإسلام].

إنّكم أعدّدتم نشأ لا يعرف الصّلة بالله، ولا يُريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تُدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النّشء الإسلاميّ طبقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم، ويُحبّ الرّاحة والكسل، فإذا تعلّم، فللشّهوات، وإذا جمع فللشّهوات، وإنّ تبوّأ أسمى المراكز، ففي سبيل الشّهوات يَجود بكلّ شيء.

إنَّ مُهَمَّتكم تتَمُّ على أكمل الوجوه، وقد انتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمرُّوا في أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الله⁽¹⁾.

كان الأدب؛ شعراً ونثراً، من المجالات التي اهتمَّ بها الغرب وروسيا في الوطن العربي، لما له من أثر في تربية الأجيال الناشئة، ولذلك دعوا عبر المستشرقين، والمبشرين الذين عمل أغلبهم في التعليم بالوطن العربي، أو تعليم العرب في معاهد أوروبا، وجامعاتها، فضلاً عن عمل بعضهم في تحقيق كتب التراث ونشرها، والتأليف في فروع اللغة والأدب العربي المختلفة -إلى ما أسموه التجديد، والتنوير، والنهضة (هو في الحقيقة تغريب) من خلال الاحتذاء بما هو قائم في الآداب الغربية والروسية.

وسار على أثر المستشرقين والمبشرين كثير من تلاميذهم العرب، فسادت في الآداب واللغة العربية مناهج الغرب وروسيا، ومذاهبهم الأدبية والنقدية، واعتبروا أكثر ما أوجده العرب والمسلمون طوال تسعة قرون تقريباً (من نهاية العصر العباسي الثالث مع بعض الاستثناءات وحتى احتلال نابليون مصر) انحطاطاً وجموداً، وتخلُّفاً، وبالتالي لا قيمة له، بنما اعتبروا ما أبدعه بعض الشعراء والكتاب والمفكرين منذ الاحتلال الفرنسي لمصر في حملة نابليون: تقليداً، واتباعاً، وإحياء، وبعثاً للأساليب الأدبية العربية في العصور الإسلامية قبل عصور الانحطاط والجمود، ثم سمَّوه "كلاسيكياً" جريباً على التقليد الأعمى للغرب، وهي مُسميات لا شيء فيها من الحقيقة، فالأدب العربي واللغة العربية استطاعا أن يواكبا كلَّ العصور بنجاح، فاللغة العربية مكنت العربي من استخدامها في كلِّ شؤونه عندما كان العربي أهلاً لها، وأنتج أدباً لاقى إقبال أهل الأدب واللغة كلهم؛ لأنَّه عالج همومهم، وقضاياهم، واستشرف آفاق مستقبلهم.

أمَّا وقد ابتعد الأدباء عن لغتهم، وأهلها، وراحوا يكتبون للكتابة (الفن للفن) وغيره من المذاهب الغربية والشرقية الغربية عن اللغة العربية وأهلها، وثقافتهم، فقد حصل اغتراب في العلاقة بين المبدع والمتلقي، ويظهر ذلك الاغتراب لكلِّ ذي عقل وبصيرة؛ فالأدباء في وطننا العربي اليوم كثر، ونتاجهم ضخم، ولكنَّ تأثيرهم وتأثيره في المجتمع قليل وقليل، وهذا من نتاج السير على خطى الغرب والشرق في غير هدى وتميُّز، وخصوصية، وابتعادهم عن مصادر الثقافة العربية الإسلامية.

(1) عبد الله التل، جذور البلاء، ص 275. هذا نصُّ الخطاب الذي ألقاه صموئيل زويمر، رئيس جمعيات التبشير المسيحية، في مؤتمر التبشير المسيحي بالقدس الشريف، ودعا فيه المبشرين إلى إخراج المسلمين من الإسلام، وتركهم بلا دين، بل دينهم هو: شهواتهم.

الفصل الأول

عوامل نهضة الأدب العربي ومناقشتها.

أولاً : عوامل نهضة الأدب العربي (تغريبه) .

ثانياً : مناقشة بعض عوامل نهضة الأدب العربي .

الفصل الأول

عوامل نهضة الأدب العربي ومناقشتها.

أولاً : عوامل نهضة الأدب العربي (تغريبه).

يُطلق عصر النهضة على الحقبة الممتدة من حملة "نابليون بونابورت" سنة (1798/1212) على مصر والشام حتى وقتنا الحاضر (أي سنة 2018/1439)، وذلك باعتبار أن الحقبة بعد العصر العباسي الثاني هي حقبة ظلام وفساد، وانحطاط وانحدار في كل شيء. وقد رأى كثير من دارسي الأدب العربي الحديث أن الأدب بدأ نهضته (سيره في ركاب الآداب الغربية والشرقية، وتقليده الأعمى لها) بتأثير عوامل عديدة، هي:

1- احتلال نابليون بونابرت مصر وبعض الشام ما بين (1798/1212 و1801/1216).

يرى كثير من دارسي الأدب العربي الحديث أن حملة نابليون (احتلال) بذرت في مصر بذور النهضة الأوروبية، من خلال ما جلبته معها من مظاهر تلك الحضارة "فأنشأت مدرستين، وجريدتين، ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً، ومكتبة، ومطبعة، كما أنشأت معامل كيميائية، ومراصد فلکیّة، وغير ذلك من وسائل النهضة العلميّة"⁽¹⁾.

(1) عزيزة مریدن، حركات الشعر، ص14.

2- الإرساليات التبشيرية المسيحية

مكنت التنظيمات العثمانية التي أصدرها السلاطين العثمانيون بضغوط عدد من الدول الأوروبية وروسيا القيصرية، تلك الدول من غزو ولايات الدولة العثمانية الإسلامية بعامة، والعربية منها بخاصة ثقافياً ودينياً-تمهيداً للغزو العسكري- وذلك عبر ما سُمي الإرساليات التبشيرية المسيحية الكاثوليكية، واليسوعية، والبروتستانتية، والأمريكية، والروسية التي غزت بلاد الشام، وتنافست فيما بينها على إنشاء المدارس، والمعاهد، والجامعات، والأديرة، والكنائس من أجل نشر مذاهبها الدينية، ولغات وثقافة البلدان التي تتبعها، وتوفر لها المال اللازم لعملها. وقد كان مدراء تلك المؤسسات، وأكثر العاملين فيها، وبخاصة المدرسين من بلدان تلك المؤسسات. وهم الذين تُوكل لهم مهمة اختيار الطلبة الذين يتم ابتعاثهم لإكمال دراساتهم في معاهد وجامعات بلدان تلك الإرساليات، ووفق قواعد وأسس هم يُحددونها.

3- انتشار المطابع، وكثرة الصحف والمجلات

أدى انتشار المطابع في مصر وبلاد الشام إلى تأسيس كثير من الصحف والمجلات-وذلك حسب كثير من دارسي الأدب العربي الحديث-كما أدت المطابع إلى كثرة المطبوعات الأدبية من التراث العربي الإسلامي، ومن الأدب الغربي المترجم، فزاد اطلاع الأدباء على صنوف الأدب العربي، والغربي، كما أن الأدباء وجدوا مكاناً؛ في الصحف والمجلات لنشر نتاجهم، وفي المطابع لطباعة كتبهم ومؤلفاتهم، ونشرها؛ فزاد تلاقح أفكارهم، ما أسهم في زياد التعليم والوعي، وبالتالي أسهم في نهضة الأدب العربي وغيره من ألوان الثقافة.

4- ظهور بعض المصلحين في الوطن العربي:

ظهر عدد ممن أطلق عليهم لقب مصلح ديني واجتماعي في الولايات العربية-وذلك تقليداً لما كان قائماً في الغرب-ومنهم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبد الوهاب، وغيرهم ممن دعا إلى إجراء إصلاحات في المجتمعات العربية والإسلامية، ونظام الحكم، وغيرها من القضايا التي تهّم المواطن العربي والمسلم، فكان ذلك عاملاً من عوامل النهضة.

5- عودة كثير من الطلبة المبتعثين في أوروبا وروسيا القيصرية

لجأت كثير من الإرساليات والمدارس المسيحية إلى اختيار بعض الطلبة الدارسين فيها، وابتعاثهم لإكمال دراساتهم في المعاهد والجامعات التي تختارها

بهدف اكسابهم ثقافة تلك البلدان، ومذاهبها في الحياة، وقد فعل نابليون الفعل نفسه، وكان هدفه أكثر وضوحاً في الرسالة التي أرسلها إلى نائبه في مصر "كليبر"، ولمّا جاء محمد علي باشا لحكم مصر فعل الشيء نفسه ولكن بهدف الرقي بمصر، والسير بها في طريق نهضة شاملة لكن الغرب وقف عائقاً أمام نقل كثير من العلوم إلى الطلبة الذين ابتعثهم محمد علي، ومن خلفه في الحكم، فظهر تنافس بين الدول الغربية والجهات العربية حول ما يجب أن يكون عليه المبتعثون، وقد عاد عدد كبير من الطلبة المبتعثين إلى بلدانهم في الوطن العربي، وبخاصة بلاد الشام، والعراق، ومصر. وقد حمل أكثرهم ثقافة البلد الذي درس فيه، وفكره، وأنماط حياته الاجتماعية، كما قاموا بترجمة كثير من نماذج الأدب في البلدان التي عادوا منها، فكانوا رسلاً للبلدان التي تعلموا بها، أكثر ممّا كانوا روافع للثقافة والفكر في أوطانهم، وكانت ترجماتهم سبباً مباشراً في ظهور حركات الشعر العربيّ سواء أكان ذلك في المضمون أم الشكل.

6- هجرة عدد من المثقفين النصارى الشاميين إلى مصر

أسهم الوضع الخاص الذي كانت تعيشه مصر تحت حكم سلالة محمد علي باشا، ثم قيام بريطانيا باحتلالها عام (1882/1299)، في هجرة عدد غير قليل من نصارى بلاد الشام بعامة، ولبنان بخاصة -الذين تعلموا في أوروبا أو روسيا، أو في المدارس والمعاهد التي أقامتها الإرساليات التبشيرية- إلى مصر، حيث أسهموا في تسريع حركة النهضة فيها، وأصبحت مصر ملجأً لكثير ممن عارضوا الدولة العثمانية الإسلامية؛ فشاركوا في النهضة الأدبية والفكرية من خلال الكتابة في الصحف والمجلات التي كانت تصل إلى بلدانهم، وإن كان ذلك بشكل محدود، فأسهمت بدورها في تفعيل النهضة في باقي البلاد العربية.

7- مبادرة الدولة العثمانية الإسلامية إلى تطوير الولايات العربية

بادرت الدولة العثمانية الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إلى على تطوير الولايات العربية، فأدخلت المطابع، وأقامت المدارس، والمعاهد العالية، وأنشأت الصحف والمجلات، ونشرت كثيراً من المؤلفات الأدبية، والإسلامية التراثية ما أدى إلى تسهيل اطلاع العامة من العرب والمسلمين على تراثهم العربي والإسلامي، ممّا جعلهم يفخرون بتراثهم، ويؤصلون به، فيعيدونه حيّاً في الأجيال الناشئة.

ذلك ما تعلمناه، وما يتعلمه أكثر طلبة العلم في العالمين العربي والإسلامي منذ أكثر من قرن من الزمان، وما زال أكثر طلبة العلم يتعلمونه على مقاعد الدراسة

حتى يومنا هذا (2018/1439)، فيما الحقيقة غير ذلك تماماً. وهذه الحقيقة لا بدّ من إظهارها، لعلّ في ذلك تنبيه للباحثين عن الحقيقة من دارسي الأدب العربي الحديث؛ فيعيدون النّظر فيما تعلّموه، ويعلمونه لطلبتهم، ويبدأون بدراسة الأدب في الحقبة المسمّاة "عصر الانحطاط والانحدار" دراسة موضوعيّة، ومن مصادره العربيّة والإسلاميّة؛ المطبوعة والمخطوطة على حدّ سواء.

ثانياً: مناقشة بعض عوامل نهضة الأدب العربيّ (تغريبه).

العوامل السابقة للنهضة الأدبيّة، والعلميّة في الوطن العربيّ، والستة الأولى منها بخاصّة، اعتاد أكثر دارسي الأدب والتاريخ العربي، على التسليم بها، والتفاخر بآثارها الإيجابية على مظاهر الحياة العربيّة في كلّ المجالات، لكن من دون التفكير في ماهية النهضة التي حصلت، وطبيعتها؛ فبعد أكثر من قرن من الزمن لا أرى أننا نعيش أيّة نهضة، فقد جربنا كلّ شيء من أجل الوحدة، ونظام حكم عادل، يضمن الحرية، والمساواة، وحقوق الإنسان، ولم نُفلح في ذلك لأننا بقينا تبعاً لغيرنا، نستخدمنا المستعمر لمحاربة ذاتنا في كلّ شيء، وهو ما زال يُصنّفنا كما يشاء، وأفضل صفة يصفنا بها هي "الدول النامية" فيما هو يقصد ضدّ تلك الصفة، ويُعاملنا على ذلك الأساس.

أما العامل الأخير من عوامل النهضة فلا أحد يذكره، مع أنّه كان هو البداية للنهضة، فلمّا انتهت الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، فقدنا كلّ شيء؛ فقدنا خصوصيتنا كأمة عربيّة إسلاميّة، خير أمة أخرجت للناس، وصرنا -غالباً- كما رسم لنا المخطط المبشر صموئيل زويمر. وعليه رأيت من الضروري توضيح عوامل النهضة تلك للناشئة، لعلهم يستفيدون، ويبحثون عن العوامل الحقيقيّة لنهضة أيّة أمة من الأمم، ومنها أمتنا العربيّة الإسلاميّة، وذلك على النحو الآتي:

1- حملة نابليون

إنّ ما أشاعه أكثر دارسي الأدب العربيّ حول حملة نابليون، وأثرها الإيجابي في المجالات: الثقافيّة، والعلميّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، واعتبارها بداية النهضة العربيّة في مجالات الحياة كلّها، لا يقف أمام الحقائق التي ذكرها أهم معاصري تلك الحملة، وشاهد العيان على مجرياتها، وهو الأديب والمؤرّخ المصريّ العربيّ المسلم، عبد الرحمن الجبرتي (ت 1241 / 1825)، ذلك أنّ هؤلاء الذين أشادوا بالحملة، اعتمدوا أقوال المستشرقين وتلاميذهم، ولم يتحرّوا الحقيقة الماثلة في مؤلفات "الجبرتي"، وبخاصّة كتابيه "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين"، و"عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، وبذلك شوّشوا عقول أجيال القرن الماضي،

وأضلّوهم الطريق المستقيم، وما زالت مؤلفاتهم تفعل فعلها، ويتناقلها الكتاب والمعلّمون، وأساتذة الجامعات في مؤلفاتهم، ومناهج التعليم التي يشتركون في وضعها على أنّها حقائق، وهي ليست كذلك. وقد قال ربّ العزّة في محكم التنزيل ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾⁽¹⁾. وعليه أورد هذه التعليقات المستندة إلى الحقائق التاريخية الثابتة التي لا يمكن إلغاؤها مهما حاول المضللون والمشوّشون وغيرهم فعل ذلك.

حملة نابليون لم تكن لبناً وعسلاً على أهل مصر وأرضهم، وثقافتهم، وعقيدتهم، ومقدّساتهم، بل كانت من أبشع أنواع الاستعمار، الذي حاول نابليون تجميل صورته القبيحة بالكذب الصريح الهادف إلى الخداع والتضليل. وذلك على الرّغم من أنّ هذه الحملة التدميرية تمّت بعد تسع سنوات فقط من الثورة الفرنسية، التي ألغت عهداً، وفتحت عهداً جديداً في فرنسا، ادّعت أنّه يقوم على ثلاثة مبادئ هي: الحرية، والمساواة، والإخاء. وإعلان حقوق الإنسان والمواطن، وبعد اثنتين وثلاثين سنة قامت بأبشع احتلال في العالم الحديث، حين احتلت الجزائر، وحاولت طوال أكثر من قرن وثلاث القرن فرنستها.

الاحتلال الفرنسي لمصر سنة (1798/1212) باختصار شديد خلف أكثر من (300) ألف شهيد مسلم مصريّ، عندما كان عدد سكان مصر لا يزيد عن (2,460000) مليونين وأربعمائة وستين ألف مواطن، ونهب ثروات مصر، فأفقر الشعب المصري بالضررائب والمصادرات الظالمة، وسرق كثيراً من المكتبات والآثار المصرية التي لم تُحص بعد، وما زالت موجودة في متاحف فرنسا، وأفسد الحياة الاجتماعية، والدينية في مصر من خلال إثارة الأقلية المسيحية، ودفعها إلى ارتكاب الجرائم بحق المسلمين، ودمّر كثيراً من المساجد، ودّس أخرى، وشكّل جماعات من العملاء له في مصر وغيرها عبر البعثات الثقافية، والزيارات المجانية لفرنسا، ودعا إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين قبل قرن من عقد المؤتمر الصهيونيّ في مدينة "بازل" بسويسرا، وأجهض الحركة العلمية الإسلامية في مصر، وغيرها كثير، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

أ. استخدام الدواوين لتنفيذ أوامر الاحتلال، وتمكينه من مصر

روّج المستشرقون وتلاميذهم للاحتلال الفرنسيّ بما ادّعوه له من آثار إيجابية في الحياة السياسية بمصر، من خلال إنشاء الدواوين، وبخاصة ديوان الحكم (البرلمان)، وديوان القضاء، والديوان الخصوصي والدائم، وديوان الحرف وغيرها.

(1) يونس، 26/10.

الحقيقة أنّ نابليون، وقادة جيوشه كانوا يُغيّرون أسماء الدواوين وأعضاءها وفق حاجتهم، بل إنّ نابليون أبطل ديوانه الأول بعد شهرين من إنشائه. وقد أكد ذلك عبد الرحمن الجبرتي، الذي عيّنه قائد الحملة الأخير عبد الله جاك منوا عضواً في ديوان الحكم (البرلمان) ⁽¹⁾، فقال إنّ هذه الدواوين كانت تُعقد بأمر من قادة جيش الاحتلال الفرنسي، فكلّما أرادوا إصدار أمر لصالح تثبيت الاحتلال من خلال تنفيذ أوامره العسكرية يتمّ الدّعوة لعقدها، كما أنّ رئيس كلّ ديوان كان باستمرار فرنسيّاً، والأغلبية فيها كانت للنصارى، ما جعل هؤلاء يتطاولون على المسلمين، ويعملون ما بوسعهم من أجل إذلالهم بحماية الاحتلال الفرنسيّ. وكان أعضاء الدواوين يستندون في أحكامهم، وقوانينهم إلى قوانين فرنسا الكافرة، والخارجة عن قواعد الأحكام الشرعيّة الإسلاميّة، ومن ذلك:

1- في يوم الخميس (الثالث عشر من صفر سنة 1213 الموافق 1798 / 7/26) شكّل نابليون ديوان الحكم (البرلمان)، وعيّن أعضائه من المشايخ الذين كان يعرف أنّه من دونهم لن يتمكن من تثبيت سلطته، لذلك تقرّب منهم، لكنّه لمّا وجد أنّهم لن يُساعدوه على شعبيهم أهانهم، وسجنهم، وأخذ بعضهم رهائن لمدد محدّدة، وفي إحدى المرات أهين كبار أعيان مصر وعلمائها بأن تمّ احتجازهم في مقرّ الحاكم الفرنسيّ حتّى بال بعضهم على نفسه، أو من شبابيك المقرّ، وكان نابليون جعل من أسس تعيين أعضاء الدّيون: حسن استقبال جيش الاحتلال ⁽²⁾.

2- كان من أهم القضايا المناطّة بالدّيون، هو الاجتماعات من أجل تنفيذ قوانين الاحتلال، وأهمها فرض الضرائب، ومحاولة ترويض الشعب المصريّ، وتضليل السلطان العثمانيّ، والمسلمين في البلدان المجاورة، وبخاصة بلاد الحجاز التي تضمّ أقدس المقدسات الإسلاميّة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

قال الجبرتي: "وفيه [شهر ربيع الثاني سنة 1213 الموافق لشهر أيلول 1798] شرعوا في ترتيب ديوان آخر، وسمّوه محكمة القضايا، وكتبوا في شأن ذلك طوماراً ⁽³⁾، وشرطوا فيه شروطاً بالفاظ يعافها الطبع، ويمجّها السّمع، ورتّبوا به ستة من القبط، وستة من تجار المسلمين، وقاضيه الكبير "ملطي القبطي" ... وفوضوا إليه القضايا في أمور التجار والعامّة، والمواريث

(1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص233.

(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص84، 87، 102-103، 112-113، 132 وغيرها كثير.

(3) الطومار: الصحيفة. اللسان: مادة طمر.

والدّعاوى، وجعلوا لذلك الدّيوان قواعد من الخبث، وأساسًا من الكفر، ودعائم من الظلم، وأركانًا من البدع السيئة ... مُحصّلها التّحْيُل على سلب أموال الناس، ونزع ما بأيديهم من: مال، وعقار، وميراث، وغير ذلك"(1).

3- كان الفرنسيون يمنعون الناس من الحديث في شؤون جيش الاحتلال الفرنسيّ، أو السخرية منه، أو الحديث في العلاقة مع الدولة العثمانية الإسلامية، وبريطانيا تحت طائلة العقوبة بقطع اللسان، أو دفع غرامة مالية عالية. وكثيرًا ما كانت الشرطة تُنادي في الأسواق بحظر بذلك، كما بثّ الفرنسيون الجواسيس بين العامة لنقل الأخبار لهم؛ وذلك باعتبار السياسة وشؤونها من الأمور التي لا يحقّ للمصريين الحديث فيها.

ومن ذلك أنّه عندما حصل اشتباك مسلح بين سفن فرنسيّة وبريطانيّة في الإسكندرية في (شهر ربيع الأول سنة 1213 الموافق لشهر آب 1798)، وتحدّث الناس في الخبر، قال الجبرتي: "واتفقوا أنّ بعض النصارى نقل عن رجل شريف يُقال له السيّد أحمد الزرو- من تجار وكالة الصّابون بخت الجمالية - أنّه تحدّث بذلك، فأمرّوا بإحضاره، وذكروا له ذلك، فأنكر، وقال: إنّني سمعت من فلان نصرانيّ، فأحضروه- أيضًا وأمرّوا بقطع لسان الإثنين، أو يدفع كلّ واحد مائة ريال فرانسه... فانكفّ النَّاس عن التّكلم في شأن ذلك"(2).

وفي شهر ربيع الثاني الموافق لشهر أيلول من السنة ذاتها، لمّا عاد الناس للحديث في السياسة، والهزء من جنود الاحتلال، قامت الشرطة بتحذير الناس، قال: "وفيه نادى أصحاب الدّرك على العامة بترك الفضول والكلام في أمور الدّولة، وإذا مرّ عليهم جماعة من العسكر مجروحين، أو مُنهزمين لا يصرخون بهم، ولا يُصقّقون عليهم كما هي عادتهم"(3).

وكذلك فعلت الشرطة في (شهر شوّال من السنة ذاتها الموافق لشهر آذار 1799)، قال: "شقّ جماعة من أتباع الشرطة في الأسواق، والحمامات، والقهاوي، ونبّهوا على النَّاس بترك الفضول، والكلام، والتّلفظ في حقّ الفرنسيّين، ويقولون لهم: مَنْ كان يؤمن بالله وبرسوله، [صلى الله عليه وسلم]، فلينته، ويترك الكلام في ذلك، فإنّ ذلك ممّا يُهيج العداوة، وعرفوهم

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص102-103.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص93.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص104.

أنه إن بلغ الحاكم من المتجسّسين عن أحد تكلم في ذلك عُوقب أو قُتل، فلم ينتهوا، وربّما قبضوا على البعض، وعاقبوه بالضرب والتغريم"⁽¹⁾.

4- كان الفرنسيون يُجبرون المشايخ المسلمين في الديوان على كتابة رسائل تضليل إلى: السلطان العثمانيّ، وشريف مكة المكرمة، وعامة أهل مصر مُفادها أن الفرنسيين يُؤيدون السلطان، ويقيمون شعائر الإسلام، وأنهم مسلمون، ويحترمون القرآن، والنبي محمد، صلى الله عليه وسلّم. قال: "وفيه [شهر ربيع الثاني سنة 1213 الموافق لشهر أيلول 1798] كتبوا من المشايخ كتابًا ليرسلوه إلى السلطان، وآخر إلى شريف مكة، ثم إنهم بصموا منه عدّة نسخ، ورموه بالطرق والأزقة، وصورته ملخصًا بعد الصدر [المقدّمة]... وذكر فيه أنه من أخصاء السلطان وأعداء أعدائه، وأن السّكة [النقود]، والخطبة باسمه، وشعائر الإسلام مُقامة على ما هي عليه. وبقي الكلام المُموّه الذي ذكروه بمعنى الكلام السابق من كذبهم، وقولهم إنهم مسلمون، ويحترمون النّبيّ، والقرآن، وإنهم أوصلوا الحجاج المشتتين، وأكرمواهم، وأركبوا الماشي، وأطعموا الجائع، وسقوا العطشان، وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء"⁽²⁾.

ب. إثارة الفتنة الدّينية في مصر

أثارت حملة نابليون الفتنة الدّينية والعرقية بين النصارى والمسلمين في مصر والشرق العربي، بتخطيط حاقده من نابليون نفسه، وما زالت الفتنة ثائرة حتى يومنا هذا (1439 / 2018)، تخبو حينًا، وتنشط حينًا، وتشتدّ فتعصف بالمنطقة حينًا آخر، كما هو الحال في المشرق الإسلاميّ، منذ أكثر من خمسة عشرة عامًا، وذلك بتحريض مباشر وغير مباشر من الدول المسيحيّة؛ الغربية والشرقية.

لقد أعلن "نابليون" وهو في طريقه لاحتلال مصر نيّته تشكيل جيش عميل من الأقليات في الشرق، مكوّن من عشرين ألف جندي؛ ليكون قبضته الضاربة، ومواطئ أقدام لاحتلال الفرنسيّ، وما أن وصل مصر حتى بدأ تنفيذ مخطّطه، فاستعان بأراذل النصارى من: القبط، والروم، والشام، ومنحهم صلاحيات الفتك بالمسلمين، ومصادرة ممتلكاتهم، وتدنيس مقدّساتهم وهدمها، فنقض هؤلاء الأراذل عهد ذمتهم مع المسلمين، وعاثوا فسادًا في مصر وغيرها، وقد منح الفرنسيون عددًا من النّصارى صلاحيات مكنتهم من الإفساد في الأرض، ومنهم:

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص153.

(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص106، 125-126.

1- في شهر (صفر سنة 1213 الموافق لشهر تموز 1798) منحوا المدعو "برطلمين"-الذي سمّته عامة أهل مصر باسم "فرط الرّمان" لتسهيل نطق اسمه-منصب نائب محافظ القاهرة، فيما كان هو من عامة الناس، فجعل نفسه من كبار القوم، وأفسد إفسادًا لا يصدق عقله، فشكل فرقة عسكرية لحمايته، وتنفيذ أوامره، وطرائقه الجهنمية لجمع الضرائب والأموال وفق هواه. وفرقة ثانية للتجسس على الناس، فكان يعتقل، ويصادر، ويُعذّب، ويسجن، ويقتل، لمصالحه ومصالح الفرنسيين.

قال الجبرتي: " وفيه⁽¹⁾ قلدوا برطلمين العسكريّ النصرانيّ الروميّ - وهو الذي تسميه العامة فرط الرّمان - جعلوه كتحدا مستحفظان⁽²⁾، والمذكور من أسافل النصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر، وكان طويجيًا⁽³⁾ عند محمد بيك الألفي، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة، فلما قلدوه المنصب، نزل بموكب من بيت بونابارته، وأمامه عدّة وافرة من طوائف الأجناد البطالين مشاة بين يديه، وعلى رأسه خشيشة من الحرير، ولابس فروة، وبين يديه الخدم بالحرايب المفضّضة. وسكن اللعين المذكور ببيت يحيى الكاشف الكبير⁽⁴⁾، بحارة عابدين، واحتوى عليه بما فيه من الفرش والمتاع والجواري وغير ذلك⁽⁵⁾."

وقال الجبرتي يصف جواسيس فرط الرّمان: "وانتدب برطلمين الكافر العسّ، على من حمل السلاح واختلس، وبث أعوانه في الجهات يتجسّسون في الطرقات، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم، فيحكم فيهم بمراده، ويعمل برأيه واجتهاده، ويأخذ منهم الكثير، ويركب في موكبه ويسير، وهم موثقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال، فيؤدعونهم في السجونات ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقرّرونهم بالعقاب والضرب، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب، ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم أيضًا القبض⁽⁶⁾."

-
- (1) أي في (شهر صفر سنة 1213 الموافق لشهر تموز 1798).
(2) كتحدا: نائب، أو قائم بالأعمال. مستحفظان: محافظ، أي نائب محافظ القاهرة. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص 188، 208.
(3) الطويجي: عامل المدفع. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص 148.
(4) كان يحيى الكاشف من أمراء مصر، وصاحب ذوق وعلم، فبنى هذا القصر وبه مكتبة ورسومات لكنه لم يتمتع به، (ت 1800/1215). انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 85، حاشية (3).
(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 85-86.
(6) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 119.

2- عيّن نابليون المدعو يعقوب القبطي -وقد لقّبه الجبرتي باللعين، فعُرف في مصر بـ "يعقوب اللعين"- قائدًا لفيلق قبطي، شكّله بمعرفته، وضمّ ألفي جندي قبطي، ودبّر أمور الحملة الفرنسية على صعيد مصر، التي قادها الجنرال الفرنسي "ديزيه"، فعاث في الصعيد فسادًا، وتدرّج في الرُتب العسكرية، فمنحه "كليبر" نائب نابليون رتبة كولونيل. ومنحه عبد الله جاك منوا خليفة "كليبر" رتبة جنرال. وكان قراره القول الفصل عند الفرنسيين، حتى منحه "كليبر" حرية التصرف بالمسلمين في مصر يفعل بهم ما يشاء، وبناء عليه عمل لنفسه ديوانًا في بيت عائلة البارودي، عُرف بالديوان الكبير، فأوقع بأهل مصر مصيبة لم يعرفوا لها مثيلًا من قبل، ثم شكل جيشًا خاصًا به، وبنى لنفسه في القاهرة على أنقاض بيوت المسلمين ومساجدهم قلعة لها أسوار، وعليها حراسة⁽¹⁾.

قال الجبرتي: "وفي خامس عشره [أي شهر ربيع الأول سنة 1213 الموافق لشهر أيلول 1798] سافر عدّة من الإفرنج إلى جهة الصعيد، وعليهم صاري عسكر المتولي على الصعيد اسمه دزه⁽²⁾ وبصحبتهم يعقوب القبطي⁽³⁾ ليدبّر لهم الأمور، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع، ويُطلعهم على الخبايا، ويصنع لهم الحيل، فمنها: أنّه كان يُرسل الجماعة من الإفرنج لقبض الأموال، وطلب الكُلف، ويُلبس البعض منهم لبس العثماني⁽⁴⁾، ويكتب لهم التحذير من المخالفة، ويذكر لهم أنّ هذا أمر سلطاني، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد، ويمتثلون للأوامر"⁽⁵⁾.

وقال الجبرتي يذكر تفويض "كليبر" نائب نابليون ليعقوب اللعين أمر المسلمين بعد أن ذكر مكانته عنده: "وفوض أمر ذلك ليعقوب القبطي يفعل في

-
- (1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 94-95، 210-213، 251، وغيرها.
 - (2) دزه: اسمه بالفرنسية "ديزيه" وهو قائد الجيش الفرنسي الذي احتل صعيد مصر. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 94، حاشية (4).
 - (3) يعقوب القبطي هو: يعقوب حنا القبطي، عاش ما بين (1158 / 1745 و 1801 / 1216) عميل الاحتلال الفرنسي، الذي منحه حق التصرف بالمسلمين في مصر، فعاث فسادًا فيهم وفي مصر، حتى ضرب المثل بعمالته فقل: "تلميذ المعلم يعقوب". وقد ألف فيه أحمد حسين الصاوي كتابًا بعنوان "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة"، ط2، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة، 2009. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 94، حاشية (5)، وكتاب الصاوي فيه ما يكفي.
 - (4) العثماني أو العثملي: هم جنود دولة الخلافة العثمانية الإسلامية. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 95، حاشية (1).
 - (5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 94-95.

المسلمين ما يشاء"⁽¹⁾. وتحدث عن ديوان يعقوب القبطي اللعين فقال: "ثم إن يعقوب اللعين عمل ديواناً لخاصة نفسه، ورثه ببيت البارودي، وأحضر المباشرين، ومشايخ الحرف والأخطاط [الأحياء]، وكتب القوائم، وقرّر على الأماكن والعقارات، والأوقاف أجرة سنة. وألزم كلّ كبير في خطّه بتحصيل ما تقرّر على جهته، وأعطوهم عسكرياً من الفرنسيين يستعينون بهم في التحصيل، وعمل كلّ كبير في جهة له ديواناً، واجتمع عنده كتبة مختصة به: قبطة، ومسلمون، وأعوان، وبعض من عسكر الفرنسيين، فطلبوا من الناس ضعف ما قرّره يعقوب ليكتسبوه لأنفسهم، وبثوا أعوانهم من القواسة، وعسكر الفرنسيين"⁽²⁾.

3- كان النصارى في مصر ثلاثة أقسام هي: القبط والروم، وأهل الشام. وهؤلاء - في أغلبهم - أظهروا فرحاً وسروراً بالاحتلال الفرنسي، وشاركوا الفرنسيين أعيادهم، وأعمالهم، وفجورهم، فمنحهم الفرنسيون مناصب كثيرة في جيش الاحتلال، والوظائف المدنية، وقلّبوا ظهر المجنّ للمسلمين، فباعوا الخمر، وعملوا جواسيس، ووشاة، وسرقوا وهدموا، وقتلوا وعدّبو، واعتقلوا، وجأهروا بالمنكرات، وارتكاب الفواحش، وبنّسوا مقدّسات المسلمين، وبخاصة مشهد الإمام الحسين، والجامع الأزهر، وتطاولوا على المسلمين والإسلام، واستولوا على نظارة الأوقاف، فقطعوا رواتب فئات كثيرة من المسلمين، ومن ذلك:

أ. في نهاية سنة (1214 / 1799) بدأ الاحتلال الفرنسي بحملة إفساد، ونهب، وسلب، وتدمير في بلدات مصر، وقراها خارج القاهرة، وقد تولّى النصارى القبط مهمة إرشاد جنود الاحتلال إلى مَبْتَغاهم، وبخاصة أنهم تسلّموا المناصب المهمة، وتقاسموا أقاليم مصر، والتزموا جمع الأموال من المسلمين، وجعل كلّ واحد منهم من نفسه أميراً، قال الجبرتي: "وكلّ ذلك بإرشاد النصارى القبطة؛ لأنّهم هم الذين تقلّدوا المناصب الجليلة، وتقاسموا الأقاليم، والتزموا لهم بجمع الأموال، ونزل كلّ كبير منهم إلى إقليم، وأقام أبهة نفسه، وتمثّل في صورة أمير كبير، ومعه عدّة من العساكر الفرنسية، وصحبته: الكتبة، والصيارف، والأتباع، والأجناد من الغز البطالة، وغيرهم. والخيام، والخدم، والفرّاشون، والطباخون، والحجّاب. وثقّاد بين يديه البغال والخيول المسوّمة، والمقدّمون وبأيديهم الحراب المفصّضة والمذهّبة، والأسلحة الكاملة. ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوفين من القبط - أيضاً - بمنزلة الكشاف، ومعهم العسكر من

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص210.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص210.

الفرنسييس والطوائف، والجاويشيّة⁽¹⁾، والصيارف، والمقدّمون على الشّرح المارّ، فينزلون على البلاد والقرى، ويطلبون المال والكُلف الشاقة بالعسف، ويضربون لهم أجلاً بالساعات، فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حلّ بهم ما حلّ من: الحرق، والنّهب، والسّلب، والسبي، وخصوصاً إذا فرّ مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم، وإلّا قبضوا عليهم، وضربوهم بالمقارع والكسّارات على مفاصلهم وركبهم، وسحبوهم معهم في الحبال، وأذاقوهم العذاب والنكال، وخاف الباقون فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل⁽²⁾ والرشوات. وانضم إليهم الأسافل من القبط والأراذل من المنافقين، وتقرّبوا إليهم بما يستميلون به قلوبهم، وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم، وأجهدوا أنفسهم في التّشفي من بعضهم، وما يُوجبه الحقد، والتّحاسد الكامن في قلوبهم⁽³⁾.

ب. إشهار بيع الخمر، قال الجبرتيّ: "وفتح نصارى الأروام عدّة دكاكين لبيع المسكرات، وعدّة خمامير [حانات، أماكن بيع الخمر]، وقهاوي، وطاقت جماعة من النّصارى تبّيع العرق كسُقاة الماء، وصاروا يُنادون فيه بالأسواق بلغتهم، وفحش ذلك جدّاً"⁽⁴⁾.

ج. في يوم السبت (الحادي عشر من ربيع الثاني سنة 1213 الموافق لشهر أيلول 1798) أقام الفرنسيون احتفالاً كبيراً دعوا إليه المشايخ وأعيان المسلمين، ونصارى القبط، والشّوام، وكان الاحتفال في بيت نابليون بونابرت، فتطاول النّصارى على المسلمين، قال الجبرتيّ: "ولبس النّصارى من القبط والشّوام ملابس الافتخار، وتعمّموا بعمائم كشّمير، وركبوا بغال القاهرة، وأظهروا البُشرى، والسّرور في ذلك اليوم إلى الغاية"⁽⁵⁾.

د. شكوى بعض فئات المسلمين قطع رواتبهم؛ لأنّ النصارى استولوا على نظارة الأوقاف، قال: "فإنّ جميع الأوقاف تعطل إيرادها، وانقطع راتبها،

(1) الجاويش: الضابط. انظر: حسين المصري، معجم الدولة، ص44.

(2) البرطيل: الرشوة. انظر: إبراهيم مصطفى، معجم الوسيط، 118/1.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص218-219.

(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص78.

(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص101.

واستولى على نظارة الأوقاف النصارى القبط والشوام، وجعلوا ذلك مغنماً لهم⁽¹⁾.

هـ. في شهر (شعبان سنة 1214 الموافق لشهر كانون الأول 1800) تطاول على المسلمين والإسلام حتى أراذل النصارى وأسافلهم، قال الجبرتي: "ومنها ترفع أسافل النصارى من: القبط، والشوام، والأورام، واليهود، وركوبهم الخيول، وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين، ومشيههم بالخيول، وتلفظهم بفاحش القول، واستذلالهم للمسلمين، وعدم اعتبارهم للذين إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحساب، ولا يُسَطر في كتاب، كل ذلك جزاء ما كسبت أيديهم، وما (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ)⁽²⁾، والحال الحال، والمركز في الطبع مازال، والبعض استهوته الشياطين ومَرَقَ - والعياذ بالله - من خلل الذين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم⁽³⁾.

و. عندما بدأ نابليون يستعد للخروج من مصر إلى بلاد الشام لاحتلالها، أرسل بعض النصارى - يوم الثلاثاء (السابع من شهر رمضان سنة 1213 الموافق 1799/2/11) - للنجس على المسلمين، قال الجبرتي: "انتدب للتميمة ثلاثة من النصارى، وعرفوهم أن المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيين في يوم الخميس تاسعه، فأرسل قائمقام خلف المهدي، والأغا، فأحضروهم، وذكر لهم ذلك، فقالوا لهم: هذا كذب، لا أصل له، وإنما هذه تميمة من النصارى كراهة منهم في المسلمين، فحصى عمن اختلق ذلك، فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشوام⁽⁴⁾.

ز. في الخامس والعشرين من شهر رمضان أذاع الاحتلال الفرنسي أن جيشه احتل قلعة العريش، فحزن المسلمون، وفرح النصارى وأقاموا الولائم والمراقص، قال: "فحزن المسلمون لذلك، وانقبضت نفوسهم، وصاروا بين مُصدّق ومُكذّب، وتزايد الوسواس، وأظهر النصارى الفرح والسُرور في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولائم، وغيروا الملابس والعمام، وتجمّعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة⁽⁵⁾.

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص112.

(2) فصلت، 46/41.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص144.

(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص147.

(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص148.

ح. عندما عمل يعقوب اللعين ديواناً خاصاً له، منع المسلمين في مصر كلها من ركوب البغال إلا خمسة سمح لهم، أما النصارى فكلهم لا حرج عليهم، فتناولت النصارى على المسلمين بالشتائم والسخرية، والضرب، والطعن في الإسلام، والهزاء بنبيّه محمد، صلى الله عليه وسلم، قال الجبرتي: "وتناولت النصارى البلدية على المسلمين: بالسب، والضرب، والاستهزاء، والسخرية. ونالوا منهم أغراضهم، وطعنوا في دين الإسلام، وصرّحوا بانقضائه، وإذا ضربوا مسلماً وتآلم واستغاث، يقولون له: وأين محمدكم الذي تزعمون أنه يشفع لكم؟، وأمثال هذا الكلام الذي يشعر القلب من سماعه"⁽¹⁾.

طلب يعقوب اللعين من كلّ زعيم حي، أو قرية، أو بلدة، أن يعمل ديواناً خاصاً لتحصيل الأموال المطلوبة من العامة، وزوّده بعسكر فرنسي لمساعدته، وقد استغل هؤلاء مناصبهم للإثراء الشخصي، قال الجبرتي: "فطلبوا من الناس ضعف ما قرّره يعقوب؛ ليكتسبوه لأنفسهم، وبثوا أعوانهم من القواسمة وعسكر الفرنسيين في طلب الناس، وحبسهم، وضربهم، وعقابهم. والمرجع في ذلك كله إلى الديوان الكبير، وهو ديوان يعقوب، فذهي الناس بهذه الذاهية التي لم يُصابوا بمثلهما، ولا ما يُقاربها. ومضى عيد النحر، ولم يشعر به أحد، ونزل بهم من البلاء والذلّ ما لا يُوصف، فإن الواحد من الناس غنياً كان أو فقيراً لا بدّ وأن يكون من ذوي الصنائع، أو الحرف، فيلزّمه شقص⁽²⁾ ماء، وُرّع عليه في حرفته، أو حرفتيه، وأجرة داره - أيضاً، وحنوته سنة مُعجّلة، فكان يأتي على الشخص الواحد غرامتان أو ثلاث أو أكثر؛ إذ يُجرّ الإنسان في بضائع مُتعدّدة"⁽³⁾.

وعن الفرقة العسكرية التي شكّلها يعقوب اللعين، والقلعة التي بناها على أنقاض أملاك المسلمين، قال الجبرتي: "ومنها أنّ يعقوب القبطي اللعين لمّا تظاهر مع الفرنساوية، وقلّده صاري عسكر القبطية، جمع شبّان القبط، وحلق لحاهم، وزيّاهم بزّيّ مشابه لعسكر الفرنساوية، مُميّزاً عنهم بقبعات يلبسونها على رؤوسهم، مشابهة لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة، مع ما يُضاف إليها من فبح صورهم، وسواد أجسامهم، وزفارة أبدانهم، وجعلهم عسكره، وعزّوته، وجمعهم من أقصى الصعيد.

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص213.

(2) الشقص: السهم، أو النصيب. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص212، حاشية(1).

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص212.

وهدم الأماكن المجاورة لحارة النَّصارى، التي هو ساكن بها، خلف الجامع الأحمر، وبنى له قلعة، وسوّرها بسور عظيم، وأبراج، وباب كبير يحيط به بدنات عظام.

وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزيكية، وفي جميع السور المحيط، والأبراج طيقان للمدافع، وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر، الذي رمّه الفرنسيّ، ورُتب على باب القلعة الخارج والداخل عدّة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيّة⁽¹⁾.

لكن بعد كلّ هذا الإفساد، كانت نهاية يعقوب اللعين، ومَن شابهه الفرار في ظلّ أسياده، فما أن هُزمت فرنسا، وخرجت من مصر باتفاق مع الدّولة العثمانية الإسلاميّة، حتى سارع هو وكثير من أعوانه الذين أفسدوا في أرض مصر، إلى حمل ما خفّ وزنه، وغلا ثمنه، ورحل إلى بلاد أسياده، لكنّه مات على السفينة قبل أن يصل فرنسا، وذلك بعد أن استحكم في قلّته خوفاً من عقاب الشعب إلى أن وقع القائد الفرنسي "بليار" اتفاق الصلح مع الدولة العثمانية الإسلاميّة، ونصّ الاتفاق على رحيله هو، ومَن يرغب من العملاء⁽²⁾.

ط. في شهر (صفر سنة 1215 الموافق لشهر تموز 1800) فرض الاحتلال الفرنسي غرامة (ضريبة) على أهل مصر مقدارها أربعة ملايين بالعملة المتداولة في مصر (كان المليون منها يساوي 186 ألف فرانسة)، ولمّا اشتدّت حاجتهم للأموال، عينوا في شهر ربيع الثاني شكر الله القبطي لجمع المال من المسلمين، وزوّدوه بالجنود الفرنسيين، فأذاق المسلمين ألواناً من العذاب لم يعرفوها من قبل، ثمّ هدم ونهب ما شاء. قال الجبرتي: "فيه [ربيع الثاني/ آب] اشتدّ أمر المطالبة بالمال، وعُيّن لذلك رجل نصرانيّ قبطي يُسمى شكر الله، فظهر منه للنّاس ما لا يُوصف، فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال، وصحبته العساكر من الفرنسيين، وبأيديهم آلات الهدم، فيأمرهم بهدم الدّار، إن لم يدفعوا له المقرّر وقت تاريخه من غير تأخير، وخصوصاً

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص251.

(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص193؛ أحمد الصاوي، المعلم يعقوب، ص46-47.

ما فعله ببولاقي⁽¹⁾، فإنه كان يحبس الرجال مع النساء، ويُدخّن عليهم بالقطن والمشاق، ويُنوّع عليهم العذاب، ثمّ رجع إلى مصر يفعل ذلك⁽²⁾.

ي. في شهر (ذي الحجة سنة 1215 الموافق لشهر نيسان 1801)، عيّن نقولا النصرانيّ مسؤولاً عن مراكب الحطب، وصنّاعها، فجعل من نفسه أميراً، وأفسد في مصر، قال: "بنى له داراً عظيمة بالجيزة ومصر، وله عزوة من نصارى الأروام المرتبين عسكرياً، وكان نقولا المذكور يركب الخيل، ويلبس الملابس الفاخرة، ويمشي في شوارع مصر راكباً، وأمامه، وخلفه قواسة يُوسّعون له الطريق على هيئة ركوب الأمراء، كلّ ذلك خطرات من وسأوسه لا يُدرى لأيّ شيء هذا الاهتمام، ولأيّ حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطائه لنصارى الأروام"⁽³⁾.

ك. في شهر (محرم سنة 1216 الموافق لشهر أيار 1801)، وقبيل الهزيمة النهائية لحملة نابليون عيّن يعقوب اللعين رجلاً قبلياً يدعى عبد الله لمساعدته في إذلال المسلمين، قال الجبرتي: "وفي محرّم، عشرينه، توّكل رجل قبلي يقال له عبد الله من طرف يعقوب، يجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس، فتعدّى حتى على بعض الأعيان، وأنزلهم من على دوابهم، وعسف، وضرب بعضهم على وجهه حتى أسال دمه"⁽⁴⁾.

ج. إذلال المسلمين، وهدم مقدّساتهم، وتدنيسها

عامل المحتلون الفرنسيون المسلمين في مصر معاملة قاسية، وبشعة؛ فقتلوا، واعتقلوا، وسلبوا أموالهم وممتلكاتهم، وأذاقوهم ألوان الذلّ والعذاب، ودنّسوا كثيراً من مقدّساتهم، وهدموا عدداً من مساجدهم، وحولوا بعضها إلى خمارات، ومنعوا الحج سنتين، ولم يُرسلوا الكسوة للكعبة المشرفة، والصّرة النقدية السنوية لأهل مكة المكرمة، وعلمائها وقت الحج. ومن الأمثلة على سوء المعاملة:

(1) بولاقي: أو أبو العلا، أو بلاقي، وهو اسمها القديم، أحد أحياء القاهرة القديمة، على ضفة النيل الشرقية، ومعناها: الميناء. وكانت أعظم حصون القاهرة، وهي جزيرة تقرب من الجندال، وتنتهي إليها سفن النوبة وأسوان، وهي مقابل جزيرة الزمالك. انظر: المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 558/1.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 229.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 257.

(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 262.

1- إهانة كبار المشايخ في ديوان " كليبر "، فبعد فرض الضرائب والوليمة، جعلوا القبطي "فرط الرّمان" يتحكّم بالمشايخ، حيث أوحى للعسكر في مقرّ "كليبر" باحتجازهم، وأبقى منهم خمسة عشر شخصًا رهائن، ولطول مدّة احتجازهم بالوا على أنفسهم، قال الجبرتي: "ولم يزالوا في هذه الحيرة، والتدخل على القبطة إلى قبيل العصر، حتى بال أكثرهم على ثيابه، وبعضهم شرشر [بال] من الشبابيك المطلّة على البركة"(1).

وفي أواخر حكم الاحتلال ذاق العامة والخاصة الذلّ ألوانًا، قال: "ونزل بالرّعية الذلّ والهوان، وتناولت عليهم الفرنسيّ بالإهانة حتى صاروا يأمرّونهم بالقيام إليهم عند مرورهم، ثمّ شدّدوا في ذلك ... وقبضوا عليه، وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة، وضربوه تأديبًا وزجرًا"(2).

2- اقتحام جيش الاحتلال الفرنسيّ بخیلهم المسجد الأزهر الشريف، والمرابطة فيه، وهدم كثير من المساجد، وتحويل بعضها إلى خمّارات. قال: " فترجّوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر... وأبقوا منهم نحو السبعين، ثم أسكنوهم بالخطّة كالضابطين ليكونوا للأمور مُراصدين، وبالأحكام منقّذين"(3).

كما سمحوا لبعض العوام بتدنيس المساجد وتحويل بعضها إلى مكان للقاذورات، قال: "وتحلّقهم بالمسجد للحديث، والهديان وكثرة اللّغط، والحكايات والأضاحيك، والتلّفت إلى حسان الغلمان ... ورمي قشور اللّب، والمكسرات، والمأكولات في المسجد ... فيصير الجامع بما اجتمع فيه من هذه القاذورات ملتحقًا بالأوراق الممتّهنة"(4).

وقال: "وأخربوا أيضًا-جامع أزبك العظيم، وجعلوه سوقًا لبيع أقلام المكوس، وأخربوا أيضًا-جامع الرويعي، وجعلوه خمّارة، وجامع عثمان كنّخذ القزدغلي، وجامع خير بك حديد، وجامع البنهاوي، والطرطوشي، والعدوي، وجامع عبد الرحمن كنّخذ المقابل لباب الفتوح هدموه حتى لم يبق له أثر ألبتة"(5).

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص209.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص228.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص120.

(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص138.

(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص248. وانظر: ص128 حيث هدموا جامع أبي هريرة بالجيزة، وص129 حيث حولوا جامع الظاهر بيبرس إلى قلعة، وهدموا منارته، ثم حولوه إلى تكتة عسكرية.

أما الحجّ وكسوة الكعبة الشريفة، وصُرة الحجاز، فقد تعطلت لسنتين هما (1800/1214 و 1801/1215)، قال: "من أعظمها [أي المصائب] امتناع سفر الحج من مصر، ولم يُرسلوا الكسوة، ولا الصُرة، وذلك من أشنع الحوادث التي لم يتفق نظيرها في دولة آل عثمان أبداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم"⁽¹⁾.

3- عندما احتل جيش الاحتلال الفرنسيّ قلعة القاهرة، قام بطرد سكانها، وهدم كثيراً من أبنيتها، وحولها إلى مكان سكن لقادته، وثكنة عسكرية. وكان ممّا هدموه معالم السلاطين المسلمين الذين حكموا مصر، ومنها قصر صلاح الدّين الأيوبي، وما به من: المساجد، والزوايا، والمشاهد. ومسجد السلطان محمد بن قلاوون، كما نهبوا ما فيها من أدوات حرب، وأثاث وكتب. قال: "وفيه [شهر ربيع الثاني سنة 1213 الموافق لشهر أيلول 1798] أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم إلى المدينة ليسكنوا بها، فنزلوا، وأطلعوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدّة مواضع، وهدموا أبنية كثيرة، وشرعوا في بناء: حيطان، وكرانك، وأسوار. وهدموا أبنية عالية، وغيروا معالمها، وأبدلوا محاسنها، ومحو ما كان بها من معالم السلاطين، وأثار الحكماء، والعظماء، وسلبوا ما كان بأبوابها العظام، وإيواناتها الفخام من الأسلحة، والدّرق، والبُلُط⁽²⁾ والخوذات، والحراب الهندية، وهدموا قصر يوسف صلاح الدّين، ومحاسن الملوك السلاطين ذوات الأركان الشاهقة، والأعمدة الباسقة. وكذلك ما بها من: المساجد، والزوايا، والمشاهد، وشوّهوا المسجد العظيم، والجامع المشيد الفخيم، الذي أنشأه صاحب المفاخر محمد بن قلاوون، الملك الناصر؛ فقطعوا منبره، وشعثوا إيوانه، وأخذوا أخشابه، وزعزعوا أركانه، وأزالوا المقصورة الجديدة البديعة الإتقان، التي كان يُصلي بداخلها السلطان"⁽³⁾.

4- في نهاية سنة (1801/1215) واصل الاحتلال الفرنسيّ تغيير معالم أحياء القاهرة من خلال الهدم، ونشر الخراب في كلّ مكان، وذكر الجبرتي أنّ الاحتلال هدم أحياء: الحسينية، والخروبي، وبركة الفيل بكل ما فيها من: خانات، ورباع، ودور، وحمّامات، ونهبوا ما تحتويه من: مواد بناء،

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص162.

(2) الدّرق: جمع درقة، وهي: الثّرس يصنع من جلود ليس فيه خشب. البلط: جمع بلطة: لفظة تركية وتعني نوعاً من الفؤوس. انظر: الخفاجي، شفاء الغليل، ص153؛ المنجد في اللغة، ص48.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص104-105.

ومعادن، وورخام، وأخشاب. وعن هدم المقدسات الإسلامية. قال: "وما في ضمن ذلك... والمساجد، والمزارات، والزوايا، والتكايا"⁽¹⁾.

د. قتل ثمن مواطني مصر

قُدِّر عدد الشهداء الذين قتلوا على يد جيش الاحتلال الفرنسي، وعملائه في مصر - في مدة الاحتلال التي بلغت ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع فقط، من (يوم السبت السابع من صفر سنة 1213 الموافق 1798/7/20 إلى يوم الجمعة الحادي والعشرين من صفر سنة 1216 الموافق 1801/7/2) - بأكثر من ثلاثمائة ألف مواطن مصري من أصل مليونين وأربعمائة وستين ألف مواطن هم عدد سكان مصر.

وقد كان الفرنسيون يقتلون أهل مصر المسلمين من دون سبب، كما فوّضوا عملاءهم من نصارى مصر بأن يفعلوا ما يشاؤون بالشعب المصري، وكانوا يُهاجمون بعض القرى، وأحياء المدن، والبلدات؛ فيدمرونها، ويقتلون أكثر سكانها، ومن ذلك:

1- مهاجمة بلدة بني عدي في الصعيد، وتدميرها والإسراف في قتل أهلها ونهب ممتلكاتهم: "وضربوا عليهم بالمدافع، فأتلّفوهم، وأحرقوا جُرونها، ثم كبسوا عليهم، وأسرفوا في قتلهم ونهبهم، وأخذوا أشياء كثيرة، وأموالاً عظيمة وودائع"⁽²⁾.

وحسب مذكرات رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية، فقد تحوّلت بني عدي إلى أكوام من الخرائب، وتكدّس القتلى في شوارعها، حتى أنّه لم ير مجزرة أشدّ وحشية ممّا حدث في بني عديّ، وقُدِّر عدد الشهداء ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف مواطن⁽³⁾.

2- هاجم نحو ألف جندي من جيش الاحتلال الفرنسي مدينة دمنهور، وفعلوا بها كما فعلوا ببني عدي من القتل والنهب. وقيل: إنهم قتلوا منها ما بين (1200 إلى 1500) مواطن مصري⁽⁴⁾. وقال أحد قادة جيش الاحتلال الفرنسي عمّا فعلوه بدمنهور: "فأحرقوا مساكنهم بالنار، وقتلوا كلّ مَنْ وجده من:

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 247-248.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 158. والجرن هو: موضع تخزين القمح، أو التمر، أو العنب، وقيل: البيدر. انظر: اللسان: مادة جرن.

(3) انظر: محمد كشك، ودخات الخيل الأزهر، ص 196.

(4) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 158؛ محمد كشك، ودخات الخيل الأزهر، ص 199، 202.

الشيوخ، والنساء، والأطفال بحدّ السيف، وفي اليوم التالي كانت دمنهور رُكامًا من الأحجار السوداء، اختلطت بها أشلاء الجثث، ودماء القتلى⁽¹⁾.

3- كان جنود جيش الاحتلال الفرنسيّ يقطعون الأشجار المثمرة من البساتين، وأشجار النخيل في كلّ بقاع مصر؛ لسدّ حاجاتهم من الوقود، وبناء الأسوار، والعربات وغيرها. كما كانوا يُحطّمون السفن والمراكب الخاصة بأهل مصر، ولا يسمحون للمسلمين بناء غيرها، وقاموا بهدم القباب، والقبور في مقبرة القرّافة، وغيرها. قال: "ومنها قطعهم الأشجار، والنخيل من جميع البساتين والجنائن الكائنة بمصر، وبولاق، ومصر القديمة، والروضة، بل وجميع القطر المصري كالشرقية، والغربية، والمنوفية، وبساتين رشيد ودمياط، كلّ ذلك لعمل القلاع، وتحصين الأسوار في جميع الجهات، وعمل العجل، والعربات، والمتاريس، ووقود النار.

ومنها تكسير المراكب، والسفن، وأخذ أخشابها- أيضًا- مع شدة الاحتياج إليها، وعدم إنشاء سفن جديدة لافتقار الناس، ورؤساء المراكب، وعدم الخشب، والقار والحديد، وبقية الآلات، وعدم الأمن عليها لو فرض، حتى أنهم حال حلولهم الدّيار المصرية، وسكنهم بالأزبكية كسروا جميع القنج والأغربة⁽²⁾، التي كانت مركوزة تحت بيوت الأعيان بقصد التنزّه، وكذلك ما كان ببركة الفيل؛ وقس على ذلك حتى أن القطر المصري -الآن- في شدة الاحتياج لذلك، وشحّت البضائع، وغلّت الأسعار، وتعطلت الأسباب، وضاعت المعاش، وتضاعفت أجر حمل التّجارات في السفن لقلّتها، وبطلت المتاجر.

ومنها هدم القباب، والمدافن الكائنة بالقرّافة تحت القلعة خوفًا من تتّرسّ المحاربين بها؛ فكانوا يهدمون ذاك بالبارود على طريقة التّغم؛ فسقط المكان بجميع أجزائه من شدة البارود وانحباسه في الأرض، فهدموا شيئًا كثيرًا على هذه الصورة؛ وكذلك أزالوا جانبًا كبيرًا من الجبل المقطّم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفًا من تمكّن الخصم منها، والرمي على القلعة⁽³⁾.

ه. نهب ثروات مصر، وإفقار أهلها

(1) محمد كشك، ودخات الخيل الأزهر، ص201.
(2) القنجة: وجمعها القُنَج. وهي نوع من السفن. الأغربة: جمع غراب، وهي سفينة حربية قديمة ذات أشرعة، ومجاديف. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص252، حاشية (1).
(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص251-252.

كان الاقتصاد عاملاً من أهم العوامل التي دفعت نابليون إلى السعي لاحتلال مصر والمشرق الإسلامي. وقد تركت حملة نابليون آثاراً سلبية جداً على اقتصاد مصر، وعلى المواطنين المصريين أفراداً، حتى أن الجيش الفرنسي كان ينهب ثياب بعض المواطنين، فيتركهم عرايا، كما سيطر الفرنسيون على أحياء كاملة، وهجروا أهلها منها، وفرضوا ضرائب باهظة على فئات المجتمع كلها، وحتى على القضاة، وأئمة المساجد، والعميان وغيرهم. وصادروا من النساء متخراطين كلاً، واستولوا على نظارة الأوقاف. ولم يكتفوا بذلك، بل أطلقوا أيدي عملائهم في تحصيل ما كانوا يفرضونه من فدرات (ضرائب)، فيقوم هؤلاء بمضاعفة الضرائب؛ ليأخذ كل منهم ما يريد. ويظهر تخريب اقتصاد مصر، من خلال الآتي:

1- مصادرة بيوت أمراء مصر وأثريائها، واستيطانها من قبل نابليون وقادة حملته. قال الجبرتي: "وسكن بونابرت بيت محمد بيك الألفي بالأزبكية، وكان عمره محمد بيك ... وزخرفه، وصرف عليه أموالاً عظيمة، وفرشه بالفرش الفاخر ... فكأنه بناه للفرنسيين. وكذلك حصل في بيت حسن كاشف جركس بالناصرية"⁽¹⁾. وهدموا بيوت كثير من المواطنين لتوسيع الأماكن التي صادروها، كما هدموا بعض المقابر، وكثير من الآثار، فضلاً عن أنهم في مهاجمتهم للأحياء، والقرى، والبلدات كانوا يتركونها خراب لا فائدة منها.

2- إفقار الشعب المصري المسلم بالضرائب، والغرامات، والنهب وفق مصالح قادة الحملة، وأعاونهم من القبط، فقد فرضوا عليهم أول احتلالهم القاهرة سلفة مقدارها نصف مليون ريال، وطلبوا من نساء الأمراء غرامات خاصة، ثم صادروا الدواب، ونهبوا ما وجدوه في المحال التجارية، وفرضوا ضرائب على أصحاب الحرف والتجار مبالغ لم يستطيعوا دفعها. قال الجبرتي: "وفي يوم السبت اجتمعوا بالديوان، وطلبوا دراهم سلفة، وهي مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط، والشوام، وتجار الإفرنج -أيضاً- فسألوا التخفيف، فلم يجابوا، فأخذوا في تحصيلها... ونادوا-أيضاً- على نساء الأمراء بالأمان، أنهم يسكن بيوتهم، وإذا كان عندهم أشياء من متاع أزواجهن يُظهره، فإن لم يكن عندهم شيء من متاع أزواجهن يُصالحن على أنفسهن، ويأمن في دورهن، فظهرت الست نفيسة زوجة مراد بيك، وصالحت على نفسها وأتباعها من نساء الأمراء، والكشاف بمائة وعشرين ألف ريال فرانسة، وأخذت في تحصيل ذلك من

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 81-82.

نفسها وغيرها، ووجهوا عليها الطلب، وكذلك بقية النساء بالوسائط، فجمعوا شيئاً كثيراً.

وفي يوم الأحد طلبوا: الخيول، والجمال، والسلاح، فجمعوا شيئاً كثيراً حتى الأبقار والثيران، وحصل في ذلك مثل ما حصل في المصالحات، وجمعوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأشاعوا التفتيش بسبب ذلك، وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره، وأخذوا ما وجدوا فيها من السلاح من غير ثمن.

هذا وفي كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من: الأمتعة، والفرش، والصناديق، والسروج، وغير ذلك من البيوت ما لا يُحصى، ويستخرجون الخبايا، ويأخذون البئائين، والمهندسين، والخدم الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على محلات الدفائن...؛ ولوقوع هذه الأمور داخل الناس من الفرنسيين خوف شديد⁽¹⁾.

ثم فرضوا فردة (ضريبة) بمبلغ عشرة ملايين ريال فرنسي، وفوضوا القبطي يعقوب حنا اللعين تحصيلها، وذلك قبل أن ينتهوا من تحصيل الضريبة الأولى، ولما اشتدت حاجتهم للمال عتِنوا قبطياً يُدعى شكر الله لجمع الأموال، فأفسد في البلاد، ثم في كل شهر يفرضون أنواعاً مختلفة من الضرائب، حتى فرضوا ضرائب على مشايخ مدن مصر، وبلداتها، وقراها بمبالغ ضخمة، ولما ضج المشايخ؛ لفقر بعضهم. اتفقوا على أخذها من الناس بدلاً من المشايخ مع زيادة قيمتها. ولما أحصى الفرنسيون أسماء البلاد المصريّة اعتمدوا على القبط، الذين اخترعوا أسماء من عندهم زيادة في التشفي بالمسلمين. واستولوا على الأوقاف ما أدى إلى إفقار فئات كثيرة من المسلمين الذين كانوا يحصلون على رواتبهم منها، وساعدهم في كل ذلك النصارى.

ومن يُطالع ما كتبه عبد الرحمن الجبرتي يجد أنّ نابليون كان يهدف إلى إفقار مصر، ونهب ثرواتها ليس أكثر. ودليل ذلك ما فعله الاحتلال الفرنسي في بولاق، فبعد أن أفسد فيها، قام بفرض منع التجوال على أهلها واستباحها ثلاثة أيام، قال الجبرتي: "ثم بعد أن ملكوا البلد أحاطوا بها، ومنعوا من يخرج عنها، واستولوا على الخانات والوكائل. وما بها من الحواصل والطباق، وأخذوا جميع ما فيها من الودائع التي للناس والمتاجر، وأخذوا ما في البيوت والحوانيت، وأخذوا بعض نساء مأسورات، واستولوا على جميع ما في البلد من: غلال، وسكر، وكثان، وقطن، وأبازير، وأرز، وأدهان، وأصناف عطرية، وما لا تُسعُه السطور، وما لا يُحيط به كتاب ولا منشور، والذي وجدوه منكفئاً في داره، ولم يُقاتل، ولم يجدوا عنده سلاحاً

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 87-89.

نهبوا متاعه، وعزّوه من ثيابه، ومضوا وتركوه حيًّا، وأصبح مَنْ بقي من ضعفاء أهل بولاق، وأعيانهم الذين لم يُقاتلوا فقراء لم يملكوا ما يستر عورتهم⁽¹⁾.

وعن فرض الضريبة الثانية في (شهر صفر سنة 1215 الموافق لشهر تموز 1800)، والتي كانت بمبلغ أربعة ملايين ريال فرنسي، وما حصل للمسلمين من إذلال ونهب، يقول الجبرتي واصفًا ما فعلوه في (شهري ربيع الثاني وجمادى الأولى الموافق لشهري آب وأيلول): "فيه اشتدَّ أمر المطالبة بالمال، وعُيِّن لذلك رجل نصرانيّ قبطي يُسمَّى شكر الله، فظهر منه للناس ما لا يُوصف، فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال، وصحبته العساكر من الفرنسيين، وبأيديهم آلات الهدم، فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المُقرَّر وقت تاريخه من غير تأخير، وخصوصًا ما فعله ببولاق، فإنّه كان يحبس الرجال مع النساء، ويُدخِّن عليهم بالقطن والمشاق، ويُنَوِّع عليهم العذاب ثم رجع إلى مصر يفعل ذلك.

وفيه أغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة في يوم واحد، وختموا على جميعها، ثم كانوا يفتحونها، وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة، والعطري، والدخان، واللبن وغير ذلك، خائفاً بعد خان، فإذا فتحوا حاصلًا من الحواصل قَدَّموا [أي قَدَّرُوا ثمنه] ما فيه بما أحبوا بأخس الأثمان، وحسبوا غرامته، فإن بقي لهم شيء أخذوه من حاصل آخر جاره، وإن زاد له شيء أحالوه على جاره كذلك، وهكذا حتى أخلوا جميع الوكائل والخانات من سائر البضائع على الرجال، والجمال، والحمير، والبغال. وأصحابها تنتظر وقلوبهم تتقطع حسرةً على نهب أموالهم، وإذا فتحوا حاصلًا ومخزناً دخله أمناؤهم، ووكلاؤهم، فيأخذون ما يجدونه من الودائع الخفيفة، وصُرر الدراهم، والدنانير ويخفونها، وصاحب المحل لا يقدر على الدنو منه، ولا يتكلَّم بل ربما هرب أو كان غائبًا.

وفيه حرّروا دفاتر العصور، وأحصوا جميع الأشياء الجلييلة والحقيرة، ورثبوها بدفاتر، وجعلوها أقلامًا مفردة يتقلدها مَنْ يقوم بدفع مالها المحرّر، وجعلوا جامع أزبك الذي بالأزبكية سوقًا لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها، وأقاموا على ذلك أيامًا كثيرة يجتمعون لذلك في كلّ يوم، ويشترك الاثنان، فأكثر في القلم الواحد، وفي أقلام متعدّدة.

وفيه كثر الهدم في الدور وخصوصًا في دور الأمراء ومَنْ فرّ من الناس. واستهل شهر جمادى الأولى سنة 1215 [الموافق لشهر أيلول 1800]، والأمور من أنواع ما ذكر تتضاعف، والظلمات تتكاثف، وشرعوا في هدم أخطاط [أحياء] الحسينية، وخارج باب الفتوح، وباب النّصر من: الحارات، والدور، والبيوت،

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص202.

والمساكن، والمساجد، والحمّامات، والحوانيت، والأضرحة، فكانوا إذا دهموا داراً، وركبوها للهدم، لا يمكنون أهلها من نقل متاعهم، ولا أخذ شيء من أنقاض دارهم، فينهبونها، ويهدمونها، وينقلون الأنقاض النافعة من الأخشاب والبلاط إلى حيث عماراتهم، وأبنيتهم، وما يقع يبيعون منه ما أحبوا بأبخس الأثمان، ولو قود النيران، وما بقي من كسارات الخشب يجعله القفلة جزءاً، ويبيعونه على الناس بأعلى الأثمان لعدم [وجود] حطب القود.

فانهدم للناس من الأملاك والعقار ما لا يُقدّر قدره، وذلك مع مطالبته بما تقرّر على أملاكهم، ودورهم من الفردة [أي الغرامة أو الضريبة] فيجتمع على الشخص الثّهب، والهدم، والمطالبة في آن واحد، وبعد أن يدفع ما على داره، وما صدّق أنه غلّق [أي أنهى] ما عليه، دهموه بالهدم، فيستغيث فلا يُغاث، فترى الناس حيارى وسكارى.

ثم بعد ذلك كله يُطالب بالمنكسر من الفردة، وذلك أنّهم لمّا قسموا الأخطا كما تقدّم، وتولّى ذلك أمير الخطّة، وشيخ الحارة، والكتبة، والأعوان، وزّعوا ذلك برأيهم، ومقتضى أغراضهم، فأول ما يجتمعون بديوانهم يشرع الكتبة في كتابة التنبيه، وهي أوراق صغار باسم الشخص، والقدر المقرّر عليه، وعلى عقاره بحسب اجتهدهم ورأيهم، وفي هامشها حقّ طريق المعين، ويُعطون لكلّ واحد من أولئك القواسة عدّة من تلك الأوراق، فقبل أن يفتح الإنسان عينيه لا يشعر إلّا والمعين واقف على بابه، وبيده ذلك التنبيه، فيوعده حتى يسعى على حاله، فلا يجد بداً من دفع حقّ الطريق، فما هو إلّا أن يفارقه حتى يأتيه آخر بتنبيه مثله، فيفعل معه مثل الأول، وهكذا على عدد الساعات، فإن لم يجد المعين المطلوب وقف ذلك القواسة على داره، ورفع سوطه، وتطاول على حريمه أو خادمه بالسبّ والشتم... وما يظنّ أنّه خلّص إلّا والطلب لاحقه – أيضاً – بمعين وتنبيه، فيقول: ما هذا؟! فيقال له: إنّ الفردة لم تكمل، وبقي منها كذا وكذا... فكانت هذه الكسورات من أعظم الدّواهي⁽¹⁾.

و. إشاعة الفساد الأخلاقي، والفجور في مصر

كان من خطط نابليون، العمل على تغيير الشعب المصري المسلم في: دينه، ولغته، وعاداته، وأخلاقه؛ ليتمكن من جعل مصر جزءاً من فرنسا، وقد عمل هو، وقادة جيشه وبمساعدة كثير من نصارى مصر على تنفيذ هذه الخطّة منذ اللحظات الأولى للاحتلال؛ فأحضر معه البغايا، والراقصات، ومكثّن من المجتمع بفتح دور الدعارة، والمشاركة في الاحتفالات الماجنة، والتمثيل في المسرح الذي أنشأه، والتجوال في الشوارع بطرق ماجنة، وغير ذلك، كما أشاع بيع الخمر، وكلّ

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 229-232.

أنواع المسكرات، وحول بعض المساجد إلى أماكن بيع للخمر، وطاف بعض النصارى يبيعون الخمر في الشوارع العامة. ويمكن توضيح ذلك بالآتي:

1- فتح بيوت دعارة للعامة، قال الجبرتي: "أحدثوا بغيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل مَنْ يدخل إليها قدرًا مخصوصًا يدفعه، أو يكون مأذونًا، وبيده ورقة"⁽¹⁾. وقال: "وتجمّعوا بدار الخلاعة نساءً ورجالًا، وتراقصوا، وتسابقوا، وأوقدوا سرجًا وشموعًا وغير ذلك، وأظهر النصارى القبطية، والشوام، الفرح والسُرور"⁽²⁾.

2- إشاعة الفواحش بمساعدة النصارى في كل مناسبة بهدف تخريب أخلاق نساء مصر المسلمات، قال الجبرتي: "وخرج النصارى البلدية من: القبط، والشوام، والأورام، وتأهبوا للخلاعة، والقصف، والتفرّج، واللهو... وصحبتهم الآلات والمغاني، وخرجوا في تلك الليلة عن أطوارهم، ورفضوا الحشمة،... وصحبتهن نساؤهم، وقحابهم، وشرابهم، وخمورهم، وتجاهروا بكلّ قبح من الضحك، والسخرية، والكفریات، ومحاكاة المسلمين، وبعضهم تسلّح، وتزيّا بزيّ نساء مصر على سبيل الاستهزاء، وتشبّه بهم، وحاكى ألفاظهم... وقد وقع في تلك الليلة بالبحر [نهر النيل] وسواحله من الفواحش، والتجّاهر بالمعاصي ما لا يَكَيّف ولا يُوصف. وسلك بعض غوغاء العامة، وأسافل العالم، ورعاعهم مسالك مُتسفل الخلاعة، ورذالة الرقاعة [الحمق] بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم"⁽³⁾.

3- فتح الخمارات، وبيع الخمر في الطرق العامة. قال: "وفتح نصارى الأروام عدّة دكاكين لبيع المسكرات، وعدّة خمامير وقهاوي، وطافت جماعة من النصارى في الأسواق تبّيع العرق، كسُقاة الماء، وصاروا يُنادون فيه بالأسواق بلغتهم، وفحش ذلك جدًّا"⁽⁴⁾.

4- نشر الزنا بين الفرنسيين، واهتمام نابليون وقادته بكل ما يؤدي إلى ذلك، حتى فشا في بعض الفئات من نساء مصر، ولمّا انتشر الطاعون منعوا الزنا، وجعلوا عقوبته الموت، وشاع بين العامة اسم "المشهورات" للنساء

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص128.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص153.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص169.

(4) الجبرتي، مظهر التقديس، ص87، 248، وفيه أنهم حولوا جامع الرويعي إلى خمارة.

الزّانيات. ومن ذلك أنّ نابليون أقام احتفالاً في أول سنة (1799/1214) في داره بالأزبكية، ودعا إليه كلّ السفلة والزّناة والمفسدين: "تجمّع هناك أرباب الملاهي، والبطالات، ورعاع العالم من: الحرافيش، وأكلة الحشيش، ومُلاعبي القروء، والحواة، والنساء الرّاقصات، وأمثال ذلك"(1).

ولمّا انتشر الطاعون جعلوا عقوبة التعامل مع الزّانيات الموت للزّانية والزّاني، قال الجبرتي: "ومنعنا لمدة ثلاثين يوماً من تاريخ أعلاه [شهر ذي القعدة سنة 1213 الموافق لشهر نيسان 1799] لجميع الناس، إن كان فرنسائياً، أو مسلماً، ونصرانياً، أو يهودياً من أي ملة كان، كلّ مَنْ أدخل إلى مصر، أو بولاق، أو مصر القديمة من النساء المشهورات؛ إن كان في بيوت العساكر، أو كلّ مَنْ كان داخل المدينة، فيكون قصاصه بالموت، كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعكس إن دخلوا من أنفسهن -أيضاً- يقاصّوا بالموت"(2).

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص164.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص157.

5- إنشاء المسرح في الأزبكية، وإرسال فرقة مسرحية.

قال الجبرتي: "وفيه [شهر شعبان سنة 1215 الموافق لشهر كانون الأول 1800] كمل المكان الذي أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهوى، وذلك المكان الذي أنشأوه يُسمى في لغتهم بالكُمدي، وهو: عبارة عن محل يجتمعون به كلّ عشر ليالٍ ليلةً يتفرجون به على ملاعب يعملونها قدر أربع ساعات من الليل، وذلك بلغتهم، ولا يدخل أحد إليه إلّا بورقة معلومة وهينة مخصوصة"⁽¹⁾.

وكان "كلير" يطلب من نابليون باستمرار إرسال فرقة تمثيل من فرنسا إلى مصر، وقد كتب نابليون إليه جواباً، جاء فيها: "كُنْتُ قد طلبتَ مراراً جوقة تمثيلية، وسأهتمُّ اهتماماً خاصاً بإرسالها لك؛ لأنّها ضروريةٌ للجيش، وللبداء في تغيير تقاليد البلد"⁽²⁾.

ما سبق وغيره كثير من الأعمال الهادفة إلى إفساد أهل مصر، أدى إلى إشاعة الفجور إلى درجة جعلت الجبرتي يتحدث عنه كثيراً، ثم يُفرد له في "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين" عنواناً خاصاً هو "الفجور الحادث بقدم الفرنسيين". وذلك في (شهر ذي الحجة الحرام سنة 1215 الموافق لشهر نيسان 1801)، أي قبيل الجلاء، ما يدلّ على أنّ الاحتلال الفرنسيّ استطاع أن يبيذ الفساد الذي خطّط له في مصر، قال الجبرتي: "ومنها تبرّج النساء، وخروج غالبهن عن الحشمة، والحياء، وهو أنّه لمّا حضر الفرنسيين إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم، وهُنَّ حاسرات الوجوه، لابسات الفساتين، والمناديل الحرير الملونة، ويُسدلن على مناكبهن الطّرح الكشميريّ، والمُزَرَّكشات المصنوعة، ويركبن الخيول والحمير، ويسقنهن سوقاً عنيقاً مع الضّحك والقهقهة، ومُداعبة المكارية [مؤجري الحيوانات] معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش؛ فتداخلن مع الفرنسيين لخضوعهم للنساء، وبذل الأموال لهن.

وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام، وخشية عار، ومبالغة في إخفائه؛ فلمّا وقعت الفتنة الأخيرة بمصر، وحاربت الفرنسيين بولاق، وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسّنوه من النساء والبنات؛ وصيرنَ مأسورات عندهم، فزبنوهنّ بزي نساءهم، وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، حتى كثرت الفواحش من النساء؛ مع ما حلّ بالمسلمين من: الذلّ، والهوان، وسلب

(1) الجبرتي، مظهر المقدس، ص237.

(2) محمود شاكر، رسالة في الطريق، ص108.

الأموال، واجتماع خيرات الدنيا في حوز الفرنسييس، وشدة رغبتهم في النساء، وخضوعهم لهن، وموافقة مُرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمنه أو ضربنه بتاسومقها⁽¹⁾ على قفاه، ولو كانت هي في غاية القبح؛ فطرح الحشمة، والوقار، والمبالاة، والاعتبار، واستملن نظراءهن، واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصًا عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم، فيظهر حالة العقد الإسلام، وينطق الشهادتين؛ لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها.

وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات مُتزيّيات بزيّهم، ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية، والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها، أو معها بعض أترابها، وأضيفها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم، وبأيديهم العصي يفرجون لهنّ الناس، ويوسعون من أجل مُرورهن الطرقات مثل ما يمرّ الحاكم، ويأمرن وينهين في الأحكام.

ولمّا وفي النّيل، ودخل الماء في الخليج وجرت فيه السفن، وقع عند ذلك من تبرّج النساء، واختلاطن بالفرنسييس، ومصاحبتهن لهنّ في: المراكب، والرقص، والغناء، والشرب في النهار والليل؛ في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهنّ الملابس الفاخرة والحلي، والجواهر المرصعة، وصحبتهن آلات الطرب. وخدمته السفن يُكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصّوت في تحريك المقاذيف بسخائف موضوعاتهم، وكثائف مطبوعاتهم، وخصوصًا إذا دبّت الحشيشة في رؤوسهم، وتحكمت في عقولهم، فيصرخون، ويطبّلون ويرقصون، ويزمّرون، ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنسية في غنائهم، وتقليد كلامهم شيء كثير.

وأما الجوّاري السّود فإنّهنّ لمّا علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا؛ فرادى وأزواجا، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبات أسيادهن، وخبايا أموالهم، ومتاعهم وغير ذلك⁽²⁾.

ز. ادعاء تملك مصر، وفرنستها

كان من أهداف نابليون الرئيسة في احتلاله مصر هو تملك مصر، وجعلها بلادًا فرنسيّة، وقد أظهر ذلك في أكثر من مناسبة، ومن ذلك:

(1) تاسموقها: أي بمداسها، والعياذ بالله من هذا الذل بدعوى التقدم. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص249، حاشية (1).

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص248-250.

1- في شهر (ذي الحجة سنة 1215 الموافق لشهر نيسان 1801) عندما هُزم الجيش الفرنسي في ثغر رشيد، حاول أستوف الخازندار وجرجس الجوهري القبطي وغيرهما تضليل أعيان مصر، بأشياء كثيرة، وادّعى أستوف أن الفرنسيين لا يكذبون، ثم إن أستوف حذر أهل مصر، وطلب منهم جمع نصف الضريبة المفروضة عليهم، قال الجبرتي يذكر ما قاله أستوف الخازندار عن تمسك الفرنسيين بمصر: " ثم قال الخازندار: إن وقع من أهل مصر فشل، أو فساد عوقبوا أكثر من عام أول، واعلموا أنّ الفرنسية لا يتركون الديار المصرية، ولا يخرجون منها أبداً؛ لأنها صارت بلادهم، وداخله في حكمهم. وعلى الفرض والتقدير إذا غلبوا على مصر، فإنهم يخرجون منها إلى الصعيد، ثم يرجعون إليها ثانية. ولا يخطر في بالكم قلة عساكرهم، فإنهم على قلب رجل واحد، وإذا اجتمعوا كانوا كثيراً. وطال الكلام في مثل هذه التموهيات، والأكاذيب والخرافات ... ثم قال الخازندار: القصد منكم معاونة الفرنسية ومساعدتهم، وغلاظة نصف المليون"(1).

2- في شهر (محرم سنة 1216 الموافق لشهر أيار 1801)، وبعد أن اقترب جيش الدولة العثمانية الإسلامية من القاهرة بقيادة الصدر الأعظم، جمع أستوف الخازندار بعض المواطنين المصريين، ونصحهم بعدم الثورة على الفرنسيين، ثم أعاد تأكيد تملك فرنسا لمصر، فقال: "اعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنسيين، فلازم من اعتقادكم لذلك، وركوزه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله، تعالى، ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم، فإنهم لا يخرج من أيديهم شيء أبداً. وهؤلاء الإنكليز ناس خوارج حرامية، وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن، والعثماني [أي الجيش العثماني] مغتر بهم، فإن الفرنسية كانت من الأحباب الخاص للعثماني، فلم يزلوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور، وإن بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة، ولو كان بينهم وبين الفرنسية طريق سالك من البر لانمحي أثرهم، ونُسي ذكرهم من زمان مديد"(2).

ح. إنشاء مجمع علمي، واصطحاب بعثة علمية

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 246-247.

(2) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 264.

المجمع العلمي المصري، الذي ادّعى المستشرقون وتلاميذهم أنّ نابليون أنشأه في مصر، وكذلك البعثة العلميّة التي ادّعوا أنّه اصطحبها معه هما كذبة لا أساس لهما من الصّحة، وذلك يتّضح من خلال الآتي:

1- لم ينشئ نابليون في مصر أيّ مجمّع علميّ، بل اصطحب معه مجموعة من العلماء. والمجمع العلمي المصريّ هو مجمع وطني، أسّسه الخديوي سعيد سنة (1859/1275) لخدمة الثقافة والعلم في مصر، ونشرهما فيها، وفي باقي البلدان العربيّة؛ إذ كانت مصر منهّل طلبة العلم العرب، ولا تزال⁽¹⁾.

2- اصطحب نابليون معه بعثة علمية فرنسيّة مكونة من (122) عالمًا، كانت مهمّتهم دراسة جوانب الحياة المختلفة في مصر، حتى يستطيع السيطرة عليها، ثم إنّ هؤلاء العلماء انسحبوا مع بقايا الحملة سنة (1801 / 1216). وقد واصلوا دراسة أحوال مصر في فرنسا خدمة للاستعمار الفرنسيّ.

3- البعثة العلميّة التي رافقت حملة نابليون كانت جزءًا من الحملة، وسلاحًا من أسلحتها، فعلماءها هم الذين صمّموا القلاع، والثكنات العسكرية، وأقاموا مصانع القنابل، وآلات إطفاء الحرائق، وأشرفوا على تحصيل الضرائب، وإدارة شؤون الحملة التموينيّة. وبحثوا عن الآثار التاريخيّة، والكتب والمخطوطات، والوثائق المصريّة وسرقوها، وعن كنوز المسلمين ومجوهراتهم، ومذخراتهم الثمينة، وصادروها.

4- استوطنت البعثة العلميّة حارة الناصريّة في القاهرة، بعد أن طردت أهلها منها. وقد ذكر المؤرّخ عبد الرحمن الجبرتيّ بعض الأعمال التي كان المهندسون المرافقون للحملة يقومون بها من مثل: تقدير الضرائب على العقارات والمصانع، ومُرافقة كبار قادة جيش الاحتلال، فعندما قُتل "كليبر"، كان برفقته كبير المهندسين، وهو الذي استدعى جنود الحملة لملاحقة الشهيد سليمان الحلبي⁽²⁾.

5- أشرف عدد غير قليل من أعضاء البعثة العلميّة، الذين رافقوا حملة نابليون، على نهب التراث الثقافي في مصر، وبخاصة المكتبات سواء أكانت عامة أم خاصة، كما نهبوا الآثار المصريّة، فضلًا عن التراث الشعبي المصريّ من مثل: المزخرفات، والمنمنمات، والأثاث، والأسلحة التاريخيّة، والرُسومات، والثياب، وأدوات البناء، والزراعة وغيرها. وقد ذكر الجبرتيّ ذلك عرَضًا في تاريخه، وكتاب مظهر التقديس، فعمليات الهدم التي كان يُنفذها جنود

(1) انظر: محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص27.

(2) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص113، 130، 213، 220.

الحملة كان يُشرف عليها علماء من البعثة العلميّة، كلّ واحد منهم في مجاله الذي يهتم به⁽¹⁾. ومن أدلة ذلك الكثيرة: أنّ جريدة "المصري اليوم" نشرت يوم الجمعة (22 رجب 1434 الموافق 2013/5/13) خبراً بعنوان "شيخ الأزهر يطلب وقف مزاد على مخطوطة نادرة من القرآن سرقتها الحملة الفرنسيّة"⁽²⁾.

ط. تحالف نابليون مع المورانة واليهود

سار نابليون على خطى أسلافه من حكام فرنسا، الذين كانوا يسعون إلى التحالف مع الأقليات الدينيّة غير المسلمة في المجتمع الإسلاميّ، وتجنيدهم لخدمة فرنسا في حربها ضد الإسلام والمسلمين، فالملك لويس التاسع-الذي مُنح لقب قديس؛ لكثرة حروبه ضد المسلمين- عندما قابل جماعة من المورانة في بلاد الشام دعاهم إلى التحالف معه. وقال لهم: "نحن مقتنعون بأنّ هذه الأمة [جعل الطائفة المارونية أمة ليضخّمها ويُغريها بالتحالف] التي تُعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسيّة"⁽³⁾.

عندما حاصر نابليون مدينة عكا سنة (1799/1213)، دعا اليهود للتحالف معه، والمشاركة في إقامة الإمبراطوريّة الفرنسيّة في المشرق الإسلاميّ مُقابل منحهم فلسطين، وطناً لهم، وذلك قبل عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة "بازل" بسويسرا بأكثر من قرن من الزمن، فقد خاطب اليهود بقوله: "من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين ... أيّها الإسرائيليون، أيّها الشعب الفريد ... انهضوا بقوة، أيّها المشردون في التيه ... لا بدّ من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبوديّة، وذلك الخزي الذي شلّ إرادتكم لألفي سنة. إنّ فرنسا تُقدّم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل ... إنّ الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به ... قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة، التي استهانت طويلاً بمدينة داود، وأدلتها.

يا ورثة فلسطين الشرعيين: إنّ الأمة الفرنسيّة ... تدعوكم إلى إرثكم بضمّانها، وتأييدها ضد كلّ الدخلاء"⁽⁴⁾.

ي. حركة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسيّ.

(1) انظر: الجبرتي، مظهر القديس، ص104، 129، 248، 251-252.

(2) انظر: المصري اليوم، يوم الجمعة 2013/5/31.

(3) محمد السمّاك، الأقليات، ص74.

(4) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص25.

الحقيقة أنّ المسلمين في مصر لم يقبلوا للحظة واحدة الاحتلال الفرنسي، وقاوموه بكلّ ما لديهم من قوّة، واستمروا في جهادهم بكلّ السبل المتاحة، فكانوا يفرحون إذا سمعوا أن خبر عن قتل الفرنسيين، أو إصابتهم بجروح يصرخون بهم، ويهزّونهم، كما أنّهم كانوا يقتلون كلّ مَنْ استطاعوا قتله منهم، وجمعوا التبرّعات لمساعدة بعضهم بعضاً في مواجهة الاحتلال، وكانوا يُنظّمون مظاهرات شعبية ضد الاحتلال وعملائه من النصارى ففي (شهر شوّال سنة 1214 الموافق لشهر آذار 1800) حدثت ثورة جهادية ضد الفرنسيين، فقتل المسلمون عدداً غير قليل من الفرنسيين ومن النصارى العملاء. وفي (شهر محرّم سنة 1215 الموافق لشهر حزيران 1800) تمكّن شاب مسلم ممّن تعلّموا في الأزهر الشريف، ومن مدينة حلب، وهو سليمان بن محمد أمين الحلبيّ، من الوصول إلى "كليب" -خلف نابليون بنابورت في احتلال مصر- وقتله في دهليز بستان منزله، وذلك بعد أن أمضى واحداً وثلاثين يوماً في ترصّده. وقد قتل الاحتلال الفرنسيّ سليمان الحلبيّ، شرّاً قتلة، ثم احتفظوا بجسمه في متحف حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، كما حفظوا جُسمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس. واحتفظوا بالخنجر الذي قتل به "كليب" في مدينة كركسون بفرنسا⁽¹⁾.

وعندما وصلت أخبار احتلال فرنسا لمصر إلى الحجاز انزعج أهلها، وقام الشيخ الكيلانيّ بحثّ الناس على الجهاد، والتبرّع بالأموال، ونصرة الدّين، وتمكّن من جمع نحو ستمائة مجاهد، سافروا إلى مصر، ولما وصل المجاهدون الصعيد انضم إليهم جملة من أهله، ومن أهل ينبع، وبعض الأتراك، والمغاربة، والغز، وهاجموا جيش الاحتلال الفرنسي. قال الجبرتي: "ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأنّ رجلاً مغربيّاً عالمًا يقال له الشيخ الكيلانيّ، كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز، وأنهم وصلوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجّوا بالحرم، وجردّوا الكعبة. وأن هذا الشيخ صار يعظّ الناس، ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرّضهم على نصرته الحق والدّين. وقرأ بالحرم كتاباً في معنى ذلك مؤلفاً، فأتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين، وركبوا البحر إلى القصير⁽²⁾ مع مَنْ انضم إليهم من أهل ينبع، فورد الخبر في أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممّن كان خرج مع غزّ مصر عند وقعة إنابة، وركب الغزّ معهم أيضاً، وحاربوا الفرنسيين، فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا، وثبت الحجازيون، ثم انكفوا لقتلهم،

(1) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 183، 191 وغيرها؛ الزركلي، الأعلام، 133/3.
(2) القصير: ميناء بمصر على ساحل البحر الأحمر بينه وبين قوص خمسة أيام، وهي في محافظة البحر الأحمر. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 367/4.

وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا⁽¹⁾، وصحبته حسن بين الجداوي⁽²⁾، وعثمان بيك حسن تابعه، ووقع بين الحجازيين والفرنسيين بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع، ولم تقع نكاية في العدو بل يفصل الفريقان بدون طائل⁽³⁾.

وفي (شهر شوال سنة 1214 الموافق لشهر آذار 1800) حدثت عدّة ثورات ضد الفرنسيين منها: ثورة المغاربة البلديين (أي ممّن ولدوا في مصر)، وجماعة من أهل الحرمين ممّن كان قدم مع المجاهد الكيلاني بقيادة رجل مغربي حيث جاهدوا الفرنسيين في منطقة البحيرة⁽⁴⁾.

كما تبرّع العامة للمجاهدين المسلمين بكل ما يستطيعون قال الجبرتي: "وباشر السيد أحمد المحروقي وباقي التجار، ومساتير [الفقراء] الناس الكلف والنفقات والمشاكل لما في ذلك من المعونة للمجاهدين، وكذلك جميع أهل مصر، كل إنسان بنفسه وبجميع ما يملكه عن طيب قلب، وانشراح صدر، وأعان الناس بعضهم بعضاً، وفعل كلّ إنسان ما في وسعه، وطاقته من المعونة"⁽⁵⁾.

وتمكن ثلاثمائة من عسكر الأرنؤوط من دخول مصر ومحاربة الفرنسيين، ففرح المسلمون بذلك، كما ثار أهل بولاق بقيادة الحاج مصطفى البشتيلي. قال الجبرتي: "وحضر جماعة من عسكر الأرنؤوط نحو ثلاثمائة كانوا ببعض القرى... ففرح الناس على قدومهم، وضجّت العامة لحضورهم، وتساءلوا فأخبروا أنهم حاضرون مدداً، وسيأتي جماعة بعدهم.

وأما بولاق، فإنما قامت على قدم وساق، وتهوّر في ذلك وتشدّد الحاج مصطفى البشتيلي وهيّج العامة، فأخذوا الأسلحة، والعصي، والنبابيت، وذهبوا إلى وطاق الفرنسي الذي تركوه بساحل البحر وعند جماعة منهم للحرس، فقتل ممّن أدركه أهل بولاق منهم، وفرّ ممّن فرّ، ونهبوا ما في الخيام والمتاع وغيره، ورجعوا إلى

(1) إسنا: مدينة كبيرة في محافظة الأقصر، جنوب مدينة الأقصر ب(55) كم. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 189/1.

(2) الجداوي هو: حسن بيك الجداوي، كان من الأمراء الشجعان، تولى إمارة جدة بالملكة العربية السعودية فُسب إليها، وجاهد الفرنسيين بمصر مدّة، ثم خرج للجهاد في بلاد الشام إلى أن استشهد بالطاعون سنة (1215هـ). وعثمان بيك هو أحد أمراء الجداوي. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 145 حاشية (3و4)؛ عجائب الآثار، 171/3.

(3) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 145.

(4) انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 188.

(5) الجبرتي، مظهر التقديس، ص 189.

البلد، وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنسيين، وأخذوا ما أحبّوا منها... واستعدّوا للحرب والجهاد⁽¹⁾.

ما سبق، كان جزءاً من حركة الجهاد الشعبية الإسلاميّة ضد الاحتلال الفرنسيّ، أما حركة الجهاد الرسمية، فلم تتأخّر؛ إذ رغم مُباغتة نابليون ولاية مصر بهذه الحرب، ونقضه المعاهدات التي كانت موقعة بين فرنسا والدولة العثمانيّة الإسلاميّة، فإنّ السلطان العثماني سليم الثالث لم يتأخّر في ردّ الفعل الجهاديّ، حيث كشف للعرب والمسلمين: كذب نابليون بادّعائه الإسلام، واحترام خليفة المسلمين، ومقدّساتهم، كما كشف أهداف حملته الحقيقيّة، وذلك في رسالة وجهها إلى شريف مكة المكرّمة دعاه فيها إلى حفظ الحرمين الشريفين، والتأهب للجهاد ضد نابليون، وأعلمه أنّه باعتباره خليفة المسلمين بدأ بتجهيز جيش إسلامي لجهاد نابليون. وقد تحالف الخليفة مع عدو نابليون الأول في أوروبا المسيحيّة وهو بريطانيا.

وهذا يتضح من خلال قراءة ثلاثة نصوص مهمّة، هي: رسالة نابليون المليئة بالكذب والتضليل إلى الشعب المسلم في مصر، ورسالة السلطان سليم الثالث إلى شريف مكة المكرّمة، ورسالة شريف مكة المكرّمة إلى إمام اليمن.

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص191.

1- نصّ رسالة نابليون إلى الشعب المصريّ المسلم⁽¹⁾

"بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لا ولد له⁽²⁾، ولا شريك له في مُلكه. من طرف الفرنسية المبني على أساس الحرية والتسوية، السرّ عسكر الكبير⁽³⁾ أمير الجيوش الفرنسية بوناپارته⁽⁴⁾، أمير الجيوش الفرنسية يُعرّف أهالي مصر جميعهم: أنّه من زمان مديد، السّناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذلّ والاحتقار في حقّ المِلّة الفرنسية، ويظلمون تجارها بأنواع البلص⁽⁵⁾ والتّعدي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم.

وا حسرتاه، من مُدّة عصور طويلة، هذه الزُّمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازا⁽⁶⁾ والكرجستان، يُفسدون في الإقليم الأحسن، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلّها مثله، فأما ربّ العالمين القادر على كلّ شيء، فإنّه قد حَتَم على انقضاء دولتهم.

يا أيُّها المصريون، قد قيل لكم: إنني ما نزلت بهذا الطرف إلّا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح، فلا تُصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلّا لكيما أُخلّص حقكم من يد الظالمين. وإنني أكثر من المماليك أعبدُ الله، سبحانه وتعالى، وأحترمُ نبيه محمّد [صلّى الله عليه وسلّم]، والقرآن العظيم. وقولوا أيضًا لهم: إنّ جميع الناس مُتساوون عند الله، وإنّ الشيء الذي يُفرّقهم من بعضهم بعضًا فهو: العقل، والفضائل، والعلوم فقط⁽⁷⁾.

(1) الجبرتي، مظهر التقديس، ص60-64؛ عجائب الآثار، 4/66-69 مع اختلاف في الألفاظ غير قليل، لكنه في المعاني بسيط.

(2) هذا النصّ وتحديداً "لا ولد له"، اتّخذ نابليون ستاراً ليزيد تضليله للشعب المسلم في مصر، بادّعائه الإسلام. وهو لم يسلم أبداً، بل جاء ليقضي على الإسلام.

(3) السرّ عسكر: أي القائد العام للجيش. وهو لقب نابليون.

(4) بوناپرتية هو: نابليون بوناپرت.

(5) البلص: الرّشواوي. وقيل: أخذ المال بغير حقّ، أو المال المأخوذ زيادة عن الضرائب. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ، ص38؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات، ص85.

(6) الأبازا هي: ناحية من جبل القيق كان يسكنها الكرج. وهي اليوم جمهورية أبخازيا المسلمة، وهي تحت الاحتلال الروسيّ. والكرج: مدينة بين همذان وأصبهان، وقيل بلدة من نواحي الجبال بين همذان ونهاوند، وبلاد الكرج هي اليوم جمهورية جورجيا، وكانت تتبعها أبخازيا، وأجاريا.

انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص60 حاشية (1)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/64؛ 4/446؛ المنجد في الأعلام، ص461.

(7) هنا يظهر نابليون مقياساً غير مقياس الإسلام، فإله، سبحانه وتعالى، فضّل بعض الناس على بعض، كما فضّل الرُّسل بعضهم على بعض.

والمماليك، ما العقل، والفضائل، والمعرفة التي تُميزهم عن الآخرين؟! ويستوجب أنهم يتملكون وحدهم كلّ ما تحلوه به الحياة الدنيا، حيثما يوجد أرض مخصبة، فهي مختصة للمماليك، والجواري الأجمل، والخيل الأحسن، والمساكن الأشهى، فهذا كلّهم خالصاً.

إن كانت الأرض المصرية التزام المماليك، فلئرونا الحجة التي كتبها لهم ربّ العالمين؟! هو رؤوف، وعادل على البشر، تعالى.

من اليوم فصاعداً، لا يُستثنى أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلاء، والفضلاء، والعلماء بينهم سيّدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلّها.

وسابقاً في الأمور المصريّة، كانت المدن العظيمة، والخلجان الواسعة، والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كلّهم إلّا الطمع وظلم المماليك⁽¹⁾.

أيها القضاة، والمشايخ، والأئمة، وأعيان البلد: قولوا لأمتكم إنّ الفرنسيّة هم -أيضاً- مُسلمون مُخلصون؛ وإثباتاً لذلك قد نزلوا في روميّة الكبرى، وخربوا فيها كرسي البابا، الذي كان يحثّ دائماً النصارى على مُحاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطرّدوا منها الذين كانوا يزعمون أنّ الله، تعالى، يطلب منهم مُقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنسيّة في كلّ وقت من الأوقات صاروا المُحبين الأخلصين لحضرة السلطان العُثماني، وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه. وبالمقلوب المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير مُمتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلاً إلّا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير؛ فيصلح أمرهم، ويُعلّى مراتبهم. طوبى -أيضاً- للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المُتحاربين، لكن الويل، ثمّ الويل للذين يتحدّون مع المماليك، ويُساعدونهم في الحرب علينا، فما يجدون طريق الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمرُّ بها عسكر الفرنسيّ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر وكلاء من عندها، لكيما يُعرّفون المشار إليها أنهم أطاعوا، وأنهم نصبوا السنجاق الفرنسيّ، الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية: كلّ قرية تقوم على العسكر الفرنسيّ تُحرق بالناس.

(1) هنا يُمارس نابليون أشدّ أنواع التضييل، ويضع أسس "سياسة فرق تسد" الاستعماريّة.

المادة الثالثة: كل قرية التي تطيع للعسكر الفرنساويّ الواجب عليها نصب السنجاك الفرنساوي⁽¹⁾، وأيضاً نصب سنجاق السلطان العثملي⁽²⁾، دام بقاءه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد ليختموا حالاً جميع الأرزاق، والبيوت، والأملك التي تتبع الممالك، وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على: المشايخ، والعلماء، والقضاة، والأئمة أنهم يُلازمون وظائفهم. وعلى كل أحد من أهل البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً. وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ليشكروا فضل الله، سبحانه وتعالى، من انقراض دولة الممالك، قائلين بصوت عال: أدام الله إجلال السلطان العثملي. أدام الله إجلال العسكر الفرنساويّ، وأصلح حال الأمة المصريّة.

تحريراً بمعسكر إسكندرية في 13 شهر مسيدور⁽³⁾ سنة (6)، من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في (أواخر شهر محرم 1213 هجرية [أي الموافق لشهر حزيران سنة 1798]). انتهى منقولاً بالحرف⁽⁴⁾.

2- رسالة السلطان سليم الثالث إلى شريف مكة المكرمة الشريف غالب بن مساعد، يُعلمه فيها بأهداف حملة نابليون، ويطلب منه المشاركة في الجهاد ضد نابليون.

قال بعد البسملة، وحمد الله، والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾: "وبعد؛

(1) السنجاك: العلم. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص 136.
(2) سنجاق السلطان: أي علم الدولة العثمانية الإسلامية، وهذا الطلب هو تضليل وخداع للشعب المصري المسلم.

(3) مسيدور: هذا اسم شهر فرنسيّ، فقد اخترع الفرنسيون بعد ثورتهم شهراً كان هذا منها، وهو عاشر الأشهر، ويوافق المدة ما بين (20 حزيران إلى 19 تموز). لكن الفرنسيين ألغوا هذه الشهور سنة (1806/1221) وغادوا لاستخدام التقويم الغريغوري النصراني المعمول به حتى اليوم. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 64 حاشية (2).

(4) أوردت جُلّ الرسالة -على ما فيها من ركافة وغطاء- ولم أصلح منها شيئاً إلا ما لا بد منه لفهم المكتوب. انظر: الجبرتي، مظهر التقديس، ص 64 حاشية (3).

فهذا مرسومنا الميجل الشريف، وخطابنا المَعْظَم المُنِيف، لا زال نافذاً بعون الله في سائر الأرجاء والأقطار، ما دام الفلك الدَّوار. أصدرناه مبنياً على تنظيم فرائد التَّحِيَّة والتسليم، ومنصوباً على قلاند التبجيل والتكريم، مُحْتَوِياً على قواعد صيانة الدِّين، مُؤَكِّداً لمعاقد حماية سُنن سيِّد المرسلين، وآله، وصحبه أجمعين.

أصدرنا إلى عالي جناب الأمير، الأَمجد المُبجَّل، الأَجَلّ الأَوْحد، المُقْتَفِي آثار أسلافه الأشراف، من آبائه الغرِّ، صناديد آل عبد مناف، وأجداده السعيد السَّير، الجميلي الأوصاف، فرع الشجرة الزَّكِيَّة النُّبُوَّة، طراز العصابة العلويَّة المُصْطَفَوِيَّة، قُرَّة عين الزَّهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف الملك المآجد حالاً، شريف مكة المشرَّفة، الشَّريف غالب بن مساعد، لا زالت العناية الربَّانية له ملاحظة، والكلَّاية الصمدانيَّة عليه حافظة.

وإلى قدوة العلماء، وعمدة الفضلاء، نائب مكة المشرَّفة، وكافة السادات الأشراف الأجلَّاء الميامين، ومفتي المذاهب الأربعة، والعلماء، والأئمة المحترمين، ووجوه كافة المسلمين، من ساكني بلد الله الأمين، من حاضر وباد، وفقهم الله إلى سبيل الرشاد:

يُحِيطُونَ علماً أَنَّ طائفة كفار الفرنسة، جعل الله ديارهم دارسة، وأعلامهم ناكسة، قد نقضوا العهود، وخانوا موثيق المعبود، وخرجوا من أطور الحدود، وهجموا على بدوان مصر وسكانها، على حين غفلة من أهلها، فمَلَكُوا البلاد، وأفشوا الكفر والفساد، وخاضوا بحر الضلال والطغيان، وتحشَّدوا تحت راية الشيطان.

(1) السلطان سليم هو: سليم الثالث بن مصطفى الثالث، عاش ما بين (1761/1175 و 1808/1222)، عندما تولى السلطنة كانت أحوال الدولة مضطربة، إذ تحالفت روسيا والنمسا ضدها، وشنتا حرباً طويلة ضد الدولة العثمانية، وقد استغلت فرنسا ضعف الدولة وانشغالها بالحرب مع روسيا والنمسا، فاحتلت مصر وحاولت احتلال الشام، وتمكن السلطان بمساعدة شريف مكة وبريطانيا من هزيمة نابليون. وقد حاول إصلاح الإنكشارية، فشارت عليه، فتنازل عن السلطة، وعُيِّن مكانه السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد سنة (1223 / 1808)، وتوفي شهيداً في السنة نفسها. انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، 4/658؛ خليل مردم، أعيان القرن، ص98؛ القزمانى، تاريخ سلاطين، ص139؛ علي حسون، تاريخ الدولة، ص148.

والشريف غالب هو: غالب بن مساعد بن سعيد الحسني (ت1816/1231)، من أمراء مكة المكرمة وأشرفها، وليها سنة (1202/1788) حارب الإمام سعود بن عبد العزيز ثم دخل في طاعته، استجاب لطلب السلطان سليم بمحاربة نابليون وحماية الحجاز، ثم استخدمه محمد علي باشا لقتال سعود بن عبد العزيز، ثم اعتقله، وأرسله إلى إستانبول، فنفي إلى مدينة سلاتنيك حيث توفي فيها. انظر: خليل مردم، أعيان القرن، ص127؛ الشوكاني، البدر الطالع، 4/2، الزركلي، الأعلام، 115/3.

وتمكّن البغي في أحشائهم. (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ) ⁽¹⁾، لا حاكم يردعهم، ولا دين واعتقاد يجمعهم، يَعْتُونَ النَّهْبَ غَنِيمَةً، والنميمة أكمل شيمة. قد اتفقت آراؤهم، وارتبطت أشوارهم ⁽²⁾، على الهجوم على سائر بلدان المسلمين، وأقطار عباد الله الموحدين، بأنّ أهل الإسلام أقوياء، ولهم مزيد الصّلابة في الدّين، فإذا وصلنا أقطارهم، وحللنا ديارهم، فالضعيف منهم تُباشره: بالحرب، والضّرب، والقتل، والنهب. والقويّ منهم ننصب له شرائك المكر، والحيل، حتى تطمئنّ خواطرهم، وتأمّن ضمائرهم، إلى أن يقعوا في أشراكنا، ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا، ونلقى بين سائر المسلمين المكائد الخفية بالفساد، لإيقاع العداوة المُبينة للاتحاد، في أحوالهم وأديانهم.

ولم يعلموا، لعنهم الله، أنّ الإسلام مغروس في قلوبنا، والإيمان ممزوج بلحمنا، ودمنا. أكفر بعد إيمان، أضلال بعد هدى؟! كلّا وربّ الأرض والسماء، (مَرْبُّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) ⁽³⁾. وخصوصاً في طوائف العرب، لنبلغ فيهم أقصى مرام، وأعزّ مطلب، ونبذل الجهد في تخريج الرّعايا من الإسلام عن طاعة من وُلّي عليهم من الحكام، حتى يكون لنا الصّولة العظمى، ويصيرون الجميع ⁽⁴⁾ لنا مغنماً، فينقطع بذلك سلك نظامهم، وينفصم عقد انتظامهم، فنملك حينئذ رقابهم وأموالهم، فإنّ العرب أسرع ما يُستولى على ديارهم؛ لتفرّقهم في أوديتهم من أقطارهم، وغفلتهم عن حزم أحوالهم، فإنّ أعظم ما يُشئت جموع الإسلام، ويقلّ حدّ سنانهم عن الانتظام: هدم قبلتهم، وحرّق مساجدهم، فإذا ظفرنا بأقطارهم، وهُدمت كعبتهم، ومَسَجِدُ نبيهم، وبيت مقدس عزّهم، انقطع أملهم، وتفرّق شملهم، ومكّنا ديارهم، فإنّ الأمور لا يدركها إلّا اتفاق الجمهور، فنقتل جميع رجالهم، ومنّ يعقل من صبيانهم، فحينئذ نفتسم: ديارهم، وأموالهم، وأملاكهم، ونحوّل بقية الناس إلى أصولنا وقواعدنا، ولساننا، وديننا، فبه يُمحي الإسلام، وقواعده، وشرائعه، وتندرسُ رسومه، وأثاره من وجه الأرض: من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها، وغربها، وعجمها.

(1) الأنعام، 121/6.

(2) أشوارهم: مشورتهم، ويقال شاوره مُشاورة وشواراً واستشاره: طلب منه المشورة أي الرأي. اللسان: مادة شور.

(3) آل عمران، 8/3.

(4) هنا استخدم لغة أكلوني البراغيث، والأصل أن يُقال "يصير" من دون الواو والنون.

فهذا ما اتفق رأي الفرنسيين اللعين من سوء المقاصد في المسلمين، (عليهم دائرة السوء والله) (1)، فلا يستطيعون صرفاً ولا نصراً (2)، ونرجو الله أن يُعاملهم بعدله في قوله «وَكَايَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ» (3). فهذا حال الفرنسة في: إلحادهم، وجدالهم، وعنادهم، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم، «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُبْدِي نُورِهِ وَكَوْكَرِهِ الْكَافِرُونَ» (4)، فكيف لا يكون فرضاً على كلِّ أحدٍ من مسلم موحد، أن يُشَمِّرَ عن ساعد الجد، ويبذل نفسه وماله في مرضاة الواحد الفرد، ويمثّل قول أصدق القائلين: «وَسَامِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (5)، ويكون رابحاً في بيعه عن الخسران، مُستبشراً ببذل نفسه في سبيل الرحمن، لقوله: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (6). إلى غير ذلك من الآيات البينات، والأحاديث الصَّحيحة، المروية عن الثقات، ممَّا يَحُثُّ على نصرة الدِّين، ويَلْمُ شعث الموحِّدين، فالآن: يا شريف مكة، ويا سادات الأشراف، وقادات العرب، وحماة الدِّين، وكُماة المسلمين، وغزاة الموحِّدين، وأبطال الحروب، الماحين بصوارم عزمهم عن الدِّين ظلام الكروب. يا رجال الغارات، ويا أركان الشريعة والعبادات، ويا حفظة الدِّين والأمانات، ويا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات، ويا كافة إخواننا في الدِّين، والذين هم لشريعة ربِّهم ناصرين: البدار، البدار إلى طاعة الملك الغفار؛ لمحافظة قبلكم، ومَحَدِّ نبيكم، منشأ الإسلام، ومسجد نبيكم عليه السَّلام، ومواطن مُضاعفة

(1) التوبة، 98/9.

(2) هنا اقتباس من قوله تعالى: (فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا)، الفرقان،

19/25.

(3) فاطر، 42/35.

(4) الصف، 8/61.

(5) آل عمران، 133/3.

(6) التوبة، 111/9.

عبادتكم من ساحة بيت الله الحرام، فالغيرة الغيرة، والحمية الحمية، من صولة أعداء الدين، الذين هم عن كل ملة فارقين، ولكتب رسل الله مُكذِّبين، فشدُّوا عزائمكم للقائهم، واحفظوا جهاتكم وسواحلكم، ومنافذ بلدانكم، وسارعوا إلى الرباط، إلى حدود الكفرة اللئام، ببندر جدّة، وينبع، وما والاها، ممّا فيه صيانة المسلمين، وحفظ أعراض الموحدين، وكونوا عباد الله إخواناً⁽¹⁾، (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)⁽²⁾، وفي سبيل الله أنفقوا وتجمّلوا، وكونوا كلمتكم واحدة، وأيديكم مُتناصرّة، ولتكن سيوفكم بارقة، وسهامكم راشقة، وأسنتكم في الطعن مُتلاحقة، ومدافعكم صاعقة، ونبالكم إلى أفئدتهم مُتسابقة، ولتقصّدوا بذلك إعلاء كلمة الدين، والذبّ عن بيت الله، ومسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلّم.

ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله، محفوظون بروحانية رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك، ولا تراخ في حفظ تلك المسالك. ونحن في طرف السلطنة السنية، ننشر رايتنا العلية. فبحول الله، وقوّته، وباهر عظمته، تملّكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة.

وقد سبّرنا عليهم شجعاناً لا يُبالون بالموت؛ لإعلاء كلمة الدين، وغزاة يقتحمون على النار؛ محبة في دين الله، فنتعقب بقدرة الله أدبارهم، لعلّ الله يرزقنا هلاكهم، ودمارهم، فنجعلهم، إن شاء الله، (هباءً منثوراً)⁽³⁾، كأن لم يكونوا (شيئاً مذكوراً)⁽⁴⁾. فبادروا أيّها المسلمون إلى الرباط بجدّة وينبع. ومن تخلف فقد عصى الله، وخالف أمرنا؛ فإنّ ذلك أمرنا إليكم، وحثمنا عليكم. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»⁽⁵⁾، واستجلبوا صالح الدّعوات من: عُجازكم، وصالحكم، وأفاضلكم عند البيت الحرام، وقد قال تعالى: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

(1) هذا جزء من حديث شريف، رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ... وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله..." مسلم، الصحيح، حديث رقم (4646).

(2) الأنفال، 46/8.

(3) الفرقان، 23/25.

(4) الإنسان، 1/76.

(5) آل عمران، 200/3.

وَأَنْفُسِكُمْ»⁽¹⁾. وقال عليه السلام: "المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً"⁽²⁾. ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾⁽³⁾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَوَأَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُكَلِّمُوكُمْ أَلَّا تُدَارِكُوهُمْ لَا يَنْصُرُونَ، ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَنْ مَا يُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأْثُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾⁽⁴⁾، فالبدارَ البدارَ إلى ما أمرناكم من الرباط، والحدارَ من خلاف ذلك.

(1) التوبة، 41/9.

(2) هذا جزء من حديث شريف، رواه أبو موسى عن النبي، صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه..." البخاري، الصحيح، حديث رقم (5680).

(3) المائدة، 119/5.

(4) آل عمران، 112-100/3.

هذا ما انتهى أمرنا إليكم، لا زلتم موقّنين بعون الملك المعين، وصلى الله
على سيدنا محمد، وآله، وصحبه وسلّم" (1).

(1) الشوكاني، البدر الطالع، 15-9/2.

أفكار رسالة السلطان

يلاحظ مَنْ يقرأ رسالة السلطان سليم الثالث، أنها تضمّنت سبع أفكار أساسية، هي:

1-مقدّمة الرّسالة، وشملت، بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على الرسول، صلى الله عليه وسلّم، ثلاثة أمور هي: تعظيم السلطان نفسه، ثم تعظيم الشريف غالب بن مُساعد، ثم مُخاطبة شرفاء مكة المكرمة، وعلمائها وسائر المسلمين فيها، وفي باديتها، مع إبداء الاحترام والتقدير لهم.

2-الإعلان عن حملة نابليون على مصر، والدّعاء عليهم، وهذه شملت أمرين مهمين هما: بيان سبب الحملة وهو: نقض العهود الموقعة مع دولة الخلافة العثمانية الإسلامية، جراء طبيعتهم، وعدم وجود دين لهم يردعهم عن ذلك(كفرهم).

وبيان أهداف الحملة، وهي: البدء بمهاجمة أماكن الضعف في بلاد المسلمين، ومحاولة بثّ الفرقة بين المسلمين، وتحريض العرب على العثمانيين لكي ينفرد عقد قوتهم، واستغلال تفرّق العرب في بلادهم الواسعة، وصعوبة الاتصال فيما بينهم، فيقتلون الضعيف، ويكيدون للقوي حتى ينالوا منه حاجتهم، ثمّ هدم الأماكن المقدسة للمسلمين(الكعبة المشرفة، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى المبارك)، ثمّ القضاء على الإسلام والمسلمين من على هذه الأرض، وذلك بقتل الرجال، ومَنْ يعقل من الصبيان، ثم تحويل مَنْ يتبقى إلى الدّين المسيحيّ، واللغة الفرنسيّة.

3-دعوة العرب في شبه الجزيرة العربيّة إلى الجهاد، بالدفاع عن الموانئ، وحماية الأماكن المقدّسة، ومُساندة جيوش الدولة العثمانية الإسلامية.

4-إعلان التفاؤل بالنصر، وشدّ أزر المسلمين.

5-إصدار الأمر إلى شريف مكة المكرمة، والأمراء جميعهم بالجهاد، وتحذيرهم من التخاذل وعواقبه.

6-الطلب من العجزة، والصّالحين، ومَنْ لا يستطيع الجهاد بالنفس، الجهاد بالدّعاء عند البيت الحرام.

7-ختم الرسالة بالدّعاء للمسلمين بالتوفيق والنّصر، والصلاة على النبيّ، صلى الله عليه وسلّم.

أسلوب الرّسالة

تمتاز رسالة السلطان سليم بمميزات عديدة، أهمها: سهولة الألفاظ، ووضوح المعاني، واستخدام السجع من دون أن يؤثر على المعاني، بل في كثير من المواضع أضفى على الأسلوب نغمة موسيقية مؤثرة، والإكثار من الاقتباس من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة باللفظ والمعنى، وذلك يناسب الموضوع، ويخدمه وهو الجهاد في سبيل الله، تعالى، والإكثار من استخدام أساليب علم المعاني المختلفة في مواضعها المناسبة، والإكثار من استخدام الدعاء.

وقد استجاب شريف مكة المكرمة لطلب السلطان؛ فجهّز جيشًا من سبعة آلاف مُجاهد، وأرسلهم للالتحاق بالجيوش العثمانية الإسلامية للمشاركة في جهاد الفرنسيين، ثم أرسل رسائل إلى أمراء وحكام الجزيرة العربية؛ يُعلمهم فيها بما حصل في مصر، وما يطلبه السلطان سليم منهم، وكان ممن أرسل لهم رسائل، الإمام علي بن العباس، إمام بلاد اليمن، وهذا نص إحدى رسائله؛ إذ يُعلمه بما حدث في مصر، ويطلب منه حماية ثغور اليمن، وإعلان الجهاد على الكفرة المعتدين من الفرنجة.

3- رسالة من شريف مكة المكرمة، غالب بن مساعد إلى مولانا الإمام المنصور بالله، علي بن العباس⁽¹⁾، حفظه الله، وفي طيه كتاب السلطان السابق ذكره. ولفظ كتاب الشريف:

"الحمد لله الذي كلّ يوم هو في شأن، والصلاة والسلام على سيّد ولد عدنان، وعلى آله الطاهرين، وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. ثم نهدي مزيد سلام نشأ من خالص الفؤاد، وأعرب عن صدق المحبة والاتحاد، مع تحيات طاب نشرها من المآثر العظام، وبيت الله الحرام، وزمزم، والمقام إلى الحضرة الباهرة المنصورية، والعقوة⁽²⁾ الزاهرة الهاشمية، والسدة العلية العلوية، ساحة الخلافة اليمينية، واسطة نظام السادة الحسنية، الجنب العالي الكريم، والمآب الغالي الوسيم.

أخينا الأكرم، وعالي الهمم، الإمام ابن الإمام، حضرة الإمام المنصور، وفقه الله لصالح الجمهور. ولا زالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلالية الصمدانية عليه

(1) الإمام المنصور بالله هو: علي بن العباس بن حسين القاسم. عاش ما بين (1151/1738 و 1224/1809). ولد في صنعاء، وعاش وتوفي بها، وهو حادي عشر أئمة الزيدية في اليمن ببيع بالإمامة بعد وفاة أبيه سنة (1189/1775) فتولاها لخمس وثلاثين سنة. وخلفه ابنه المتوكل على الله = أحمد. وللمؤرخ لطف الله الجحاف كتاب في سيرته هو "درر نحرور الحور العين لسيرة الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين". انظر ترجمته: الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 459؛ العرشي، بلوغ المرام، ص70؛ فؤاد السيد، معجم ألقاب السياسيين، ص879؛ الزركلي، الأعلام، 4/298.

(2) العقوة: ساحة الدار وما حولها. اللسان: مادة عقا.

حافضة، أمين بجاه سيّد المرسلين، وبعد إهداء شريف السلام، وإسداء واجب التّحيّة والإكرام، فالسؤال عن حالكم كثير، لموجب ما لكم عندنا من جميل الوداد الوافر. وإن سألتكم عنّا، فنحمده، سبحانه، على جزيل فضله، وعظيم امتنانه، طيبين بخير، وعافية، ونعمة من المولى وافية.

والذى يُبديه إلى مسامعكم العلية، وأفهامكم الزّكية، من الأمور الحادثة في الوجود، وجزيل أحكام الملك المعبود، لموجب احتياج أهل الإسلام، إلى الترفّهات عن نهج المهام، وترك حزم الأمور، وغفلتهم عن حفظ الثغور، حتى صار ما صار من شردمة أهل البغي والإنكار، من التّهجم على بلاد: أسكندرية، ومصر القاهرة، بجنود من البحر على سفارين متواترة، وهم طائفة من جمهور الفرنسية، والملة الباغية التي بفضل الله أعلامهم ناكسة، لمشاهدتهم في أحوال المسلمين، ترك الثغور عن التّحصين، فهجموا على تلك البلاد، فلم يجدوا لإجامحهم مُدافع ولا رادّ، فأفسدوا كافة منْ بجوارها من العربان، بأنواع السياسة المؤهّمة بأنهم من طائفة السّلطان، وأبرزوا للبوادي كتباً مزوّرة بألفاظ عربيّة، بتعظيم الله، ورسوله مُصدّرة، حتى انقادوا له بالطاعة، ظلّاً منهم بأنهم من جنود الدولة المُطاعة.

وليس يخفى عليكم حال البوادي الطغام، الذين لا يعقلون (إِنَّهُمْ إِنَّا كَلَّاظِمَامٌ)⁽¹⁾، فسلكوا بهم الطريق، وصاروا للمشرّكين أعظم مُساعد، وأعزّ رفيق، فجرى قدْر ربّنا، سبحانه، باستدراج جند الشيطان، أرباب الخيانة، بتملكهم للقاهرة، ودخولهم إلى مصر بحكمته الباهرة، فلا رادّ لقضائه، ولا محيص عمّا ارتضاه، فهو الملك المختار، وله المشيّة فيما يختار، فحينئذ بلغ ذلك الخبر، حضرة سلطان الإسلام، أدحض الله بصوارم سطوته جنود اللّئام، فجهّز عليهم من أبطال الأجناد، ما يعجز عن حصره جموع الأعداد، وسيّر عليهم من جيوش الإسلام، ووزرائه العظام، وجعل مقدّمهم الوزير الشهير الجزار أحمد باشا، بلّغه الله من الخير ما شاء، فاجتمعت عليه طوائف العربان، وتحشّدت تحت رايته كافة أهل الإيمان، وهرع إلى جهادهم المسلمون من كلّ مكان، حتى أقطارنا الحرميّة [أي بلاد الحرمين الشريفين]، ظهرت ممّا للجهاد سبعة آلاف، يرُدّون في طاعة الله موارِد الموت والإتلاف، ونرجو العظيم من فضله العميم، أن يؤيّد بالتّصر أجناد الموحدين، ويؤيّد بالقهر شمل الكفرة المُلحدين .

والحمد لله قد وردت إلينا الأخبار بتضايق حال المشرّكين من الحصار؛ لتزاحف جنود أهل الإسلام، وإحاطتهم بجميع المنافذ المصريّة والمسام، فانتظم أمر

(1) الحج، 40/22.

التجهيز، وانتدب لنصرة الإسلام كلَّ ذليل وعزيز، (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ⁽¹⁾).

وفي هذا الأوان ورد إلينا هذا الفرمان، الصادر إليكم منه صورتان، المُعلن بدواعي الفلاح، والمُحرّض لكافة المسلمين على ما يُرجى منه النجاح، من استعداد القوة للمصادمة والكفاح، كما هو مُتحتّم على أهل الإسلام، خصوصًا في مثل هذه الأيام، ومن أعظم الشيم والمروءة، امتثال قول الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)⁽²⁾، فبذل غاية المجهود؛ لمحافظة الثغور، وتحصين الحدود، والمرابطة في بلدان السواحل، والذبّ على الأديان بسهم المرامي، وبيض الصّواهل، أمرٌ محتوم على كافة ملوك الإسلام، وسائر القبائل، فوصلكم صورة الأمر الشّريف، والخطاب المنيف، وما القصد من إرساله إلّا تنبيهكم لحفظ البلاد، والتّحذير من أرباب الكفر والعناد، كما هو مُصرّح في الفرمان السّلطاني، من ذكر مكاييد الكفرة في جميع المغاني.

ولا يعزب عن فهمكم الثاقب، أنّ ملوك الروم أحس بما يبني الكفرة أمورهم من المعاطب، فحثّوا على المrabطة جميع المسلمين، وقوّوا ثغور بلدانكم بالتحصّن الرّصين من البنيان، وتشبيد بروج المناثق⁽³⁾ بذوي البأس من الفتيان، فإنّ بحر الهند تجرى فيه سفابنهم، وقد ظهرت فيه بأحد المواسم ضرايرهم، فيجب من عزيز جنابكم كمال الثّحري؛ لدفع مفسادهم، والاستعانة بالله، تعالى، في إحاض مكايدهم. ومن أكد اللّوازم نشر هذين الفرمانين في كافة أقطار أوامركم، وأقصى ما يُحادّد بلدانكم، ومحاكمكم.

هذا ما عنّ لنا به الإخبار، لا زلتم في كلاية الملك السّتار، وإن شاء الله، عن قريب نُفيدكم بمسرة نصرّة الإسلام. فالمرجو من جنابكم عدم إخراجنا من الضمير المنير، بأسنى صحة أخباركم، لا سيّما تفيّدون بما تجددّ وحدث، وبلغكم من الإعلام والأخبار. ودُمتم سالمين، وبعين عناية الله ملحوظين، وصلى الله على سيّدنا محمّد، وآله، وصحبه، وسلّم. انتهى كتاب الشريف عافاه الله⁽⁴⁾.

(1) الفرقان، 44/25.

(2) الانفال، 60/8.

(3) المناثق: النّثق: الرّفع. والنّاثق: الرّافع. والمقصود العالية، والمرتفعة. اللسان: مادة نثق.

(4) الشوكاني، البدر الطالع، 18-15/2.

2- انتشار المطابع⁽¹⁾

دأب كثير من الدارسين على اعتبار المطبعة التي أدخلها نابليون بونابرت إلى مصر في حملته عاملاً من عوامل النهضة، فيما الحقيقة أنه لم يُطبع بها إلّا الأوامر والنواهي التي أصدرها نابليون، ومن خلفه من القادة العسكريين في مصر، بعد هروبه منها، وأنه تم إعادة المطبعة إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، التي لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع. " أحضر معه مطبعة "البروباجندا" [الدعاية] من إيطاليا؛ ليُطبع بها بيانات التضليل للشعب المصري، تلك التي زعم فيها أنه مسلم أكثر من المماليك ... ثم خرجت هذه المطبعة من مصر بخروج الحملة الفرنسية"⁽²⁾.

وهذه المطبعة لا علاقة لها بتنمية الثقافة والأدب في مصر، أو غيرها من البلدان العربية، بل المطبعة التي كان لها أثر في ذلك هي مطبعة بولاق الأميريّة، التي اشتراها محمد علي باشا بأموال مصر، وقد بدأت عملها سنة (1820/1235)⁽³⁾. كما أن مطبعة نابليون لم تطبع باللغة العربية أي كتاب في أي مجال من مجالات المعرفة، ولم يذكر أي من الدارسين الذين يذكرونها أيّاً من الكتب التي طبعتها.

كما اعتاد هؤلاء الدارسون على اعتبار لبنان مهد الطباعة في العالم العربيّ والإسلاميّ؛ لأنّ أول مطبعة أسّسها فيه الراهب المارونيّ عبد الله زاخر في بلدة الشوير سنة (1732/1145) من دون ذكر ما هي طبيعة هذه المطبعة، وما قامت بطابعته. والحقيقة هي: أنّها كانت مطبعة حجرية، ولم تطبع إلّا الكتب الدينية المسيحيّة، وهي خلال ستين سنة لم تطبع إلّا أربعة وثلاثين كتاباً فقط، كلّها كتب دينيّة مسيحيّة، وكذلك كانت حال بقية المطابع الطائفيّة، بل إنّ بعضها كان يطبع بغير اللغة العربية مثل مطبعة قزحيا.

كما أنّ المطابع المتطوّرة في لبنان، أنشأتها الإرساليات والرهبانات الدينية المسيحيّة الغربيّة في العقود (الخامس والسادس والسابع من القرن الثالث عشر الهجريّ/العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر الميلادي)، وكانت أغراضها بعيدة كلّ البعد عن الاهتمام بنشر المعرفة والثقافة العربيّة الإسلاميّة، بل ركزت أعمالها في طباعة: الكتب الدينية المسيحيّة، وتوزيع الإنجيل في الشرق العربيّ الإسلاميّ، وخدمة الثقافة الإنجليزيّة والفرنسيّة، ونشر القصص والشعر المعرّب غير المفيد، فنشأ جمهور يميل إلى الهزل واللهو لا الجد والعمل النافع، وقلّما نقلوا

(1) انظر: لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر، 706/1؛ محمد كرد علي، خطط الشام، 86/4؛ محمد خفاجي، قصة الأدب في مصر، 17/3.

(2) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص 24.

(3) انظر: محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، العدد (1297)، ص 24.

موضوعًا نافعًا عن اللغات الأجنبية لإفادة القراء العرب الذين لا يعرفون تلك اللغات في موضوعات: العلم، والصناعة، والتمدّن، والاجتماع، فضلًا عن أنّ كثيرًا ممّا طُبِعَ كان ردئ الطباعة، ومن غير فهارس، وشروح مناسبة. ولم تُطبع كتبًا علمية حديثة باللغة العربية إلّا بعد أن أدرك القائمون عليها أنّ نشر مبادئهم غير ممكن إلّا عبر الطباعة بالعربية، كما أنّه وعلى الرغم من وجود ثمانين مطبعة في بلاد الشام إلّا أنّها قلما طبعت كتبًا نافعة، أو اهتمت بمصلحة عامة الناس.

الحقيقة التي يجب أن يعلمها الجيل الناشئ هي: أنّ أول مطبعة عربية دخلت إستانبول سنة (1722/1135) أي قبل عقد كامل من المطبعة في الشوبر، وأنّها اهتمت بطباعة كلّ ما هو مفيد من كتب التراث العربي الإسلامي، كما طبعت كثيرًا من الكتب الدينية الإسلامية، ما أسهم في تنشيط الحركة العلمية في الولايات العربية.

3- الصحف والمجلات

سمحت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار الصحف والمجلات في كلّ الولايات التابعة لها، وبخاصة العربية، وبلغات أهلها، فيما أصدرت هي في كلّ ولاية عربية صحفًا ومجلات باللغة العربية، أو باللغتين العربية والتركية، وذلك لأنّ الدولة العثمانية كانت تُدرك أهمية الصحافة، وقدرتها على التأثير في الرأي العام، ويؤكد ذلك أنّ البعثة العلمية التي شكلها أهل الشام سنة (1915/1334) لزيارة إستانبول، وإعلان تضامن أهل الشام مع الدولة العثمانية الإسلامية في معركة "جناق قلعة"، ضمت أصحاب أربع جرائد في بلاد الشام، وعندما التقى وفد البعثة العلمية ولي عهد السلطان محمد رشاد، سأل ولي العهد كلّ واحد من أصحاب الجرائد عن جريدته، وقال: "إنّ خدمة الجرائد جليّة جدًّا، ولها التأثير الكبير في الممالك"⁽¹⁾. وكان الصحفيون والكتاب يتمتعون بحريّة كاملة فيما ينشرون، وإن تجاوزوا الحدود، يتمّ تحذيرهم أولًا، ثم يتمّ وقف الجريدة أو المجلة عن العمل، لكن يسمح لصاحبها بإصدار صحيفة أو مجلة أخرى. قال لويس شيخو: "وكان الأدباء في ذلك الوقت حاصلين على حريّتهم، لا يُعيقهم في نشر المطبوعات عائق المراقبة. والجرائد تروي الأخبار كما تشاء، لا يُعترض عليها إلّا إذا خرجت عن طورها، وتعدّت حدودها"⁽²⁾. وقال عن الحرية التي كانت تتمتع بها المطابع، والتي يتمتع بها الصحفيون في النشر: "وكانت المطابع السورّيّة في هذه البرهة [نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي] سيّارة، الأداب تجري على حريّتها، دون أن يضغط عليها المراقبون، ويقصّوا أجنحة أطيّار الأفكار، فكان

(1) محمد الباقر، البعثة العلمية، ص 65.

(2) لويس شيخو، تاريخ الأداب العربية، 6/2.

الصحافيون يُعلنون الأخبار الجارية، ويُعربون عن آرائهم في إصلاح الأمور، وتلافي الشرور، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم⁽¹⁾.

وقد هاجر عدد من صحفيي وكتاب العراق وبلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إلى أوروبا أو مصر، وساعدهم الغرب المسيحي، والإرساليات التبشيرية على إصدار صحف ومجلات، ونشر المؤلفات التي تُهاجم السلطان عبد الحميد، والدولة العثمانية، وتثير الفتن الدينية، والعرقية بين المواطنين في دولة الخلافة العثمانية الإسلامية. ومن ذلك أنَّ عبد المسيح بن فتح الله الإنطاكي أنشأ مجلة "الشذور" في حلب سنة (1897/1315)، فلما أوقفتها السلطة العثمانية؛ لتجاوزها الحدود المسموحة لها، هاجر إلى مصر وأصدر جريدة باسم "الشهباء"، ثم جريدة باسم "العمران" وذلك سنة (1898/1316). وهاجر سليم قبعين إلى مصر سنة (1897/1315)، فأصدر صحيفة "الأسبوع" سنة (1900/1318)، ثم صحيفة "عروس النيل" سنة (1903/132)، وهاجرت مجلة المقتطف التي كانت قد أنشئت في بيروت سنة (1876/1293) من بيروت إلى القاهرة بعد توسعها، وزيادة انتشارها، وذلك بسبب عثرات أقامها أمامها الحساد، ما دفع الدولة العثمانية إلى وقفها عن العمل. وقد ذكر يوسف داغر، ولويس شيخو، ومحمد كرد علي وغيرهم كثيراً من الصحف والمجلات وأخبارها⁽²⁾.

وقد انتقد محمد كرد علي كثرة الصحف في بلاد الشام في مقال له نشره سنة (1910/1328)، واستسهال الناس لهذه المهنة ما أدى إلى إضعاف تأثيرها في المجتمع، ورأى أنَّ بلاد الشام بحاجة إلى أربع أو خمس صحف ومثلها من المجلات، تصدر في أكبر مدن الشام مثل: القدس، ودمشق، وحلب، وبيروت، وتكون عالية الجودة، بدلاً من وجود نحو مائة صحيفة في الشام، أكثرها لا يساوي الورق الذي يطبع عليه، أو الوقت الذي يُبذل عليه؛ لخلوها من الفوائد، وجرأة العامة على إنشاء الصحف، فما تكاد تظهر الصحيفة حتى تختفي، كما أنَّ كثيرين اعتبروها وسيلة للتكسب والتدجيل لا أداة وعظ، وتعليم، وإرشاد. وقال في قلة تعلم أصحاب بعض الصحف: "ولكن فن الصحافة في هذه الديار، الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها: العلم، والتجربة والمال، قد رأينا أناساً من الأعمار يدعون به دون خشية، وأكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات، دع عنك تأليفها، وإصدارها"⁽³⁾.

(1) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 67/2.

(2) انظر: لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 6/2، 67؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة، 396/2؛

محمد كرد علي، خطط الشام، 84/4؛ عادل مناع، أعلام فلسطين، ص322.

(3) محمد كرد علي، خطط الشام، 84/4.

وأشار محمد كرد علي إلى سيطرة الدول الغربية المسيحية على الصحف والمجلات من غير ذكر أسمائها، ما يُبرّر هجرة ، بل هروب نصارى الشام إلى مصر، وإصدارهم الصحف والمجلات بكثرة غير معهودة، مؤكداً أن هذه الدول تعتمد في تعاملها مع هؤلاء مبدأ المكافئية وهو: "الغاية تُبرّر الوسيلة"، قال: "ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة، فكانت تحتال في أول دور أن تُشرّف صاحب الجريدة برتبة ووسام، ومنْ خالف الصّدع بأمرها تكسر قلمه، وتُشرّده، وتسجنه، وتُنزل عليه غضبها، وقد تجلّى ذلك في التّلت الأخير من الدور الحميديّ ... ولمّا جاءت الحكومات المنتدبة، وهي من أعرف الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تُقصر في اتخاذ هذه النظريّة على طريقة جمعت -أيضاً- بين الرغبة، والرغبة، والعطاء، والمنع. ولم تَحُلْ الشام في كلّ دور من أناس باعوا في خدمة صاحب القوّة ضمانهم شأن كلّ أمة جديدة في الحياة السياسيّة، ولكن ظهر ذلك جليّاً في صحافتنا؛ لأنّ الدّعاة للقوّة ضعاف، حتى في فهم ما انتدبوا إليه، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أوّل يوم يُسبّحون بحمد من استهّوهم"⁽¹⁾.

ولا شك في أنّ نقد محمد كرد علي للدولة العثمانيّة كان بدافع إظهار الولاء لحكومة الملك فيصل، وتبرئة نفسه من رئاسته تحرير مجلة وجريدة باسم "المقتبس" في دمشق قبيل إعلان الدستور، كما أنّه تولى تحرير جريدة "الشرق" سنة (1916/1334) التي كانت تنطق بلسان قائد الجيش الرابع العثمانيّ، وزير البحرية أحمد جمال باشا الكبير، واستمرّ فيها حتى سقوط دمشق بيد الاحتلال البريطانيّ والفرنسيّ سنة (1918/1336).

رابعاً - المدارس

تضمّنت التنظيمات العثمانيّة التي بدأت سنة (1839/1255) سلسلة من الإصلاحات في مجالات الحياة كلّها، ومنها التعليم، وقد كانت الإصلاحات التي أصدرها الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، بعد توليه الخلافة بثلاثة أيام في خط همايوني (سلطانيّ) سنة (1876/1293) من أهم تلك التنظيمات، وبخاصة القانون الأساس الذي ضمّ مائة وتسع عشرة مادة، حيث أقرّ حرية التعليم، وجعله إجبارياً على جميع أفراد الدولة. وقانون التعليم الخاص بالطوائف غير الإسلاميّة، حيث مُنحت تلك الطوائف حريّة إنشاء المدارس الخاصة بها، فظهر من المدارس غير الرسميّة ثلاثة أصناف هي:

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، 82/4.

1- **المدارس الأجنبية:** وهي المدارس التي أنشأتها الإرساليات التبشيرية الروسية، والأوروبية، والأمريكية، وتنافست هذه الإرساليات تنافساً شديداً فيما بينها لخدمة أهداف الدول التي تتبعها.

2- **المدارس التابعة للطوائف غير المسلمة في الدولة العثمانية.** وشملت أربع طوائف أساسية هي: طوائف النصارى العرب، والأرمن، والسريان، واليهود.

3- **المدارس الأهلية التابعة لأفراد أو جمعيات محلية.** وهذه شملت المدارس التي أقامها أفراد من رعايا الدولة، أو جمعيات متنوعة.

وما يهمننا هنا هو الصّنف الأول، إذ تنافست الدول فيما بينها على إنشاء المدارس من خلال الإرساليات التبشيرية، وكانت بداية تلك المدارس قد أسست سنة (1848/1265)، ولم تمض ثلاثة عقود على تأسيسها، حتى امتلأت البلاد الشامية بالمدارس، فوصل عددها إلى (1300) مدرسة، كان منها (501) مدرسة فرنسية، و(202) مدرسة تابعة لروسيا القيصرية. وبذلك اضطرت روسيا إلى إنشاء معهدين لإعداد معلمين لمدارسها، فأنشأت الأول في الناصرة لإعداد المعلمين، والثاني في بيت جالا جنوبي القدس لإعداد المعلمات. وأنشأت الولايات المتحدة الأمريكية الكلية الأمريكية سنة (1870/1287)، ثم أنشأ الآباء اليسوعيون بمساعدة الفاتيكان وفرنسا الكلية اليسوعية سنة (1875/1292). كما أن تلك الدول لجأت إلى ابتعاث بعض الطلبة المتفوقين في مدارسها أو معاهدها في بلاد الشام، إلى الجامعات والمعاهد العليا في بلادها؛ لإكمال دراستهم، ثم ليكونوا حزبها في دولهم.

وكان معلوم كثير من المدارس التبشيرية التابعة لأغلب الطوائف المحلية أو المدارس الأجنبية من البلدان التي تُشرف على هذه الجمعيات والإرساليات التبشيرية، وبعضهم كان من طائفة الرهبان أو الرّاهبات – مع ملاحظة أنّ هذا الأمر ما زال قائماً حتى يومنا هذا، أي سنة (2017/1439). وكانت أغلب تلك المدارس تعلم الدّين المسيحي، وتلزم الطلبة على الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد.

كما كانت بعض المدارس تستغل أية فرصة لجذب الطلبة المسلمين إليها، فعندما بدأت سياسة التتريك على يد حكومة "جمعية الاتحاد والترقي"، التي تشكلت بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، زادت تلك المدارس اهتمامها باللغة العربية، من خلال زيادة حصص التعليم، وتعيين معلمين ذوي سمعة علمية جيدة، وإقامة نشاطات طلابية باللغة العربية، وكان هدفها ليس ما أعلنته حبّ اللغة العربية، و الحرص على تعليم الطلبة لغتهم القومية، بل كان هدفها هو: زيادة الخلاف بين العرب والمسلمين

في بلاد الشام ودولة الخلافة الإسلامية العثمانية، وقد حققت هذا الهدف، فنافست المدارس الرسمية، وأقبل عليها الطلبة المقتدرون ماليًا، فتمكنت تلك المدارس من زيادة دخلها، وبالتالي رفعت مكانتها، وطوّرت نفسها في مجتمع كانت هي غريبة عنه في: اللغة، والدين، والتاريخ، والثقافة، والتراث. وازدادت قدرتها على نشر مبادئ وأفكار الدول الراعية لها، والتي تمثلت في:

1. إبعاد المسلمين عن دينهم، والعرب عن لغتهم وتاريخهم.
 2. تقريب المسلمين والعرب من الثقافة الغربية المسيحية، وتحفيزهم على العمل من أجل إحلالها محلّ ثقافتهم العربية الإسلامية.
 3. ابتعاث الطلبة المتفوقين للدراسة في الجامعات والمعاهد المسيحية ما يجعل أكثر هؤلاء الطلبة لسان الجمعيات والإرساليات التبشيرية التي ابتعثتهم، والدّول التي تعلّموا فيها، فكانوا أحزاب تلك الدّول، ومواطني القدم لها، كما أراد نابليون بونابرت.
- وقد أكد سعي تلك المدارس إلى تحقيق الأهداف السابقة، أكثر من أديب ومفكر، ومعلم عربي؛ مسلمًا كان أم مسيحيًا⁽¹⁾، ومن ذلك:

1. لويس شيخو

شكا من مضاعفة أعداد المرسلين من اللاتين والأمريكيين في سوريا ولبنان، وحملاتهم المشوّهة للمذاهب المسيحية السائدة في الشرق، ومنها مذهب اليعسوعيّ الكاثوليكيّ. ولا شك في أنّ تلك الحملات كانت أشدّ عنفًا ضدّ الدين الإسلاميّ. قال مُشيرًا إلى اتّخاذهم نشر المعارف ستارًا: "ويا حبّذا لو اقتصروا على هذه الغاية الشّريفة. ولم يتّخذوا العلم وسيلة لنشر المزاعم البروتستانتية، ومناوأة الدّين القويم"⁽¹⁾.

كما أنه أشار إلى المنافسة بين الأمريكيين والفرنسيين في إنشاء المدارس والكلّيات في سوريا ولبنان وذلك من أجل نشر مذاهبهم المسيحية، فنجاح الأمريكيين في إنشاء الكلية الأمريكية (الجامعة الأمريكية لاحقًا) سنة (1870/1287)، دفع الكاثوليك إلى إنشاء كلية كاثوليكية (جامعة القديس يوسف المعروفة باسم اليعسوعية) سنة (1875/1292)، وتقوية مدارسهم في لبنان، وذلك بمباركة الفاتيكان وفرنسا، ومساعدتهما. قال عن تأثير نجاح الكلية الأمريكية في حثّ الكاثوليك على العمل: "وكان التّجّاح الذي فاز به أصحاب الكليّة الأميركيّة باعثًا للكاثوليك على مزاحمتهم

(1) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر، 4/2.

لِيَصُونُوا أَبْنَاءَ مِلَلِهِم مِنَ الْأَضَالِيلِ البروتستانتية. وكان اليسوعيون أول مَنْ تَحَقَّرَ لِمَنَاهَضَتِهِمْ، فَعَزَّزُوا مَدَارِسَهُم الثَّانَوِيَّةَ فِي: غَزِير، وَبِيرُوت، وَصِيدَا، ثُمَّ جَعَلُوا يَطْلُبُونَ مَا هُوَ أَنْجَعُ وَسِيلَةً لِبَلُوغِ أَرْبَعِمْ بِأَنْشَاءِ كَلِيَّةٍ فِي بِيرُوتِ ثُبَارِي كَلِيَّةِ الْأَمِيرْكَانِ، وَتُقَدِّمُ لِأَبْنَاءِ الشَّرْقِ مَنَاهِلَ الْعُلُومِ صَافِيَةً مِنْ كُلِّ رَنْقٍ [ضَيْقٍ وَكَدْرٍ] يُكَدِّرُهَا. فَمَا لَبِثْتُ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنَوَاتٍ أَنْ تَشِيدَتْ أَبْنِيَّةُ كَلِيَّتِنَا الْكَاثُولِيكِيَّةِ، وَنُقَلَّتْ إِلَيْهَا مَدْرَسَةُ غَزِيرِ سَنَةِ (1875) [أَي سَنَةِ 1292هـ]⁽¹⁾.

وَقَدْ بَارَكَهَا، الْفَاتِيكَانَ بِمَنْحِهَا حَقَّ مَنَحِ الدَّارِسِينَ فِيهَا الشَّهَادَاتِ الدِّينِيَّةِ، كَمَا دَعَمْتُهَا فَرَنْسَا بِاعْتِمَادِ شَهَادَاتِهَا وَمَعَادِلَتِهَا بِمَا تَمْنَحُهُ جَامِعَاتُهَا مِنْ شَهَادَاتٍ.

2. أَنُورُ الْجَنْدِي

تَحَدَّثُ عَنِ الصَّرَاحِ الطَوِيلِ بَيْنَ بَرِيطَانِيَا وَفَرَنْسَا ثَقَافِيًّا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، حَيْثُ اسْتُخْدِمَتْ كُلُّ مَنِهْمَا الْمَدَارِسُ التَّشْشِيرِيَّةِ، وَالْمَعَاهِدُ الْعَلِيَا، وَالْجَامِعَاتُ، وَالصَّحُفُ، وَالْبَعَثَاتُ الْعِلْمِيَّةُ، وَالتَّرْجُمَةُ وَغَيْرُهَا لِفَرَضِ ثَقَافَتِهَا عَلَى الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مِصْرَ، وَسِيلَةً لِفَصْلِ مِصْرَ عَنْ مَحِيطِهَا الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ.

وَقَدْ بَدَأَتْ فَرَنْسَا مَحَاوِلَةَ فَرَضِ ثَقَافَتِهَا عَلَى مِصْرَ مِنْذُ احْتِلَالِ نَابِلْيُونِ لَهَا سَنَةَ (1798/1212)، كَمَا بَدَأَتْ بَرِيطَانِيَا مَحَاوِلَتَهَا عِنْدَمَا احْتَلَّتْ مِصْرَ سَنَةَ (1882/1299)، وَتَمَثَّلَ ذَلِكَ فِي تَعْيِينَ مُسْتَشَارٍ لَهَا فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ الْمِصْرِيَّةِ، الَّذِي بَدَأَ بِمَا سَمَّاهُ أَنُورُ الْجَنْدِي "جَلْنَزَةَ" التَّعْلِيمِ فِي مِصْرَ مِنْ خِلَالِ اسْتِبْدَالِ الْأَسَاتِذَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي الْمَدَارِسِ الْعَلِيَا بِأَسَاتِذَةِ بَرِيطَانِيِّينَ، وَرَسَمَ سِيَاسَةً وَاسِعَةً لَاعْتِمَادِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لُغَةً لَتَّعْلِيمِ الْمَوَادِّ الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ، وَالثَّانَوِيَّةِ، وَالْعَالِيَةِ فِي مِصْرَ كُلِّهَا، وَمِنْهَا مَدْرَسَةُ الْمُعَلِّمِينَ الْعَلِيَا فِي الْقَاهِرَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَتَوَلَّى إِعْدَادَ الْمُعَلِّمِينَ لَتَّعْلِيمِ فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ، حَيْثُ فَرَضَ عَلَيْهَا اسْتِخْدَامَ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، فَكَانَ لَهَا: "أَثَرُهَا الْوَاضِحُ فِي ظُهُورِ جَيْلٍ جَدِيدٍ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ، وَالْكَتَّابِ، وَالصَّحْفِيِّينَ، وَالْمُتَقَفِّينَ مِنْ أَصْحَابِ الثَّقَافَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَقَدْ بَرَزَ مِنْ هَؤُلَاءِ: أَحْمَدُ حَافِظُ عَوْضَ، وَإِبْرَاهِيمُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْمَازَنِيِّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ شُكْرِي ..."⁽²⁾. وَأَنْشَأَتْ بَرِيطَانِيَا كَلِيَّةً بِاسْمِ "فَكْتُورِيَا كُولِيدَج" سَنَةَ (1902/1319) عَلَى اسْمِ مُلْكَتِهَا "فَكْتُورِيَا" الَّتِي كَانَتْ تَوْفِيَتْ سَنَةَ (1901/1318) وَتَخْلِيدًا لَذِكْرَاهَا. وَكَانَ الْهَدَفُ مِنْهَا صَهْرُ الْمُتَخَرِّجِينَ فِيهَا، وَفَصْلُهُمْ عَنْ ثَقَافَتِهِمْ وَمَجْتَمَعَاتِهِمْ، وَتَتَقِفُهُمُ الثَّقَافَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ.

(1) لُوبِيسُ شَيْخُو، تَارِيخُ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، 4/2.

(2) أَنُورُ الْجَنْدِي، صَفْحَاتُ مَجْهُولَةٍ، ص 66.

وحرصت الكلية على قبول أبناء الملوك، والأمراء، والأثرياء؛ لتأهيلهم لتولي الحكم في بلدانهم، مع تركيز القبول حسب الدين، فقبلت في سنتها الأولى تسعين طالباً مسيحياً، وسبعاً وستين يهودياً، وتسعاً وثلاثين مسلماً " لتخريج شباب له ولاء بريطاني، يمكن أن يتولى الحكم في العالم العربي" (1).

وقد وصف المفكر الفلسطيني المسيحي إدوارد سعيد حياته التعليمية في "كلية فكتوريا" في كتابه " خارج المكان" فقال: " اتسمت حياتنا في" فكتوريا كوليدج" بتشوّه كبير، لم أدركه حينها. كانت النظرة السائدة إلى التلامذة: أنهم أعضاء تمّموا اشتراكاتهم في نخبة "كولونيالية" [أي استعمار يفرض هيمنته الكاملة على الشعب الذي يحتله] مزعومة يجري تعليمها فنوًا "إمبريالية" [أي فرض دولة ذات قوة عسكرية واقتصادية سيطرتها على دولة ضعيفة] بريطانية قضت نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تمامًا. علمونا عن حياة إنجلترا وأدائها، وعن النظام الملكي، والبرلمان، عن الهند وأفريقيا، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر، أو في أي مكان آخر، ولما كان الانتماء العربي، وتكلم اللغة العربية يُعدّان بمثابة جُنحة يُعاقب عليها القانون في" فكتوريا كوليدج"، فلا عجب أن لا نتلقّى أبدًا التعليم المناسب عن: لغتنا، وتاريخنا، وثقافتنا، وجغرافيّة بلادنا. وكانوا يمتحنوننا بصفتنا تلامذة إنجليزيًا، نجرّ أذيالنا متخلفين سعيًا إلى تحقيق هدف مُبهم ... ثمّ إنّي أدركت أنّ" فكتوريا كوليدج" قطعت نهائيًا الأواصر التي تشدني إلى حياتي السابقة، وأنّ ادّعاء أهلي أنني مواطن أمريكيّ قد تهافت، فقد بتنا ندرك جميعًا أننا دُونيون نُواجه قوّة " كولونيالية" جريحة وخطرة، بل وقابلة لأن تُؤذينا، ونحن مُجبّرون على تعلّم لغتها، واستيعاب ثقافتها لكونها هي الثقافة السائدة في مصر" (2).

كما شهدت الجامعة المصريّة (جامعة القاهرة اليوم)، ومجمع اللغة العربيّة صراعًا ثقافيًا كبيرًا بين المستشرقين الإنجليز والفرنسيين، وأتباعهما من المصريين. وقد أنشأت الدولتان صحفًا ناطقة باسم كلّ منهما، وأوكلت لها نشر ثقافتيهما، كما سخّرت بعض الصّحف وكتابها للهدف ذاته، فأنشأت بريطانيا صحيفة "الجريدة" لنشر ثقافتها والترويج لها، فيما قامت جريدة "المقتطف" ثم مجلة "المقتطف" الموالية للثقافة الإنجليزيّة بالعمل ذاته فكانت " من أكبر القواعد للثقافة البريطانيّة في الشرق العربيّ؛ في عنايتها بالمفكرين الإنجليز، والثقافة الإنجليزيّة" (3). وعمل عملاء الثقافتين من المصريين على إنشاء مؤسسات مختلفة خدمة للثقافة التي حملوها؛ فالشاعر أحمد زكي أبو شادي عندما عاد من بريطانيا إلى مصر أنشأ هيئة باسم

(1) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص69.

(2) إدوارد سعيد، خارج المكان، ص233.

(3) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص66.

الاتحاد الإنجليزي المصري" لنشر الثقافة البريطانية في مصر، وما أسماه التفاهم والتقارب بين الشعبين، وكان يرى أن عمل الهيئة يساوي في قيمته جيشاً بأسره⁽¹⁾.

مقابل ذلك كان محمد علي باشا قد انفتح على الثقافة الفرنسية، فأرسل البعثات العلمية، واستقدم الأساتذة، وبعض العلماء لبثَّ عوامل النهضة في مصر، كما أنَّ الخديوي (الخديوي: لقب منحه السلطان العثماني لأسرة محمد علي باشا، ويعني نائب السلطان) إسماعيل أعطى امتيازات كبيرة للإرساليات التبشيرية الفرنسية في مصر؛ فأنشأت مدارس كثيرة لنشر الثقافة الفرنسية، واستخدم أنصار الثقافة الفرنسية صحف " حزب الأحرار" المصري لنشر ولائهم وثقافتهم الفرنسية.

ولما وقعت الحكومة البريطانية معاهدة سنة (1936/1354) مع الحكومة المصرية، شعرت فرنسا بخطر ذلك على الموالين لها؛ فاستدعت الأديب طه حسين وأنعمت عليه بأرقى نيشان، وعدد من الشهادات، وذلك حتى تجعل منه حامياً لثقافتها في مصر، وقد أطلقت عليه الصحف إذ ذاك سفير الثقافة الفرنسية في العالم العربي⁽²⁾. وقد ألف طه حسين كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" سنة (1938/1356)، وقد دعا فيه إلى ما كانت تدعو إليه فرنسا، وهو ثقافة البحر المتوسط، القائمة على ربط البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط بالثقافة الفرنسية بخاصة والأوروبية بعامة، ومن ذلك قوله: "إذا لم يكن بدّ من أن نلتئم أسرة للعقل المصري نُقره فيها، فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم [البحر المتوسط]، وقد كان العقل المصري أكبر العقول التي نشأت في هذه الرقعة من الأرض سناً، وأبلغها أثراً"⁽³⁾. ودعا إلى إقامة الدولة المصرية على أساس المنافع، لا على أساس الدين، واللغة، والتاريخ، والعرق، وبذلك تجاهل وجود الأمة العربية والإسلامية، قال: "ومن المُحَقَّق أنَّ تطوّر الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين، ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية، ولا قواماً لتكوين الدّول"⁽⁴⁾. ثم دعا إلى اعتبار مصر جزءاً من الغرب لا من الشرق، قال: "حتى يثبت لنا في وضوح وجلاء أنَّ من السّخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشّرق، واعتبار العقلية المصريّة عقلية شرقيّة كعقلية الهند والصين"⁽⁵⁾.

وقد انتقل الصراع الثقافي بين بريطانيا وفرنسا، وأنصار ثقافتهما إلى الأدب العربيّ، فعني كلّ منهم بترجمة الروايات، والقصص، والأشعار، والكتب عن اللغة

(1) انظر: أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص70.

(2) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص71.

(3) طه حسين، مستقبل الثقافة، ص22.

(4) المصدر نفسه، ص23.

(5) المصدر نفسه، ص24.

التي يتقنها، واتهم كلّ منهم الآخر بخدمة الدولة التي يواليها، وكانت دعوة الطرفين إلى اعتماد الأدب الوجداني، والإنساني تهدف إلى إبعاد الأدباء والشعراء العرب والمسلمين عن القيام بواجبهم تجاه شعوبهم في: استنهاض هممها، وحثّها على الصمود، والمطالبة بحريّتها، ثم تحريضها على الجهاد ضد الاستعمارين الفرنسيّ والبريطانيّ للعالم العربيّ، من أجل التحرّر والوحدة، كما فعل الأدباء والشعراء زمن حروب الفرنجة(الصليبيّة): "وهكذا امتدّ الصراع بين المدرستين طويلاً في مجال: الكتابة، والصحافة، والتربية والتعليم، والثقافة، بل إنّ الصراع بين الشعر الحديث والقديم كان يحمل طابع الخلاف بين المدرستين الفرنسيّة والإنجليزيّة... بل إنّ هذه المدرسة الحديثة المتصلة بالأدب الإنجليزيّ، قد اتهمت بأنّها حملت لواء الدّعوة إلى لون من الشعر يرتبط بالنفس الإنسانيّة، والطبيعة حتى تصرف الشعراء عن الوطنيّات التي تحمل طابع مقاومة الاستعمار البريطانيّ"⁽¹⁾. واتهم أنصار الأدب الفرنسي بالتهمة نفسها، عندما دعوا إلى الرومانسيّة والميوعة في الأدب: "فقد طبعت الأدب العربيّ في مطالع القرن باللون الرّخو الذي امتدّ إلى: القصة، والأغنية، والقصيدة. وكان قطعاً عاملاً عكسياً تجاه النهضة الوطنيّة الدّاعية إلى: الحريّة، ومقاومة الاستعمار، والاستبداد على هدى أدب القوة والتعبئة، والإيمان بالشخصيّة، وتحريرها من عوامل الضعف والوهن"⁽²⁾.

من الآثار السلبية للمدارس والصحف

تركت المدارس الإرساليّة والتبشيريّة المسيحيّة التابعة للطوائف كلّها أثراً سلبية على المجتمعات العربيّة في الدولة العثمانيّة، سواء أكانت "إسلاميّة أم مسيحيّة. وقد اعترف كثير من المسيحيين، والمسلمين ببعض تلك الآثار، ومن هؤلاء:

1. سليم بن يوسف قبعين (ت1950/1370)، وهو مسيحيّ فلسطينيّ، من مواليد مدينة الناصرة، وتعلّم في معهد المعلمين الروسي، وأتقن اللغة الروسيّة، وترجم عنها أشياء كثيرة للعربيّة. وقال عن المدارس التبشيريّة: "أساءت تركيا في عهد وجودها، إلى فلسطين بتصريحها للأجانب بإنشاء المدارس المختلفة المبادئ والنّزعات، التي كانت ترمي جميعها إلى: أغراض سياسيّة، وتمزيق رابطة الاتحاد بين أبناء الوطن الواحد"⁽³⁾.

(1) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص69-70.

(2) أنور الجندي، صفحات مجهولة، ص72.

(3) عادل مناع، أعلام فلسطين، ص322.

2. محمد كرد علي (ت1372/1953)، وهو مسلم سوري، من مواليد مدينة دمشق، رأى أنّ المدارس الطائفية، ومدارس المرسلين من الأمريكيين واليسوعيين وغيرهم كانت ذات مطامع في الأرض المقدسة (بلاد الشام)، فصبغت مدارسها بألوانها السياسية والدينية، وبذلك سرقت من الشام روحها يوماً بعد يوم⁽¹⁾، قال: "قد جعلت التربية متلوّنة، فأصبح كلّ متعلّم يخدم الغرض الذي أنشئت له مدرسته، وانقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلّم أقساماً، وتباعدت مسافة الخُلف بين أبناء البلد الواحد؛ لاختلاف المذاهب، بل للاختلاف في المذهب الواحد ممّا لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور"⁽²⁾.

وذكر محمد كرد علي أثر اختلاف منازع المدارس الأجنبية على المتعلّم العربيّ والمسلم، إذ نزعت وطنيته، وقوميّته، وجعلته لا عربياً ولا إفرنجياً، بل جعلته نصيراً للدولة التي تتبعها المدرسة التي تعلّم فيها، وبهذا حققت تلك المدارس ما كان يحلم به "نابليون بونابرت" في حملته على مصر. قال: "لو أردنا أن نعدّد أسماء الجمعيات الدينية التي تُعلّم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقلّ عن ثمانين إرسالية، ومنها ما ينزع من المتعلّم حبّ قوميّته وبلاده. وكم رأينا رجالاً ونساءً درسوا في تلك المدارس، فجاءوا لا عرباً ولا إفرنجاً؛ يتكلّمون في بيوتهم بغير لغتهم، ولا يشعرون شعور الشاميّ، بل ييغضون تقاليدهم وتاريخهم، ولذلك صحّ أن يُقال: إن تلك المدارس لم تنفع النفع المطلوب، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأنْ هيأت لها في هذه الديار أنصاراً"⁽³⁾.

3. نصري الجوزي (ت1416/1996) وهو مسيحيّ فلسطيني، من مواليد بيت المقدس، قال: "أخذت البعثات الأجنبية تغزو البلاد الشاميّة السّوريّة، وكانت تضمّ وقتئذ: لبنان، وسورية، وفلسطين، والأردن. وتوسّس فيها المدارس والأديرة، والكنائس حُبّاً في خدمة دولهم الاستعماريّة، التي ترغب في نهب ثروات البلاد، ومحافظة على الطرق التجارية إلى الشرق الأقصى"⁽⁴⁾.

4. أسّى طوبى (ت1403/1983)، وهي مسيحيّة فلسطينيّة، من مواليد مدينة الناصرة، قالت: "ومهما كانت البواعث على اندفاع هذه البعثات إلى بلادنا:

(1) انظر: محمد كرد علي، خطط الشام، 4/72-74.

(2) محمد كرد علي، خطط الشام، 2/72.

(3) انظر: محمد كرد علي، خطط الشام، 2/72-73.

(4) نصري الجوزي، تاريخ المسرح، ص5.

إن سياسية، وإن دينية تبشيرية... ومهما تألم أهل البلاد؛ لأنّ نشأهم يتطّبع في هذه المدارس بروح وأخلاق هما غير روحهم، وأخلاقهم، فإنّ الواقع يظنّ واقعاً، وهو أنّ الأهلين الظّامنين للعلم أقبلوا على هذه المدارس ينهلون من وردها"⁽¹⁾.

5. خليل بيدس (ت1949/1369)، وهو مسيحي فلسطيني، من مواليد مدينة الناصرة، وقد عمل معلّماً في المدارس الروسية الأرثوذكسية في كلّ من: حمص، وحيفا، والقدس، وبسكنتا، وسوق الغرب وغيرها، قال في جوابه سؤال نصري الجوزي عن طبيعة المناهج والتعليم في المدارس الروسية: "لا أكثّمك أنّ الرّوس قبل الثورة (البلشفية) كانوا مُتدينين جدّاً، وكانت مسرحيّاتهم كما تُسمّيها دينيّة بحتة، أو أخلاقية تُحثّ على الفضائل الإنسانية، وفق الرّؤية المسيحية"⁽²⁾.

6. خليل السكاكيني (ت1953/1373)، وهو مسيحي فلسطيني، من مواليد بيت المقدس، وقد عمل معلّماً، وموجّهاً تربوياً في القدس، وعندما رأى حقيقة الأهداف التي تسعى المدارس التبشيرية إلى تحقيقها، أسّس جمعية باسم "الجمعية التهذيبية" ثم أنشأ المدرسة الدستورية؛ لتسدّ حاجات أهل فلسطين. وقد أصدر بياناً في ذلك، جاء فيه: "لما كانت أكثر مدارسنا تبشيرية لا تنطبق على حاجات البلاد، ورغبات الأهالي، وكانت أجنبية مستقلة، لا نستطيع أن نتقاضاها، أو العدول عن خطتها، بل هي لو شاءت ذلك لانقطعت عنها الواردات؛ لأنّها قائمة من مال الإحسان إليها ... فلمّا كانت هذه حال مدارسنا، وكانت غاية الجمعية التهذيبية التي تأسّست يوم الأحد (4) تموز سنة (1909) الموافق [16 جمادى الآخرة 1327] العناية بالتهذيب بما يتهيأ لها من الأسباب، وما يتسبّى لها من الوسائل، وجّهت عزمها إلى تأسيس مدرسة تتلقّى حاجات البلاد، ورغبات الأهالي بقضائهم"⁽³⁾.

7. مارون عبّود (ت1962/1382)، وهو مسيحي لبناني، من مواليد قرية "عين كفّاع" قضاء جبيل. عندما تحدّث عن حملة نابليون، ذكر أن علاقة نصارى لبنان بفرنسا قديمة، وتمثّل دورهم في تأسيس الاستشراق من خلال تعليمهم اللغة العربية للغربيين، وفي خدمتهم الاستعمار الأوروبي من خلال العمل في الترجمة لدى جيوشه الغازية، قال: "فهذا الغريب الذي جاء مصرَ فاتحاً؟ لم

(1) أسمى طوبى، عبير ومجد، ص57.

(2) نصري الجوزي، تاريخ المسرح، ص9.

(3) نصري الجوزي، تاريخ المسرح، ص9.

يكن يجهله لبنان، بل عرف بلاده، وعرف لسانه حين كان يأخذ منه ويعطيه. تعلمنا لغته، وعلمناه لغة الضاد. وكراسينا الجامعية في عواصم الدنيا لا يجهلها التاريخ؛ لأنها ما زالت وطيدة القوائم. أجل كان اللبناني رسول ثقافة بين الشرق والغرب، فأنشأ في سفوح جبّله، وعلى قممه مدارس تُعلم لغات العرب على حقها، قبل أن صاح الديك الفرنسي، فقلبت ثورته وجه المعمورة. وكان الذين تعلموا في تلك المدارس تراجمة الأجنبي حين جاء مصر غازياً، ثم انكفأ عنها بعدما ألقى فيها بذور علمه ومدنيته⁽¹⁾.

8. عبد الله النديم (ت1896/1313)، وهو مسلم مصري، من مواليد الإسكندرية، قال عن تلاميذ المدرسة المارونية (اليسوعية) والمدارس التبشيرية بعامة، وعمّن يُثمنون دور حملة نابليون على مصر، ويحتفلون بذكرها: "إنهم الأجراء ... أعداء مصر والمصريين ... والمؤسسين للفتن ... والمترددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف ... فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين، واتخذتهم أوروبا أدوات لتنفيذ آرائها، ووصلوها إلى مقاصدها من الشرق. وهي تحثهم على المثابرة في عملهم باسم المدنية، وما هي إلّا التوحّش، والرّجوع إلى الحيوانية المحضة ... لقد نبئت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبي، فأنفعلت لها أرواحهم، فكلّما حوّلتها عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبلّة مُصلّاها، التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ"⁽²⁾.

لم يقتصر خطر المدارس اليسوعية والتبشيرية في لبنان على المارونيين، بل انتشر إلى الشام، فشمّل نصارى الطوائف الأخرى، وبعض المسلمين، ثم تجاوز الشام إلى مصر، ففي (العقد السابع من القرن الثالث عشر الهجري/ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي) هاجر عدد من خريجي هذه المدارس إلى مصر، وأصدروا بمساعدة: فرنسا، وبريطانيا، والفاتيكان، وأمريكا، صحفاً ومجلات عديدة، وأنشأوا دوراً لنشر الأدب والثقافة، تحوّل أغلبها إلى منابر للتغريب، والتشكيك في الإسلام، والدعوة إلى استخدام اللهجة العامية، وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، كما دعا بعضهم إلى القومية الفرعونية، أو السورية، أو الفنيقية بدلاً من العربية، وممن تبني ذلك:

1- أمين شميل (ت1897/1315)، وهو مسيحي لبناني، من مواليد كفر شيما قرب بيروت، وأول من دعا إلى استخدام العامية بدلاً من الفصحى.

(1) مارون عبّود، الرؤوس، ص286-287.

(2) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، ص26.

2- شبلې شميل (ت1917/1335)، وهو شقيق أمين، ودعا إلى الإلحاد عن طريق نشر فكر دارون، والفلسفة المادية، وعُرف بـ"دارون العرب".

3- فرح أنطون (ت1922/1340)، وهو مسيحي لبناني، من مواليد طرابلس، فسّر فلسفة ابن رشد تفسيراً مادياً، ودعا إلى ما سُمّي العلمانية.

4- يعقوب صروف (ت1927/1345)، وهو مسيحي لبناني، من مواليد الحدث قرب بيروت. وفارس نمر (ت1951/1370)، وهو مسيحي لبناني، من مواليد حاصبيا. وشاهين مكاريوس (ت1910/1328)، وهو مسيحي لبناني، من مواليد إبل السقي في مرجعيون، وهو من كبار رجال الماسونية، ودعاتها، وألف كتباً عديدة في الثناء عليها. وهؤلاء أصدرُوا مجلة المقتطف (1876/1293-1952/1371)، وبثوا من خلالها الإلحاد، كما أصدرُوا صحيفة المقطم (1889/1306-1952/1371) لتكون منبراً للاستعمار الإنجليزي في مصر.

وقد وصف عبد الله النديم مجلة المقتطف، ومُصنّديها بقوله: "أعداء الله، وأنبيائه، والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام مَنْ لا يدينون بدين، ممّن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية، والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكوّنات إلى المادة والطبيعية، مُنكرين وجود الإله الحقّ. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم "فصول علمية"، وما هي إلّا معاول يهدمون بها عموم الأديان"⁽¹⁾.

كما وصف صحيفة المقطم بقوله: "الجريدة الإنجليزية التي تصدر في مصر". ووصف أصحابها بقوله: "الأجراء ... الخونة ... عملاء الأجانب... الذين خانوا وطنهم وسلطانهم، وأهلهم، وخطانهم... وذلك عندما داروا حول أبواب الإنجليز ... وأصدروا جريدتهم لشقّ عصا الاجتماع الشرقي"⁽²⁾.

(1) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، ص26.

(2) محمد عمارة، السجل الأسود: مجلة المجتمع، ص26.

الفصل الثاني

المذاهب (المدارس) الأدبيّة العربيّة

أوّلًا - المذهب العربيّ الأصيل.

ثانيًا - المذهب الرومانيّ.

ثالثًا - مدرسة الديّوان.

رابعًا - جماعة أبوتو.

خامسًا - مدرسة المهجر.

الفصل الثاني

المذاهب (المدارس) الأدبية العربية

تقديم

دأب كثير من دارسي تاريخ الأدب العربي على وسم الأدب العربي في الحقبة الزمنية الممتدة ما بين سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، تحت نير الاحتلال المغولي سنة (656 / 1258) والاحتلال الفرنسي لمصر وبعض الشام ما بين (1212/1798-1801/1215) بأبشع الصفات التي تُنقَر الدارسين منه، وتجعلهم يعزفون عن مُجرّد التفكير في الحديث عنه، وأبسط تلك الصفات تتمثل في: عصر الانحدار، والجمود، وجفاف الفكر، وركاكة الأسلوب، وغلبة التكلف والصنعة عليه، والانغماس في ألوان البديع التي تُفقد المعاني قيمتها، والتلاعب بالألفاظ، والاقتصار على النظم في المناسبات، والإخوانيات، والابتعاد عن التعبير عن الذات والوجدان، وغيرها كثير، حتى ذهب بعض هؤلاء الدارسين إلى إخراج العصور: التركي والجركسي (المُسَمَّى بالملوكي)، والعثماني من ركب الحضارة الإنسانية.

وبذلك أسقط الأدب في هذه الحقبة من مناهج التعليم المدرسية، والجامعية في الكثرة الكاثرة من الدول العربية، ومن يُدرّسه لا يعطيه حقه، كما أن أكثر الباحثين عزفوا عن دراسة الأدب، وتحقيق مؤلفاته المخطوطة، بحيث أن ما تمّ نشره وتحقيقه لا يُعطي فكرة سليمة عن حياة الأدب العربي في تلك الحقبة.

ذلك كان بتأثير من المستشرقين، الذين تتلمذ على أيديهم أوائل الأساتذة العرب في الغرب أو في الوطن العربي، ثم انتقلوا ليعملوا في الوطن العربي، واستمرّ كثير منهم على صلاته مع أساتذته، فضلاً عن نشر أفكارهم، وكان هؤلاء المستشرقون يُدركون أهمية الدول: التركية، والجركسية (سمّاها المستشرقون وتلاميذهم ظلماً باسم المماليك)، والعثمانية، في المحافظة على الخلافة الإسلامية، وموحّدة وجامعة للمسلمين في مواجهة: الغرب المسيحي، وروسيا القيصرية المسيحية وغيرهم من أعداء الإسلام، الذين عملوا إسقاط الخلافة العثمانية الإسلامية، ومنذ ذلك التاريخ المشؤوم يوم الإثنين (27 رجب 1342 الموافق 1924/3/3)، يعيش المسلمون بكل أعراقهم، وألوانهم، ومذاهبهم ألواناً من الدلّ لا حصر لها؛ يُذيقهم إيّاها من أسقطوا الخلافة، ويعملون بكلّ الوسائل على منع عودتها بأيّ شكل؛ لأنهم يعلمون فوائدها للمسلمين، ومخاطرها على غيرهم.

على أية حال، يرى أغلب دارسي الأدب العربي الحديث أن الأدب العربي، والفكر العربي بدأ مرحلة جديدة عندما كثر التمازج بين العرب والغرب، وأن بداية هذا التمازج القوي كانت مع محاولة إمبراطور فرنسا "نابليون بونابرت" احتلال مصر والشام، تلك المحاولة التي استمرت حوالي ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع، وما تبعها من أحداث في مصر والشام، وباقي أجزاء الوطن العربي والإسلامي.

كان من أهم نتائج تمازج العرب مع الغرب، اطلاع العرب على آداب الغرب بعامة، والأدب الفرنسي، والإنجليزي، والأمريكي، والروسي خاصة، وما يقوم به المستشرقون النصارى، ومعاهد وكراسي الدراسات الشرقية، والعربية، والإسلامية، واللغات، والتاريخ، منفصلة، أو في الجامعات من دراسات للتراث الإسلامي بعامة، واللغة العربية، والأدب العربي خاصة، وتحقيق لأمات الكتب التراثية، ودواوين الشعراء.

هذا الاطلاع أدى إلى انبهار كثير ممن درسوا في أوروبا، أو اطلعوا على حياتها الثقافية، أو درسوا على المستشرقين، والمبشرين في الوطن العربي، فأصبحوا دعاة تغريب وعملاء للمبشرين، ناصبوا الإسلام، واللغة العربية العداء⁽¹⁾، فحاولوا إحداث تغيير في الحياة الثقافية، والفكرية، والأدبية في الوطن العربي، وهذا أدى إلى ظهور مذاهب، ومدارس في الأدب العربي عديدة، أهمها فيما يتعلق بالموضوع: المذهب العربي الأصيل، والمذهب الرومانسي، والديوان، وأبولو، ومدرسة المهجر (الرابطه القلمية، والعصبة الأندلسية). أما فيما يتعلق بالشكل، فأهمها: الشعر المطلق، وقصيدة النثر، والشعر الحرّ أو المنثور، وشعر التفعيلة، ثم ظهرت جمعيات أدبية عديدة، ثم مهرجانات الشعر، ثم اتحادات للأدباء والكتاب في الأقطار العربية، كل على حدة مع اختلاف في التسمية في بعض الأقطار، ثم ظهر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، الذي يكون مقره عاصمة القطر الذي ينتمي إليه أمينه العام

أولاً: المذهب العربي الأصيل

وهو المذهب الذي سار فيه الشعراء على خطى سلفهم في العصور الأدبية السابقة، مع مراعاة الفروق الفردية بين شاعر وآخر، وحاجات العصر الذي يعيشون فيه.

وقد سمى الدارسون السابقون هذا الاتجاه بأسماء عديدة منها: الإحياء، أو البعث، أو المحافظ، أو التقليد، أو الكلاسيكية والإتباعية. وهذه الأسماء كلها مأخوذ بالحرف عن الغرب، وما نشأ فيه من مذاهب أدبية، بالنظر إلى تطوره التاريخي،

(1) انظر: أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص 64-65.

والاجتماعي، والديني، والثقافي ومنه الأدب؛ فمن تعلم في الغرب أو على أساتذة الغرب في الشرق من العرب، قاس تاريخنا كله على تاريخ الغرب، بما فيه الأدب، فأخذ ينقل المصطلحات والمسميات ويلصقها على العصور الأدبية، مُغفلًا الفوارق الضخمة بين الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي في كل شيء؛ وذلك فيه اتهام للحقبة التي ألصقت بها هذه الأسماء، والحقب السابقة لها، وهذا يظهر من خلال توضيح مقصود كل اسم من تلك الأسماء؛ على النحو الآتي:

1. الإحياء

يبدأ الإحياء بالشاعر محمود سامي البارودي، ومن سار على خطاه من الشعراء العرب، مع وجود اختلاف في تحديدهم من قبل أغلب الدارسين في كل قطر من الأقطار العربية. والإحياء يعني أن الشعر العربي قبل البارودي كان ميتًا، لا حياة فيه، فجاء البارودي وبعث فيه الحياة من جديد من حيث المضمون والموضوعات.

2. البعث

أي أن البارودي بعث الحياة في الشعر العربي من جديد، بعد أن كان جامدًا، وراكدًا، لا بل ميتًا طوال الحقبة التي حكم فيها العثمانيون البلدان العربية.

3. المحافظ

أي أن البارودي حافظ على: بناء الشعر العربي، وأوزانه، وقوافيه، وصوره، وبلاغته، ولغته من أن تتأثر بالمذاهب القادمة من الغرب.

4. التقليد

أي أن البارودي سار على خطى شعراء العربية القدامى قبل المرحلة التي سمّوها مرحلة الانحدار، والانحطاط، والجمود، التي تبدأ سنة (1258/656)، ولم يأت فيما نظمه بشيء مما وفد على الأدب العربي من مذاهب الأدب الغربي، فهو قلّد شعراء العربية في كل شيء في عصر الازدهار.

5. الكلاسيكي أو الإتياعي

الكلاسيكي في اللغة مأخوذ من كلمة كلاسيك، المشتقة من الكلمة اللاتينية (كلا سوس). وهي تشير إلى الطبقة العليا من الشعب في روما، ولما كان الأدب وبخاصة الشعر يرتقي بأهله إلى منزلة رفيعة في المجتمع، هكذا كان عند العرب في

الجاهلية ولا يزال، كما هو عند باقي الأمم، فقد شبّه الأدياء بالطبقة العليا، فأطلق عليهم لفظة كلاسيكي. ثم صارت كلمة كلاسيكي تُطلق على ما يُقتدى به من أدب رفيع.

وفي الاصطلاح هو: مصطلح غربي، له مفهوم خاص في الأدب الأوروبي، وقد أطلقه الغرب على الأدب الذي ظهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/ السابع والثامن عشر الميلاديين؛ لأنه شكل تقليدًا للأدب الإغريقيّة واللاتينيّة القديمة، ومحافظة عليها، وإحياءً وبعثًا لها.

ويُلاحظ هنا أنّ هذه المصطلحات الخمسة هي لمسمى واحد هو الشعر الذي قاله البارودي وصحبه، وأنّه يُمكن جمع بعضها مع بعض، كما يُلاحظ أنّ هذا المذهب ارتبط بشخص الشاعر محمود البارودي: وقد ظهر ذلك في أقوال كثير من الدارسين؛ فمحمد خفاجي اعتبر البارودي: "نجمًا لامعًا، وكوكبًا ساطعًا؛ ليجدّد للشعر شبابه، ويحيي له دوارس عروبتّه"⁽¹⁾. ومحمد هدارة قال عنه: "أعاد إلى الشعر الأصل نبض الحياة من جديد فيما يُشبه الإحياء الحقيقي"⁽²⁾. وأنور الجندي قال عنه: "أول من حمل لواء تحرير الشعر، ونقله من مرحلة الرّكود التي مرّ بها خلال فترة طويلة تزيد عن أربعة قرون، وبذلك بدأت مرحلة جديدة للشعر العربيّ المعاصر: تُطلق عليها "مرحلة البعث والتقليد"، هذه المرحلة التي أنهت عصر الانحطاط"⁽³⁾. وعبد القادر القط قال عنه: "فشعره يكاد يُشبه في نسجه ومُعجمه، وبناء عباراته، وصوره، وأخيلته شعر الكبار من شعراء العصر العباسيّ، وشعر العذريين من شعراء الدّولة الأمويّة، ومع ذلك يتميّز بلمسات عصريّة تنمُّ عن انتمائه إلى العصر الحيث"⁽⁴⁾.

(1) محمد خفاجي، حركات الشعر، ص12.

(2) محمد هدارة، دراسات في الأدب، ص20.

(3) أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص9.

(4) عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر، ص25.

مبادئ المذهب العربيّ الأصيل

اعتبر أكثر دارسي الأدب العربيّ هذا المذهب حركة بعث وإحياء قام بها الشعراء: محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم وغيرهم - لأساليب الشعر العربيّ الأصيل الممتدّ ما بين العصر الجاهلي، والعصر العباسيّ حتى نهاية القرن الرابع الهجريّ، مع بعض التجاوزات لشعراء عاشوا في القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ، وأحياناً في القرنين السادس والسابع الهجريّين / الثاني والثالث عشر الميلاديّين، مثل: أبو العلاء المعريّ، أحمد بن عبد الله (ت1057/449)، وابن القيسرانيّ، محمد بن نصر (ت1153/548)، وأبو المظفر، عز الدين، أسامة بن منقذ (ت1188/584)، وبهاء الدّين زهير، زهير بن محمد (ت1258/656)، وغيرهم.

وأن هؤلاء الرّواد لم يثوروا على القديم، بل اتّصلوا به، فدرسوه، وحفظوه، واتّخذوه نموذجاً ينظمون على منواله، حتى بلغ إعجابهم به حدّ معارضته فيما أسموه المعارضات. وعليه فقد كان أتباع هذا المذهب يسировون وفق المبادئ الآتية:⁽¹⁾

- 1- المحافظة على أوزان البحور الشعريّة العربيّة، التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت791/175)، وتلميذه الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة (ت830/215). وهي ستة عشرة بحراً. والمحافظة على القافية.
- 2- استخدام أساليب الشعراء العرب في تلك الحقبة، واستيحاء أفكارهم، ومعانيهم، وأخيلتهم، وذلك عن طريق محاكاتهم ثم معارضتهم.
- 3- التّجديد في: الأساليب، والألفاظ، والصّور، والمعاني، والأخيلة بما يتناسب وسعيهم للتعبير عن أنفسهم، ومجتمعاتهم تعبيراً مؤثراً.
- 4- نظم الشعر القصصي، والمسرحي، والفلسفي. وذلك مُجاراة لمتطلبات العصر، فأحمد شوقي طوّع الشعر العربيّ للمسرح، ونظم أول مسرحياته وهي "علي بيك الكبير"، ثم أعاد كتابتها بعد ثلاثين سنة تقريباً بما يتلاءم

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التّجديد، ص8؛ دراسات في الأدب العربي، 39/1، 301؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص32؛ عز الدّين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص23؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص7؛ محمد هدارة، دراسات في الأدب الحديث، ص21؛ مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد، ص207؛ إبراهيم السعافين، مدرسة الإحياء، ص126؛ عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني، ص7؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص27.

والعصر، ثم تطوّر فنّه الشعريّ، ونظم مسرحيات عدّة، كما طوّع الشعر
للقصص التاريخيّ الحماسيّ، فنظم قصيدة "كبار الحوادث في وادي النيل"
سنة (1894/1311)، وجاءت في (264) بيتاً، أرّخ فيها المجد الإسلاميّ،
وجعل أبناء الأمة يروّون الحاضر السيء بمرآة الماضي المُشرق، عندما
استطاعت الأمة دحر الفرنجة (الصليبيين) وحملة نابليون. وقد ألقى أحمد
شوقي قصيدته في مؤتمر المستشرقين في جنيف مندوباً عن حكومة بلاده،
وأولّها: (1)

هَمَّتِ الْفُلُكُ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ	وَحَدَاها بِمَنْ تُقِلُّ الرِّجَاءُ
ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبابِ حِوَالِي	هَا سَمَاءٌ قَدْ أَكْبَرَهَا السَّمَاءُ
وَرَأَى الْمَارْقُونَ مِنْ شَرِّكَ الْأَر	ضَ شَبَاكًا تَمُدُّهَا الدَّمَاءُ
وَجِبَالاً مَوَائِجاً فِي جِبَالِ	تَتَدَجَّى كَأَنَّهَا الظُّلُمَاءُ
وَدَوِيّاً كَمَا تَأْهَبَّتِ الْخَي	لُ وَهَاجَتِ حُمَاتُهَا الْهَيْجَاءُ

ومنها

أَشْرَقَ النُّورُ فِي الْعَوَالِمِ لَمَّا	بَشَّرَتْهَا بِأَحْمَدَ الْأَنْبَاءُ
بِالْيَتِيمِ الْأُمِّيِّ وَالْبَشَرِ الْمَوْ	حَى إِلَيْهِ الْعُلُومُ وَالْأَسْمَاءُ

ومنها

أُمَّةٌ يَنْتَهِي النَّيَّانُ إِلَيْهَا	وَتَوَوَّلُ الْعُلُومُ وَالْعُلَمَاءُ
جَازَتْ النَّجْمَ وَإِطْمَأَنَّتْ بِأَفْقِ	مُطْمَئِنِّ بِهِ السَّانَا وَالسَّانَاءُ

ومنها في ذكر الحروب الفرنجية (الصليبيّة)

يَوْمَ سَارَ الصَّالِبُ وَالْحَامِلُوهُ	وَمَشَى الْعَرَبُ قَوْمُهُ وَالنِّسَاءُ
---	---

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 17/1-33. وانظر: أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص137؛
أحمد هيكّل، الأدب الحديث في مصر، ص283.

بُفُوسٌ تَجُولُ فِيهَا الْأَمَانِي وَقُلُوبٌ تَتَوَرُّ فِيهَا الدِّمَاءُ
يُضْمِرُونَ الدَّمَارَ لِلْحَقِّ وَالنَّاسِ وَسَوْدَيْنَ الَّذِينَ بِالْحَقِّ جَاؤُوا

ومنها في دحر الفرنجة (الصليبيين)

فَتَأَلَّقَتْهُمْ عَزَائِمُ صِدْقٍ نُصٍّ لِلدِّينِ بَيْنَهُنَّ خِيَاءُ
مَزَقَتْ جَمْعَهُمْ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ مِثْلَمَا مَزَقَ الظَّلَامُ الضِّيَاءُ

ومنها يفخر بالأمة

هَكَذَا الْمُسْلِمُونَ وَالْعَرَبُ الْخَالُونَ لَا مَا يَقُولُهُ الْأَعْدَاءُ
فَبِهِمْ فِي الزَّمَانِ نَلْنَا اللَّيَالِي وَبِهِمْ فِي الْوَرَى لَنَا الْأَنْبَاءُ
لَيْسَ لِلذَّلِّ حِيلَةٌ فِي نُفُوسٍ يَسْتَوِي الْمَوْتُ عِنْدَهَا وَالْبَقَاءُ

ومنها في حملة نابليون

قَاهِرُ الْعَصْرِ وَالْمَمَالِكِ نَائِلُ يُونُ وَكَتْ فَوَادُهُ الْكِبْرَاءُ
جَاءَ طَيْشًا وَرَاحَ طَيْشًا وَمِنْ قَبْلِ لُ أَطَاشَتْ أَنْسَاهَا الْعِلْيَاءُ
سَكَنَتْ عَنْهُ يَوْمَ عَيْرِهَا الْأَهْ رَأْمُ لَكِنْ سُكُوْثُهَا إِسْتِهْزَاءُ
فَهِيَ تُوْحِي إِلَيْهِ أَنْ تِلْكَ وَاتِرُ لَوْ فَأَيْنَ الْجِيُوشُ أَيْنَ الْإِلْوَاءُ

ثم نظم أرجوزة بعنوان "دول العرب وعظماء الإسلام"، ومنها: (1)

الحمْدُ لِلَّهِ الْقَدِيمِ الْبَاقِي ذِي الْعَرْشِ وَالسَّعْبِ الْعُلَا الطَّبَاقِ

(1) أحمد شوقي، دول العرب وعظماء الإسلام، ص5. والأرجوزة: هي كل قصيدة نُظِمت على بحر الرجز، حيث يجوز للشاعر تغيير قافية كل بيت فيها، لكنه يُعَوِّضُ عن ذلك بالتصريع في كل بيت. والتصريع هو: أن تكون قافية الشطر الأول (الصدر) هي نفسها قافية الشطر الثاني (العجز).

الملك المنفرد الجبار الدائم الجلال والإكبار
وارث كل مالِك وما ملِك ومهلك الحي ومُحيي مَنْ هلك
مُنزل الذِّكر بخير الألسن مُشتملاً على البيان الأحسن
أوحى إلى رسوله ما أوحى مِنْ كلِّ غرَاءٍ تضيء اللُّوحا
وقصَّ أبناء القرون في السُّور مَوائِلَ الحسن كأمثال الصُّور

5- نَظَّموا الشعر الوطني والاجتماعي، وفي قضايا العصر، والمخترعات الحديثة، مثل: الطائر، والسيارة، والغواصة وغيرها، كما نظموا في أمجاد الإسلام، والدعوة إلى النهضة والتقدم، ووصف مظاهر العمران.

6- اعتبر الشعر القديم النموذج الذي يجب دراسته وفهمه؛ ليكون قاعدة انطلاق نحو الحاضر والمستقبل؛ ولذلك أكثروا من مُعارضة قصائد مُختارة للشعراء العرب القدامى⁽¹⁾.

7- الاهتمام بتخيُّر ألفاظ شعرهم، ومعانيه، وقوافيه، مع الحرص على الوحدة الموضوعية، والتجربة الشعورية، والمواءمة بين الشعر والشعور، والفكر والعاطفة، والحقيقة والخيال. وقد أجمل محمد خفاجي خصائص هذا المذهب بقوله: "أساس هذه الكلاسيكية أسلوب ملتزم، ومعنى جديد، وأغراض نابعة من الحياة"⁽²⁾.

8- الدَّعوة إلى التجديد، والانعتاق من القيود الثقافية والأدبية، وقد جاءت هذه الدَّعوة بتأثير من الصراع الذي كان دائراً بين دُعاة التغريب أنفسهم، وقد

(1) المعارضة: فن شعري عربي قديم، أساسه أن يُعجب شاعر بقصيدة شاعر سابق أو معاصر له، فينظم قصيدة له على نسقها مع الالتزام بالموضوع، والبحر، والقافية، والمباراة في اللفظ، والصياغة، ويكون لدى المعارض شعور بأنه يملك القدرة على مُجاراته سلفه أو التفوق عليه. واختلف الدارسون في تحديد نشأة هذا الفن وأهميته، وفوائده. لكنه ظهر في العصر الجاهلي، ثم تطور في العصر الأموي، وشاع في القرن السادس الهجري، واستمر بين هدوء ونشاط حتى أكثر منه شعراء المذهب العربي الأصيل (الإحياء)، فنشط نشاطاً واضحاً. انظر: أحمد مطلوب، معجم النقد العربي، 305/2؛ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص254.

(2) محمد خفاجي، دراسات في الأدب العربي، 302/1.

ذكر هذه الدّعوة حافظ إبراهيم، وعرض بتقليد أساليب الشعراء القدماء، ودعا للتّغريب، لكنّه هو نفسه لم يسر في الطريق الذي دعا إليه، قال(1):

ضِيعَتْ بَيْنَ الثُّهَى وَبَيْنَ الْخَيَالِ	يَا حَكِيمَ النُّفُوسِ يَا ابْنَ الْمَعَالِي
ضِيعَتْ فِي الشَّرْقِ بَيْنَ قَوْمِ هُجُودٍ	لَمْ يُفَيْقُوا وَأُمَّةً مَكْسَالِ
قَدْ أَذَالُوكَ(2) بَيْنَ أَنْسٍ وَكَأْسٍ	وَعُغْرَامٍ بِظَبْيَةٍ أَوْ غَزَالِ
وَنَسِيْبٍ وَمِدْحَةٍ وَهَجَاءٍ	وَرِثَاءٍ وَقِتْنَةٍ وَضَلَالِ
وَحَمَاسٍ أَرَاهُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ	وَصَاغَارٍ يَجُرُّ ذَيْلَ اخْتِيَالِ
عِشْتَ مَا بَيْنَهُمْ مُذَالًا(3) مُضَاعًا	وَكَذَا كُنْتَ فِي الْعُصُورِ الْخَوَالِي
حَمَلُوكَ الْعَنَاءَ مِنْ حُبِّ لَيْلَى	وَسُلَيْمَى وَوَقْفَةَ الْأَطْلَالِ
وَبُكَاءٍ عَلَى عَزِيزٍ تَوَلَّى	وَرُسُومٍ رَاحَتْ بِهِنَّ اللَّيَالِي
وَإِذَا مَا سَمَوْا بِقُدْرِكَ يَوْمًا	أَسْكَنُوكَ الرِّحَالَ فَوْقَ الْجَمَالِ
أَنْ يَا شِعْرُ أَنْ نَفْكَ قِيُودًا	قِيَدَتْنَا بِهَا دُعَاةُ الْمُحَالِ
فَارْفَعُوا هَذِهِ الْكَمَائِمَ عَنَّا	وَدَعُونَا نَشْتُمُ رِيحَ الشَّمَالِ

الحقيقة أن دعوة حافظ إبراهيم هذه إلى فك القيود عن موضوعات الشعر، (أغراضه وفنونه)، هي دعوة جاءت بتأثير طارئ ممّا كان يدور حوله، ولكنّه هو نفسه لم يلتزم بها، كما أنّه لم يدعُ إلى الخروج على الوزن والقافية. وذلك يظهر من مُطالعة سريعة لموضوعات ديوانه، فهي لا تخرج عن الموضوعات التي سردها في قصيدته، وهي: المدائح، والتهاني، والأهاجي، والإخوانيات، والوصف، والخمريات، والغزل، والاجتماعيات، والسياسيات، والشكوى، والمراثي، وغيرها(4).

(1) حافظ إبراهيم، ديوانه، ص237-238.

(2) أذالوك: أهانوك، حقروك: اللسان، مادة ذل.

(3) مذال: مهان. اللسان: مادة ذك.

(4) حافظ إبراهيم، ديوانه، ص3 وما بعدها.

من أعلام المذهب العربي الأصل

على الرغم من أن أكثر دارسي الأدب العربي الحديث يحصرون أعلام المذهب العربي الأصل (البعث أو الإحياء وغيرهما من الأسماء) في عدد محدود من أسماء الشعراء، إلا أن الواقع يتجاوز أولئك إلى مئات الشعراء الذين عاشوا في المائتي سنة التي أعقبت احتلال نابليون لمصر؛ وقد اخترت الحديث عن علمين من أعلام هذا المذهب، لا أستطيع تجاوزهما؛ لكثرة الدارسين الذين ربطوا هذا المذهب بهما، ولشاعريتهما المتميزة، وهما:

1. محمود سامي بن حسن حسني البارودي. عاش ما بين (1838/1255 و1904/1322)⁽¹⁾

ولد محمود سامي البارودي في القاهرة، لأسرة جركسية تنتمي إلى الدولة التركية الجركسية، التي حكمت مصر ما بين (1382/784 و1517/923) والذين عُرفوا بالبرجية. ونسبته إلى بلدة (إيتاي البارود) في محافظة البحيرة، حيث كان أحد أجداده مُلتزماً⁽²⁾ لها.

وكان والده حسن حسني ضابطاً في الجيش العثماني بمصر، وترقى حتى أصبح أميراً للمدفعية، ثم عُيّن مديراً لمديرية دنقلة بالسودان، ولكنه توفي إلى رحمة ربه، وابنه محمود سامي ما زال في السابعة من عمره، فتولت أمه تربيته، التي أحضرت له المعلمين الخاصين؛ فتعلم: القرآن، والفقه، والعربية. وكان يسمع الشعر من خاله، فأحبه، وأخذ يقرأ ما تيسر له من: شعر، وأدب، وتاريخ في مكتبة العائلة.

وفي الحادية عشرة من عمره درس في المدرسة الحربية؛ فتخرج فيها ضابطاً كأبيه، كما أتقن اللغة التركية التي كانت لغة التدريس في المدرسة الحربية.

(1) انظر ترجمته في: محمد خفاجي، حركات الشعر، ص11؛ قصة الأدب، 98/5؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص19؛ عمر الدسوقي، الأدب الحديث، 126/1؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة، 159/2؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص83؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص35؛ مارون عبود، رواد النهضة، ص109.

(2) الملتزم: هو الشخص الذي يلتزم أمام الدولة بدفع المقرر من أعشار محاصيل مناطق محدد مقابل منحه حق تحصيل ذلك من رعاية تلك المناطق. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص215.

لم تنقطع صلة البارودي بالشعر العربي في المدرسة الحربية، لكنّها وجّهته إلى شعر الحماسة والفخر، فكان يقرأه في دواوين كبار شعراء العربية، ويحفظه، وينشده، فما لبث أن نبغ في الشعر، ولمّا يبلغ السادسة عشرة من عمره.

وقد ترقى محمود سامي البارودي في جيش الدولة العثمانية الإسلامية، وشارك في الجهاد ضد أعداء الدولة في حروب عديدة منها: الحرب مع روسيا القيصريّة، والبلقان (والبلقان كلمة تركية تعني الجبل)، وحرب جزيرة كريت، وحصل على رتبة لواء.

ثم عمل في الوظائف المدنيّة، فالتحق بوزارة الخارجية في إستانبول وفيها زادت معرفته بالتركيّة، واطلع على آدابها كما أتقن الفارسيّة، ولمّا زار الأستانة الخديوي إسماعيل اتّصل به البارودي، فأعجب به، وضمّه إلى حاشيته، فعاد معه إلى مصر، وأخذ يفخر بنفسه. وابتعثه الخديوي إسماعيل إلى فرنسا في مهمة عسكريّة، ثم إلى بريطانيا، فزادت خبرته العسكريّة، ورقاه الخديوي إسماعيل حتى حصل على قيادة الفيلق الرابع من الحرس الخاص. ولمّا تمرّدت جزيرة كريت أرسله الخديوي إسماعيل على رأس كتيبة للمشاركة في إعادة الهدوء والاستقرار للجزيرة، فأبلى بلاء حسناً، وفيها بدأ حنينه إلى مصر. ووصف الجزيرة، والمعارك التي خاضها، ومنحه السلطان العثماني وساماً رفيعاً، أما الخديوي، فجعله من خاصته، ثم أميناً لسره، فرافقه اثنتا عشرة سنة، عاش فيها حياة رغد وهناء، فتعنى بمصر، وطبيعتها، وآثارها.

ثم لمّا أعلنت روسيا القيصريّة والنمسا حربهما على الدولة العثمانية الإسلامية، قاد حملة عسكريّة للمشاركة في الدفاع عن حياض دولة الإسلام، فكافأه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بوسامين، ورتبة لواء لجهاده، وذلك على الرّغم من الهزيمة التي لحقت بالدولة العثمانية. وفي هذه الحرب ثار حنينه لمصر، ووصف الحرب التي خاضها في البلقان.

لمّا عاد إلى مصر بعد حرب البلقان انقطع للعمل المدني، فعُيّن مديراً للشرقية، ثم محافظاً للقاهرة، ثم عُيّن مديراً للأوقاف، ثم وزيراً للحربية، ثم رئيساً للوزراء، وعيّن هو أحمد عرابي وزيراً للحربية في الحكومة التي شكّلها، وازداد تدخل الإنجليز في شؤون مصر، حتى اجتاحتها الإسكندرية، فاضطر البارودي لتقديم استقالة وزارته، ونصح وزير حربيّته أحمد عرابي بعدم الثورة، لكنّه رفض فأيده البارودي خفية، فكان أن احتلت بريطانيا مصر، وقامت بنفي البارودي وأحمد عرابي وأعانتهما إلى جزيرة سرنديب (سيريلانكا اليوم).

كان للمنفى آثار واضحة في حياة البارودي، إذ قضى فيه سبعة عشر عاماً؛ منها سبعة أعوام في مدينة "كولومبو" مع زملائه، ثم رحل عن أغلبهم إلى مدينة "كندي"، فأمضى فيها بقية مدة النفي، وفي هذه الأعوام سيطر الحزن على البارودي، وزاد من حزنه بعده عن أصدقائه في "كولومبو"، حيث أصبح يشعر بالوحدة في "كندي"، ثم توالي الأخبار عليه بوفاة بعض أصدقائه في مصر، ثم بوفاة زوجته، وابنته، وابنه، فقال فيهم رثاء حاراً، صادق العاطفة، وحنّ إلى وطنه مصر، فصورها أحسن تصوير. وقد أمضى مدة نفيه في: القراءة، ونظم الشعر، وتعليم سكان جزيرة "سرنديب" اللغة العربية والدين الإسلامي، كما أنه تعلم اللغة الإنجليزية.

وفي أخريات حياته أصيب بمرض شديد؛ فنصح الأطباء بعودته إلى مصر سنة (1900/1317)، فلزم بيته، ونقح ديوانه، وأعدّه للطبع، كما رتب مختاراته الشعرية، التي هي قصائد لثلاثين شاعراً، بدأها ببشار بن برد (ت784/168)، وختمها بابن عني، محمد بن نصر الله (ت1233/630). وقد جعل بيته منتدى للأدب حتى توفاه الله سنة (1904/1322).

شاعريّة البارودي

مال محمود سامي البارودي إلى الشعر في صباه، فكان يحضر مجالس الأدب، ويسمع ما يُلقى فيها، ويقرأ على الأدباء، ثم اشتغل بقراءة دواوين كبار شعراء العربية. وصادف ذلك موهبة متدققة، مع بعض وراثة الشعر من أخواله، فنظم الشعر وهو فتى، ثم أصبح علماً من أعلام الشعر العربي، وقد أشار إلى وراثته الشعر بقوله في ذكر خاله إبراهيم الذي كان شاعراً: (1)

أناف في الشعر عريقٌ لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقالة

مفهومه للشعر

رأى محمود سامي البارودي أنّ الشعر ومضة تلمع في فكر الشاعر، فتسري إلى قلبه، فينطقها لسانه. أي أن الشعر لا يحتاج إلى إعمال فكر وصناعة، بل هو يفيض على صاحبه فيجري مع طبعه قال: "وبعد؛ فإنّ الشعرُ لمعةٌ خياليةٌ يتألف وميضها في سماوة الفكر، فتنبعثُ أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيضُ بلألأها نوراً

(1) محمود البارودي، الديوان، ص485.

يُتَّصَلُ خَيْطُهُ بِأَسْلَةِ [طَرْفِ] اللِّسَانِ، فَيَنْفُثُ بِأَلْوَانِ مِنَ الْحِكْمَةِ، يَنْبَلِجُ بِهَا الْحَالِكُ،
وَيَهْتَدِي بِدَلِيلِهَا السَّالِكُ" (1). وَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا: (2)

أَقُولُ بِطَبْعٍ لَسْتُ أَحْتَاجُ بَعْدَهُ	إِلَى الْمَنْهَلِ الْمَطْرُوقِ، وَالْمَنْهَجِ
وَلِي مِنْ جَنَانِي إِنْ عَزَمْتُ وَمَقُولِي	السَّوْعَرِ
إِذَا جَاشَ طَبْعِي فَاضَ بِالْدَّرِّ مَنْطَقِي	سَرَاجٌ وَعُضْبٌ ذَا يَضِيءُ وَذَا يَفْرِي
	وَلَا عَجَبَ فَالْدُرُّ يَنْشَأُ فِي الْبَحْرِ

ج

(1) محمود البارودي، الديوان: مقدّمته، ص33.

(2) محمود البارودي، الديوان، ص203.

صفات الشعر الجيد

بناء على فهمه للشعر، حدّد محمود سامي البارودي الشعر الجيد، بأنه الذي يتّصف بأربع صفات هي: (1)

- 1- الألفاظ القوية البعيدة عن البداوة (المعاصرة).
- 2- المعاني الظاهرة الواضحة البعيدة عن الغموض والإبهام.
- 3- البعد عن التكلف، وقرب الغرض.
- 4- سهولة الفهم.

وظيفة الشعر

حدّد محمود البارودي ثلاث وظائف للشعر هي: (2)

- 1- تهذيب النفوس والعقول.
 - 2- تدريب الأفهام على الأساليب السهلة المؤثرة، والمعاني الواضحة.
 - 3- تنبيه الخواطر والعقول إلى مكارم الأخلاق.
- وهو بذلك يبتعد عن الوظيفة التي دعا إليها أصحاب المذاهب التي أتت بعده، أولئك الذين اعتبروا وظيفة الشعر الأولى محصورة في التعبير عن ذواتهم بصدق، بعد خوضهم تجارب شعرية خاصة.

(1) انظر: محمود البارودي، الديوان: مقمّته، ص34.

(2) انظر: محمود البارودي، الديوان: مقمّته، ص33.

العوامل المؤثرة في شاعريته

أسهمت خمسة عوامل في تشكيل شاعرية محمود سامي البارودي، هي:

- 1- عرقه الجركسي، وأسرته الثرية، وجهاده، والوظائف السياسية التي شغلها، أكسبته حدة في المزاج، وطموحًا واسعًا، وميلًا كبيرًا لحياة الفروسية والحرب، وجعلته يفخر بنفسه ويصف المعارك التي خاضها وصفًا صادقًا.
- 2- ثقافته العربية الخاصة من خلال قراءاته الأدب والتاريخ، جعلت أسلوبه قويًا وواضحًا، مع استدعاء التراث العربي الإسلامي في شعره، كما دفعته لمعارضة كبار شعراء العربية.
- 3- قراءاته في اللغتين التركية والفارسية وآدابهما، ثم إتقانه الإنجليزية في منفاه.
- 4- زيارته بعض الدول الأوروبية، وإستانبول والسودان، ومنفاه فضلًا عن تجواله في ربوع مصر ما جعله يُدع في وصف الطبيعة.
- 5- سيطرة البيئة المصرية بما فيها من جمال، وأحداث سياسية على تفكير محمود سامي البارودي، وامتلاكها مشاعره، فأكثر من وصفها، والحنين إليها، وقد قال شعرًا في الحنين جاري فيه حنين ابن عنين لدمشق عندما نُفي عنها.

مميزات شعره

امتاز شعر محمود سامي البارودي بالمميزات الآتية:

- 1- وظّف أساليب الشعر العربي القديم في شعره؛ فامتاز شعره بالجزالة والرصانة، حتى قيل إنّ فيه قوة الجاهليين، وعذوبة الإسلاميين، ودقة العباسيين، ورقة الحضارة المصرية.
- 2- ملأ أشعاره بمعاني عصره وأفكاره، وروحه وشخصيته، فجاء شعره حيًا من خلال تصوير مجتمعه.
- 3- صوّر ما يعتلج في نفسه تصويرًا صادقًا، وبيئته، وعصره تصويرًا واقعيًا.

4- نظم محمود سامي البارودي في جميع أغراض الشعر العربيّ، وبرّز في وصف المعارك، والشكوى، والحنين إلى الوطن، والوصف، والفخر؛ لأنه في هذه الأغراض كان يصدر عن تجارب خاصة.

5- برع في معارضة ما أعجب به من قصائد شعراء العربيّة الكبار.

آثاره

ترك محمود سامي البارودي أثرين شعريين هما:

1- ديوان شعر كبير، طبع مرّات عديدة، منها طبعة دار العودة في بيروت بتحقيق، وضبط، وشرح علي الجارم، ومحمد شفيق معروف، سنة (1419 / 1998)، وقدم للديوان محمد حسين هيكل. وله مقطعات لم ترد في ديوانه، كما نظم قصيدة سمّاها "كشف الغمة في مدح سيّد الأمة" جاءت في (447) بيتاً، وهي في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم.

2- مختارات البارودي

وهو عبارة عن قصائد شعريّة اختارها البارودي لثلاثين شاعراً من شعراء العربيّة القدامى الكبار، وجعلها في سبعة أبواب هي: الأدب، والمديح، والرّثاء، والصفات، والنسيب، والهجاء، والزهد. وقد حققها مجموعة من الباحثين بإشراف ومراجعة محمد مصطفى هدار، ونشرتها الهيئة المصريّة العامة للكتاب بالاشتراك مع مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعريّ سنة (1413/1992-1415/1994).

نماذج من شعر الباروديّ

قال محمود سامي البارودي من قصيدة يصف فيها الحرب الروسيّة على الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة سنة (1293/1877):⁽¹⁾

أدورُ بعينِي لا أرى غيرَ أمّةٍ	مِنَ الرُّوسِ بالبلقانِ يُخطِئُهَا العَدُوّ
جواثٍ على هامِ الجبالِ لغارةٍ	يطيرُ بها ضوءُ الصّباحِ إذا يبدو
إذا نحنُ سرنا صرّحَ الشّرِّ باسمه	وصاحَ القنا بالموْتِ، واستَقْتَلَ الجنْدُ

(1) محمود البارودي، الديوان، ص 141.

قَائِتَ تَرَى بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَبَّةٌ	يُحَدِّثُ فِيهَا نَفْسُهُ الْبَطْلُ الْجَعْدُ
عَلَى الْأَرْضِ مِنْهَا بِالْدِّمَاءِ جَدَاوِلٌ	وَقَوْقَ سَرَاةِ النَّجْمِ مِنْ نَقْعِهَا لِبْدُ
إِذَا اسْتَبَكُّوا، أَوْ رَاجَعُوا الزَّحْفَ خِلَّتَهُمْ	بُحُورًا تَوَالِي بَيْنَهَا الْجَزْرُ وَالْمَدُ
نَشَلُهُمْ شَلَّ الْعَطَاشِ وَنَتَّ بِهَا	مُرَاغَمَةُ السُّقْيَا، وَمَاطَلَهَا الْوَرْدُ
فَهُمْ بَيْنَ مَقْتُولٍ طَرِيحٍ وَهَارِبٍ	طَلِيحٍ وَمَأْسُورٍ يَجَاذِبُهُ الْقُدُ

وقال ينصح لرجال ثورة أحمد عرابي بعدم المغامرة في حرب الإنجليز، وقد دُعي لمساعدتهم فيها: (1)

نصحتُ قومي وقلتُ الحرب مفاجئة	وربما تاح أمرٌ غير مَظنون
فخالفوني وشَبَّوْها مكابرةً	وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتِي الأمورُ على ما ليس في خلد	ويخطئُ الظنُّ في بعض الأحيان
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعةٌ	وأصبح الشرُّ أمرًا غير مكنون
أَجِبْتُ إذ هتفوا باسمي، ومن شيمي	صدق الولاء، وتحقيق الأظنانين

وقال من قصيدة وهو في "سرنديب" يحنّ إلى طنه مصر: (2)

أَيْنَ أَيَّامَ لَدَّتِي وَشَبَابِي	أُتْرَاهَا تَعُودُ بَعْدَ الدَّهَابِ؟
ذَاكَ عَهْدٌ مَضَى وَأَبْعَدُ شَيْءٍ	أَنْ يَرُدَّ الزَّمَانُ عَهْدَ التَّصَابِي
فَأَدِيرَا عَلَيَّ ذِكْرَاهُ، إِنِّي	مُنْدُ فَارَقْتُهُ شَدِيدُ الْمَصَابِي
كُلُّ شَيْءٍ يَسْلُوهُ ذُو اللَّبِّ إِلَّا	مَاضِيَ اللَّهْوِ فِي زَمَانِ الشَّبَابِ

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب في مصر، 120/5.

(2) محمود البارودي، الديوان، ص66.

ليت شعري متى أرى روضة المن	يل ذات التّخيل والأعقاب
حيث تجري السّفين مُستبقات	فوق نهر مثل اللّجين المُذاب
قد أحاطت بشاطئيه قصور	مُشرقات يُلحَن مثل القباب
ملعب تسرح النّواظر منه	بين أفنان جنة وشعاب
كلّما شافه النّسيم ثراه	عاد منه بنفحة كالمّلاب ⁽¹⁾
ذاك مرعى أنسي، وملعب لهوي	وجنى صَبُوتي، ومغنى صِحابي
لست أنساه ما حييت وحشا	أن تراني بعهد غير صابي
ليس يدعى حقّ الوداد ولا يد	كُرْ عهدًا إلّا كريم النّصاب
فلئن زال فاشتيافي إليه	مثل تولي باق على الأحقاب

2. أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي. عاش ما بين (1285/1868 و1932/1351)⁽²⁾

ولد في القاهرة لأسرة تمتد جذورها إلى خمسة أعراق مسلمة (العرب، والكرد، والترك، والشركس، واليونان)؛ فجده لأبيه الذي سمّاه باسمه "أحمد شوقي" كان كردياً ومتزوجاً من شركسية، وكان يتقن العربيّة والتركية، فترقى في الوظائف حتى أصبح أميناً للجمارك في عهد سعيد باشا. وجمع ثروة طائلة أتلّفها ابنه علي، وحفيده أحمد شوقي.

وجدّه لأمّه كان تركيّاً ومتزوجاً من يونانيّة، نشأت في قصر إبراهيم بن محمد بن علي باشا، وعمل في القصر الخديويّ، وترقى حتى أصبح وكيلًا للخديوي

(1) الملاب: نوع من الطيب. اللسان: مادة لب.

(2) انظر ترجمته في: يوسف داغر، مصادر الدراسة، 504/2؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص85؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص19؛ مارون عبود، الرؤوس، ص290؛ أحمد شوقي، الشوقيات: المقّمة، ص3-16؛ محمد صبري، الشوقيات المجهولة، 1/ 57-55؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص96.

إسماعيل. وكانت جدّته اليونانية إحدى وصيفات القصر، تحنو عليه وتحبّه، فكفلته وهو صغير، وأخذته وهو في الثالثة من عمره إلى الخديوي إسماعيل، فشكت له أنّ حفيدها دائم النظر إلى السماء لاختلال أعصابه، فنثر الخديوي الذهب عند قدمي الطفل أحمد شوقي، ف وقعت عيناه على الذهب، وانشغل بجمعه، واللعب به، فطلب الخديوي من جدّته فعل ذلك معه، فيعتاد النظر إلى الأرض، فقالت: "هذا دواء لا يَخْرُج إلّا من صيدليتك، يا مولاي. فقال: جيئي به إليّ متى شئت، إني آخر مَنْ يَنْثُر الذهب في مصر!".

وبذلك كان أحمد شوقي شديد الولاء للخديوي إسماعيل، حتى قال يستعظم خيائته وأبنائه:

أ أَخُون إسماعيل في أبنائه ولقد وُلدتُ بباب إسماعيلاً

التحق أحمد شوقي وهو في الرابعة من عُمره بكتاب الشيخ صالح، ثم انتقل إلى المدرسة، وفيها تعلّم على الشيخ حسين المرصفي، فدرس كتابه "الوسيلة الأدبية"⁽¹⁾، ولما ظهرت عليه أمارات الشعر، أرشده إلى دواوين عدد من شعراء العربية القدامى، فنظم الشعر في المواد الدراسية التي كان يتعلّمها، وتخرّج فيها سنة (1885/1303).

بعد المرحلة المدرسيّة درس أحمد شوقي في مدرسة الحقوق والترجمة، وفيها تعلّم على أستاذه الشاعر محمد البسيوني، الذي شجّعه على نظم الشعر، وأخذاً ينشران مدائحهما في الخديوي إسماعيل في جريدة "الوقائع المصرية" وغيرها،

(1) المرصفي هو: حسين بن أحمد المرصفي (ت1889/1307)، ولد في مرصفا بمحافظة القليوبية، التي تبعد عن القاهرة (49 كم)، حفظ القرآن في قريته، ثم التحق بالأزهر، وبعد تخرّجه عمل مدرّسا، وقد ظهرت عليه اتجاهاته الأدبية، فاهتم بالأدب أكثر من غيره، وبدأ يحاضر مع الشيخ علي باشا مبارك (ت1893/1311) في دار العلوم التي تحوّلت سنة (1872/1289) إلى مدرسة دار العلوم العليا، فأصبح أول أستاذ للأدب العربي ونقده فيها، وعضواً في المجلس الأعلى للتعليم المصري، وأتقن الفرنسية، وترجم عنها حكايات للأديب الفرنسي "جان دو لافونتين". الوسيلة هو: كتاب "الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية"، ضمّنه مباحث في علوم العربية السبعة (البلاغة) (البيان، والمعاني، والبديع)، والنحو، والصرف، و علم العروض، و علم القافية)، وفنون الأدب؛ الشعر والنثر، وتاريخ العلوم، وتاريخ التربية، وطرائف أدبية. وقد نال شهرة واسعة؛ لأنه ألقاه على طلبة دار العلوم (جامعة القاهرة اليوم)، ونشره فصولا متتابعة في مجلة "روضة المدارس"، وقد تتلمذ على كتاب "الوسيلة الأدبية" عدد كبير من أدباء مصر والوطن العربي. انظر: حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية، 26-11/1؛ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة، 239/4؛ الزركلي، الأعلام، 232/2؛ محمد خفاجي، قصة الأدب في مصر، 52/3.

وكان شوقي يُدقق قصائد أستاذه، ويُحرّرها، فيبدو الأستاذ مسروراً بتلميذه، وفي مدرسة الحقوق أتقن الفرنسية، فصار يُتقن ثلاث لغات؛ العربية (لغته الأم)، والتركية أتقنها في القصر، والفرنسية. وتخرّج سنة (1887/1305).

ابتعثه الخديوي إلى فرنسا، فدرس الحقوق سنتين في مدينة "مونبيلية"، ثم مثلها في باريس، وفي مدة مكوثه في فرنسا تجوّل في كثير من مدنها، وسافر إلى لندن، والجزائر، واطّلع على الأدب الفرنسي، فقرأ لكبار الشعراء والكتاب حتى ترجم إلى العربية بعض أدب الأديب الفرنسي "ألفريد ديموسيه" ونشره بعنوان "اعترافات فتى العصر"، كما اطّلع على المسرح، فأعجب به، وألف في باريس أول مسرحياته، وهي بعنوان "علي بيك الكبير".

في عام (1892/1310) عاد إلى القاهرة، ليبدأ حياته العملية، فعمل في القسم الإفرنجي في قصر الخديوي، فأصبح ناطقاً باسمه، ومنحه لقب "شاعر الأمير"، ثم تزوّج فتاة ثرية صالحة لم يكن لها إلّا حياة المنزل. ورزق ثلاثة أبناء هم: علي، وحسين، وأمينة. وحوّل بيته إلى ندوة أدبية باسم "كرمة ابن هاني"⁽¹⁾ حيث كان يجتمع إليه أدباء مصر وشعرائها. وانتدبه الخديوي سنة (1898/1398) لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين بجنيف، فمكث فيها شهراً، وفي طريق عودته إلى القاهرة زار بلجيكا وإستانبول وغيرهما.

في هذه الحقبة كان أحمد شوقي شاعر القصر في كلّ شيء؛ ينصره ظالماً، ومظلوماً بالمعنى السلبي، ودليل ذلك موقفه من "اللورد كرومر"، وأحمد عرابي؛ فعندما اختلف الخديوي إسماعيل مع "كرومر"، قام "كرومر" خطيباً لساعات في حفل وداع أقامه الإنجليز له في القاهرة، فشتم مصر والمصريين، وادّعى تنكّره لمّا قدّمته لهم بريطانيا المحتلة، ولشدة غيظه قيل: إنه شرب خمسة أباريق ماء مثلّجة، فثار عليه أحمد شوقي غضباً للخديوي وهجاه. وكذلك فعل مع أحمد عرابي عند عودته من منفاه⁽²⁾، فقد هجاه بقوله:⁽¹⁾

(1) كرمة ابن هاني هو: منزل أحمد شوقي، سمّاه بذلك على اسم الشاعر العباسي الحسن بن هاني، أبي نواس (ت 813/199)، كانت في البداية في حي المطرية، ثم لمّا عاد إلى القاهرة من منفاه بالأندلس سنة (1920/1339) نقلها إلى الجيزة على ضفة النيل، وكان يلتقي فيه أدباء مصر ومتفقيها. وفي سنة (1973/1393) حوّلتها الحكومة المصرية إلى متحف باسم "متحف أحمد شوقي". انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص 8؛ الزركلي، الأعلام، 1/136.

(2) اللورد كرومر هو: إفلين بيرنج كرومر (الذي منح لقب إيرل)، (ت 1917/1336) أول حاكم عسكري بريطاني في مصر بعد احتلالها، وحكم فيها حتى استقالته (1907/1325)، وكان يعمل على تغريب العرب والمسلمين، وتمزيق وحدتهم، وقد وضع خطته لذلك في كتابه "مصر

صَغَارَ فِي الدَّهَابِ وَفِي الْإِيَابِ أَهَذَا كُلُّ شَأْنِكَ يَا عَرَابِي
عَفَا عَنْكَ الْأَبَاعِدُ وَالْأَدَانِي فَمَنْ يَعْفُو عَنِ الْوِطَنِ الْمَصَابِ

وَقَالَ يَهْجُو كُرومر: (2)

أَيَا مُكَمِّمَ أَمِ عَهْدُ إِسْمَاعِيلَا أَمِ أَنْتَ فِرْعَوْنُ يَسُوسُ النَّيْلَا
أَمِ حَاكِمَ فِي أَرْضِ مِصْرَ بِأَمْرِهِ لَا سَائِلَا أَبَدًا وَلَا مَسْؤُولَا
لَمَّا رَحَلْتَ عَنِ الْبِلَادِ تَشْهَدُ فَكَأَنَّكَ الذَّاءُ الْعِيَاءُ رَحِيلَا
أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوُدَاعِ إِهَانَةً أَدَبٌ لِعَمْرِكَ لَا يُصِيبُ مَثِيلَا

وختمها بتنزيه النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من افتراءات كرومر،
فقال:

مَنْ سَبَّ دِينَ مُحَمَّدٍ فَمُحَمَّدٌ مَتَمَكَّنٌ عِنْدَ إِلَهِ رَسُولَا

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة (1914/1333)، أعلنت بريطانيا فرض الحماية على مصر، ومنعت الخديوي توفيق، الذي كان في تركيا من دخول مصر، وعيّنوا مكانه حسين كامل، فاضطرب أحمد شوقي، ونظم قصيدة لامية حاول فيها إرضاء حسين كامل، والإنجليز، والخديوي معاً، فلم ينجح، وأقدم الإنجليز على نفيه إلى الأندلس.

الحديثة" الذي ضمنه رأيه في تدمير القيم الإسلامية عن طريق التعليم، ودعا إلى ترك اللغة العربية وإبعاد المسلمين عن دينهم. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، م1942/3.

وعرابي هو: أحمد عرابي بن محمد عرابي (ت1911/1330)، ترقى في الجيش حتى عين وزيراً للجهاد (الحربية) في الحكومة التي شكلها الشاعر محمود سامي البارودي، ولما احتل الإنجليز الإسكندرية رفض شروطهم وقرّر الجهاد، وتمكن الإنجليز من احتلال مصر، فكان ممن نفي إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا اليوم)، وأعيد إلى القاهرة بعد نفيه عشرين عاماً بسبب مرضه فمات في وطنه. انظر: الزركلي، الأعلام، 1/168.

(1) محمد صبري، الشوقيات المجهولة، ص257.

(2) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/173.

مكث أحمد شوقي في الأندلس ست سنوات، فقد نزل مدينة "برشلونة" عاصمة إقليم "كتالونيا" شمال شرق إسبانيا، ومنها طاف الأندلس، فزادت آثار حضارة الإسلام وتاريخهم، حزنه وحنينه إلى وطنه وأهله. وكان كلما زار أثرًا يتمثل أحيانًا من سينية البحري في وصف إيوان كسرى، ما دفعه إلى معارضتها.

ولمّا قرأ تاريخ المسلمين، وأدبهم في الأندلس أعجب بابن زيدون، أحمد بن عبد الله (ت1079/463)، فعارض نونيته التي تغزل فيها بولادة بنت المستكفي (ت1091/484) الأدبية الأندلسية، ذائعة الصيت، لكنه عارضها بقصيدة في الحنين إلى مصر. وفي المنفى سيطر الحزن على أحمد شوقي، وصهرته الآلام، فغيّرت تفكيره الذي كان في القصر، وظل يترقب عودته إلى وطنه بشوق وألم.

عاد أحمد شوقي إلى مصر سنة (1920/1339)، فاستقبله أهلها في الإسكندرية بحفاوة، فنظم بائية جميلة بعنوان "بعد المنفى"، مطلعها⁽¹⁾:

أنادي الرّسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدّ معي لو أثابا

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 64-68.

ومنها يُشيدُ بالأندلس التي أوتته مدّة ستّ سنوات، يقول:

وداعًا أرض أندلس وهذا ثنائي إن رضيت به ثوابا
وما أثنيت إلا بعد علم وكم من جاهلٍ أثنى فعابا
تخذتك مؤنلا فحالتُ أندى ذرى من وائل وأعزُّ غابا

ومنها يحيي مصر وأهلها، يقول:

ويا وطني لقيتُك بعد يأس كأيّ قد لقيتُ بك الشّابا
وكلّ مسافر سيؤوبُ يومًا إذا رزق السّلامة والإيابا
ولو أنّي دُعيْتُ لكنتُ ديني عليه أقابلُ الحثمَ المُحَابا

ومنها يفخر بأهل مصر الذين رفعوه على أكتفهم، يقول:

وحيا الله فتيانًا سِماحًا كَسَوا عِطْفِيّ من فخر ثيابا
ملائكة إذا حقّوك يومًا أحبّك كلُّ من تلقى وهابا
وإن حمّلتك أيديهم بحورا بلغت على أكتفهم السّحابا
تلقوني بكلّ أغرّ زاهٍ كأنّ على أسرّته شهابا
ترى الإيمان مؤتلقا عليه ونور العلم والكرم اللّبابا

فكانت هذه القصيدة-سأوردها كاملة في نماذج من شعره-فاتحة تحوّل شوقي الأهم، إذ أصبح شعبياً وطنياً، يُفكر بشعبه وآلامه، ودحر الاحتلال عن وطنه؛ فلما مات سعد زغلول سنة (1927/1346) رثاه بقصيدة بليغة، ثم أحسّ بالعرب، والمسلمين، والأهم-مع ملاحظة أنه لم ينظم شيئاً في وعد بلفور المشؤوم، ولا القضية الفلسطينية، وذلك على الرّغم من دعوة الشّاعر إبراهيم طوقان له للتّظم

في ذلك-ونظم قصيدة قافية رثى فيها دمشق، لما قصفها الجيش الفرنسيّ، وألحق بها دماراً هائلاً، ثم احتلها، وقد أنشدتها في حفل أقيم في حديقة الأزبكية، وقد

خُصَّصَ ريعه لإعانة منكوبي دمشق، وذلك في شهر (جمادى الآخرة 1344 / كانون الثاني 1926)، ومطلعها: (1)

سلامٌ من صَبا بَردي أرقُ ودمعٌ لا يُكفِّفُ يا دمشقُ

وفي السنة نفسها أقيمت حفلة تتويجه أميرًا للشعر العربيّ، فحضر شعراء من أغلب الأقطار العربية، وبايعوه بإمرة الشعر العربيّ، وكان أول مَنْ بايعه صديقه الشاعر حافظ إبراهيم، فقال قصيدة عصماء، مطلعها: (2)

بلا بل وادي النيل بالشرق أسجعي بشعر أمير الدولتين ورجعي

ومنها يُبايع شوقي بإمرة الشعر:

أميرَ القوافي قد أتيت مُبايعًا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وقد شكر أحمد شوقي شعراء العرب، وحيّاهم بقصيدة منها: (3)

قد قضى الله أن يؤلفنا الجر حُ وأن نلتقي على أشجانه
كُلّما أن بالعراق جريحٌ لمسَ الشرق جنبه في عُمانه
وعليّنا كما عليكم حديدٌ تننزيّ الليوث في قضبانه
نحنُ في الجرح بالديار سواءً كلنا مُشفقٌ على أوطانه

شاعريته

قرض أحمد شوقي الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره، وهو يتتلمذ على الشيخ حسين المرصفيّ، عندما كان يقرأ عليه "الكشكول" لبهاء الدّين العامليّ (4)، ثم

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/ 74-77.

(2) حافظ إبراهيم، ديوانه، ص 119 - 130.

(3) أحمد شوقي، الشوقيات، 2/ 193.

(4) بهاء الدّين العامليّ هو: محمد بن حسين الحارثي، عاش ما بين (1546/953 و 1622/1031)، ولد في بعلبك بلبنان، وتعلم على كبار علماء عصره، كان شاعرًا وأديبًا، كثير السياحة، خدم سلطان

أرشده إلى قراءة دواوين شعر: أبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي وغيرهم، فنظم شعراً جميلاً في المواد التي كان يتعلمها. وفي مدرسة الحقوق مدح الخديوي إسماعيل، ونشر مدائحه ومدائح أستاذه محمد البسيوني في جريدة "الوقائع المصرية"، ثم درس الفرنسية، وأدب أدبائها في باريس وغيرها من المدن الفرنسية. وقد ظهر نبوغه الشعري في قصر الخديوي، ثم صقله بثقافته الواسعة حتى نال إمارة الشعر قبيل وفاته بخمس سنوات. وقد أثرت في شاعريّة أحمد شوقي ستة عوامل، هي:

- 1- نسبه الذي امتزجت به خمسة أعراق.
- 2- تقلّب حياته، وتطوّرها تطوّرًا غير معهود، فانتقل من حياة القصر ورغد العيش إلى المنفى، ومفارقة الأهل، فسيطر عليه الحزن، ثم عودته إلى أحضان شعبه، الذي لم يكن يُخالطه.
- 3- ثقافته العربيّة والإسلاميّة الواسعة.
- 4- ثقافته الفرنسيّة، والتركيّة.
- 5- سياحاته الكثيرة في أوروبا، وتركيا، ومصر.
- 6- الحوادث العظمى التي عاشها، وأثرت عليه تأثيرًا عميقًا، نفسيًا، وفكريًا، وثقافيًا، فمن احتلال الإنجليز مصر، ونهب ثرواتها، وإفساد أخلاقها، والقذح بدينها، وتزوير مناهج التعليم فيها، إلى الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى نفيه، فحوّلته من حياة القصور إلى حياة العامة، ثم انتهاء الخلافة العثمانية الإسلامية، التي كان يُفاخر بها، ففارق ضياع الأندلس، واندثار حكم الإسلام فيها بما يحدث في عصره أمام ناظريه، ثمّ إلى الكفاح الوطني ضد الاستعمار البريطانيّ عند عودته من المنفى، ثم عاصر الصراع الفكريّ والأدبيّ الذي شهدته الولايات العربيّة المُقطّعة عن دولة الخلافة

العجم عباس شاه، فقرّبه، لكنه لم يكن على مذهبه في الإلحاد والزندقة. وقد كان شيعيًا مُغالّيًا في تشيعة. انظر ترجمته في: العاملي، الكشكول: المقدمة، 43-4/1؛ شهاب الدّين الخفاجي، ربحانة الألباء، 270/1؛ المحبّي، خلاصة الأثر، 40/3؛ ابن معصوم، سلافة العصر، 289/1، الزركلي، الأعلام، 102/6.

الكشكول هو: أحد مؤلفات بهاء الدّين العاملي، وهو موسوعة معرفيّة، حيث ضمّنه العاملي ما راقه من علوم وفنون من دون ترتيب، على طريقة الدرويش (الصوفي) حيث يجمع في كشكوله ما تيسر له من الطعام، وقد شاع هذا الاسم من بعدهن فاستخدمه كثير من المؤلّفين. انظر: العاملي، الكشكول: المقدمة، 42/1.

العثمانية الإسلامية الجامعة للأمة، كما تنازعها أفكار دعاة التغريب في الأدب، وباقي مجالات الحياة، والمحافظة على التراث، والعادات والتقاليد، مع الأخذ بأساليب الحياة الجديدة، إلى نزعات قومية إقليمية ضيقة كالفرعونية، والفنيقية، والأمازيغية وغيرها.

مفهومه للشعر

رأى شوقي أنّ الشعر هو: وحي يهبط على نفوس الشعراء، وأنّ اختلافهم في معاني النظم وأساليبه ناتج عن تمايز نفوسهم في إحساسهم بالوحي الهابط عليها، ونزعاتهم تجاهه. وليس هناك شاعر قديم وآخر جديد؛ لأنّه طالما أنّ الشاعر يروي في كلّ عصر، فهو ابن الماضي والحاضر والمستقبل. قال: "الشعر فكر وأسلوب، وخيال لعوب، وروح موهوب"⁽¹⁾. ورأى أنّ الحكمة ثورث الشاعر الشهرة. قال: "مثلُ الشاعر لم يُرزق الحكمة كالْمَغْنِي: صناعة ولا صوت"⁽²⁾.

وكاد أحمد شوقي يُلحق السّجع بالشعر، قال: "السّجع شعر العربيّ الثاني، وقوافٍ مرنة ريّضة خصّت بها الفصحى، يستريح إليها الشاعر المطبوع، ويُرسل فيها الكتاب المتفنّن خياله، ويسلو بها أحياناً- عمّا فاتته من القدرة على صياغة الشعر، وكلّ موضع للشعر الرّصين محلّ للسّجع، وكلّ قرار لموسيقاه، قرار كذلك للسّجع، فإنّما يوضع السّجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرّصين من: حكمة تُخترع، أو مثل يُضرب، أو وصف يُساق.

وقد ظلم العربيّة رجالٌ قَبّحوا السّجع، وعدّوه عيباً فيها، وخطّوا الجميل المتفرد بالقبّيح المردول منه؛ يُوضع عنواناً لكتاب، أو دلالة على باب، أو حشواً في رسائل السياسة، أو ثرثرة في المقالات العلميّة، فيا نشأ العربيّة، إنّ لغتكم لسريّة مثريّة، ولن يُضيرها عائب ينكرُ حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم، ولا سجع الحمام في الحديث الشريف، ولا كلّ مأثور خالد من كلام السلف الصالح"⁽³⁾.

موقفه من الدعوة إلى الأدب المصريّ

سادت في بداية الثّلاث الأول من القرن الرابع عشر الهجري / بداية القرن العشرين الميلاديّ لدى عدد من أدباء مصر، وبخاصّة القبط منهم، وتلاميذ المستشرقين الدّعوة إلى تأسيس ما يسمى بالأدب المصريّ، حتى ظهرت دراسات

(1) أحمد شوقي، خواطر: أسواق الذهب، ص119.

(2) أحمد شوقي، أسواق الذهب، ص128.

(3) أحمد شوقي، السّجع: أسواق الذهب، ص109.

عن الأدب العربيّ، الذي نشأ في مصر في الحقب التاريخيّة العربيّة الإسلاميّة المتعاقبة بعنوانين تُشير إلى إقليمية ضيقة، تماماً كما ظهر مَنْ يدعون إلى الفرعونيّة. وقد رفض أحمد شوقي هذا الاتجاه، ودعا إلى الأدب العربيّ الخالص من الإقليميّة أو الإثنيّة الأصليّة (المقصود الشعب الذي يقع تحت احتلال استيطانيّ، فيتحول إلى أقلّيّة بسبب التهجير كما حدث للشعب الفلسطينيّ)، قال: "وأولئك الذين يطلبون أدباً مصريّاً غير شائع في العالم العربيّ، ولا يستوحون الأدب العربيّ القديم، إمّا أن يخلقوا لمصر لغة أخرى يُسخّرونها، يعبثون بها كما يشاؤون، وإمّا أن يستوحوا للأدب المصريّ المزعم لغة من لغات الغرب، ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلّا علماً مُزيّفاً على مُسمّى لا فضل لهم فيه إلّا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بلسان غير لساننا"⁽¹⁾.

ورفض أنور الجندي ادّعاء هؤلاء بوجود مثل هذا في التاريخ العربيّ الإسلاميّ حيث يُقال الأدب الأندلسيّ، والأدب في بغداد وغيرهما، فقال: "إنّ الأدب المصريّ، والأدب البغداديّ، والأدب الأندلسيّ ليست كلّها إلّا نعتاً لزمان الشاعر العربيّ، أو مكانه، يحذّها الوحي العربيّ كلّها، ولا يختلف بعضها عن بعض إلّا في ظروف العصر والمكان"⁽²⁾.

صفات شعره

امتاز شعر أحمد شوقي بمميزات عديدة، أهمها:

- 1- جمع شعره بين المعاني القديمة والحديثة.
- 2- حاكى أساليب الشعراء القدامى، فعارضهم كثيراً، وأنشأ لنفسه أسلوباً سهلاً عبّر فيه عن نفسه، وعصره بما فيه من معانٍ، وأفكار جديدة، فهو جمع بين أسلوبين؛ قديم للمعارضات، وجديد لحاجات العصر وقضاياها، أي كان أسلوبه جزل الألفاظ، ومتين الصياغة.
- 3- التزم بالشعر الموزون المُقفى مع اختيار الأوزان الصافية، فجاء شعره أطوع للحناء والنشيد من شعر محمود سامي البارودي، وحافظ إبراهيم.
- 4- اعتمد في شعره على التصوير؛ فاستخدم التشبيه والاستعارة بأنواعهما؛ لتوضيح المعاني.

(1) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.

(2) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.

5- صَدَرَ أَغْلِبَ شعره عن عاطفة صادقة، وإحساس مرهف، وخيال حالم واسع.

6- نظم أحمد شوقي في جميع أغراض الشعر العربي القديم، ثم نظم في بعض الأغراض الحديثة، كالمسرحيات، وقصص الأطفال.

موضوعات الشعر عند أحمد شوقي

رأى أحمد شوقي أَنَّ للشَّاعر أن ينظم في كلِّ غرض من أغراض القول؛ لأنَّ مجاله الكون كله، قال: "وأعلنُ أَنَّ للشَّاعر ميدانًا واسعًا هو هذا الكون بما فيه من عوالم وأحداث"، ثمَّ قال: "إِنَّ هناك مَلَكًا كبيرًا ما خُلِقوا إلَّا ليتغنَّوا بمدحه، ويتفنَّوا بوصفه، ذلك المَلِك هو الكون، فالشاعر مَنْ وَقَّعَ بين الثرى والثريَّا، هناك ينفسح مجال التَّخيل، ويُسَّع له مكان القول"⁽¹⁾.

موقفه من دُعاة التَّغريب

كان أحمد شوقي يؤمن بأنَّ للأدب العربيَّ خصائص، ومميَّزات تختلف عن غيره من الآداب، وعليه رفض دعوات التَّغريب كلها بأيِّ مسمَّى سُمِّيَتْ، وتحت أيِّ عنوان وُضِعَتْ، وقد رأى أَنَّ دُعاة التَّغريب وتلامذة المستشرقين والمبشَّرين هم الذين هاجموا شعره الإسلاميَّ؛ لأنَّه أراد أن يُبقي الناشئة على صلة بتاريخهم وعقيدتهم، قال: "فانبريتُ أنا لهم بهذه القصائد الدينيَّة التي أنشرها في تمجيد الإسلام، والإشادة به، وإثبات قدسيته وجلاله"⁽²⁾.

التجديد في شعره

كان أحمد شوقي ابن ثقافته العربيَّة الإسلاميَّة الرّاقية، التي ملأت قلبه ومشاعره، وابن عصره؛ يستوعب مخترعاته، وأفكاره ومعانيه الجديدة، فيختار منها ما يروقه، ثمَّ يُخرجه عربيًّا إسلاميًّا. وقد استطاع أن يُجدِّد في موضوعين مهمَّين هما:

1- نظم الحكايات والقصص التي تدور على ألسنة الطير، والحيوانات في أشعار سهلة واضحة، وذات موسيقى صافية، فراقبت لواضعي المناهج الدَّراسية التعليميَّة في مصر، والوطن العربي، فاخترأوا منها نماذج للمناهج الدَّراسيَّة،

(1) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.

(2) أنور الجندي، الأدب العربي المعاصر، ص94.

فحفظها التلاميذ، وتغنّوا بها، وأنشدوها في مناسبات كثيرة. ومنها قصيدة
"الأسد والضفدع"، قال فيها: (1)

انفع بما أعطيت من قدرةٍ واشفع لذي الذنب لدى المجمع
إذ كيف تسمو للعلا يا فتى إن أنت لم تنفع ولم تشفع
عندي لهذا نبأ صادقٌ يُعجبُ أهلَ الفضل فاسمع، وع
قالوا: استوى الليث على عرشه فجيء في المجلس بالضفدع
وقيل للسُّلطان: هذي التي بالأمس آذت عالي المسمع
تتفق الدهر بلا علةٍ وتدعى في الماء ما تدعى

2- نظم المسرحيات، فقد عرف المسرح بكل تفاصيله في أثناء ابتعائه في
باريس، وأعجب به، ونظم أول مسرحياته وهي "علي بيك الكبير" في
باريس. وعلى الرغم من تأثره بالمسرح الفرنسي إلا أنه استمد أفكار
مسرحياته، ومعانيها من التراث العربي الإسلامي، وهو بذلك أثبت قدرة
الشعر العربي على استيعاب الفنون الحديثة، ومنها المسرح، واستعداد
الجمهور العربي لتذوق الشعر المسرحي، والاستمتاع بمشاهده التمثيلية.

آثاره

توزعت مصنفات أحمد شوقي على أربعة فنون أدبية، هي:

1- الشعر

نظم أحمد شوقي الشعر، وهو في الرابعة عشرة من عمره، واستمر ينظمه
طوال حياته، وقد جمع شعره في ديوان بعنوان "الشوقيات"، الذي جاء في أربعة
أجزاء، وهي: الأول، ضم ما نظمته في التاريخ، والاجتماع، والسياسة. والثاني، ضم
شعره في الوصف والنسيب. والثالث، جمع فيه ما نظمته في الرثاء. والرابع، ضم
قصائد في أغراض عديدة، وأهمها: أناشيد الأطفال، والشعر التعليمي، وما نظمته في
الأمثال والخرافات، وبعض القصائد المدحية.

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 170/4.

ثم أصدر له محمد صبري سنة (1961/1381) ديواناً بعنوان "الشوقيات المجهولة" ضمّنه أكثر من أربعة آلاف بيت، حيث كان أحمد شوقي ينشر قبل الحرب العالمية الأولى قصائد في المناسبات الوطنية وغيرها موقعة بإمضاء مجهول. كما نظم أرجوزة بعنوان "دول العرب وعظماء الإسلام"، وهي ملحمة شعرية.

2- النشر

كتب أحمد شوقي مقالات نثرية في الموضوعات المعرفية المختلفة، وقد نشرها في كثير من الصحف والمجلات في مصر وغيرها، وجارى فيها الزمخشري، محمود بن عمر (ت1134/528) في كتابه "أطواق الذهب في المواعظ والخطب". وقد جمعت تلك المقالات في كتاب بعنوان "أسواق الذهب"، وهي مفيدة للناشئة من حيث ألفاظها، وأساليبها، ومعانيها.

3- المسرحيات (التمثيلات)

كتب أحمد شوقي مسرحيات عديدة، وقد كتب مسرحيته الأولى وهو في فرنسا سنة (1893/1311) ثم توقف أربعًا وثلاثين سنة عن كتابة المسرحيات، ثم عاد لكتابة المسرحية في آخر خمس سنوات من عمره، وأهم مسرحياته هي:

- 1- علي بيك الكبير.
- 2- مصرع كليوباترة.
- 3- أميرة الأندلس (مسرحية نثرية).
- 4- قمبيز.
- 5- مجنون ليلى (قيس وليلى).
- 6- الست هدى.
- 7- شريعة الغاب.
- 8- عنتره (عن قصة عنتره بن شداد ومحبوبته عبلة).
- 9- البخيلة.

وقد استوحى أكثر معاني مسرحياته من التراث العربي الإسلامي، وكتبها ليُبهرهن أن الشعر العربي قادر على استيعاب هذا الفن، وأن اللوم على الشعراء لا الشعر، قال: "إني أؤمن بأن الشعر العربي على غير ما يسوغ للبعض اتهمه، من أنه لا يتسع أو هو لا يصلح للدرام [الدراما] وللابيك [الشعر القصصي]، وعندي أن الذنب على الشعراء لا على الشعر. ومنذ نشأتي الشعرية الأولى جعلت هذا الاعتقاد

حقيقة، فألفت رواية "علي بيك الكبير"، إلّا أنّ الاتجاه العام للنّهضة الأدبيّة في مصر لم يكن يُساعد على الانقطاع لهذا الضّرب من الشعر التمثيلي⁽¹⁾.

4- الروايات

كتب أحمد شوقي روايات عدّة، منها: عذراء الهند، والفرعون الأخير، وورقة الآس، وآخر الفراعنة أو (لادياس)، ودل ويطمان، وهي تتمة لسابقتها (آخر الفراعنة)، ومذكرات بنتاؤور.⁽²⁾

الشعر المنتثور عند أحمد شوقي

كتب أحمد شوقي ثلاثة مقالات ذكر في مقدّمة كلّ منها أنّها من "الشعر المنتثور"، وقد نشرها في كتابه "أسواق الذهب"، الذي طبع سنة (1932/1351)، والمقالات هي:⁽³⁾

1- الجندي المجهول، كتبها في الاحتفال الذي جرى لوضع نصب الجندي المجهول في باريس (29 صفر 1339 الموافق 1920/11/11)، أو بعد الاحتفال بأيام⁽⁴⁾.

2- الوطن، الأرجح أنه كتبه سنة (1924/1343).⁽⁵⁾

3- الذّكرى، وهو افتتاحيّة قصيدة كتبها سنة (1926/1345)، أهداه لروح صديقه مصطفى كامل باشا (ت 9 محرم 1326 الموافق 1908/2/11) في ذكرى وفاته السنويّة⁽⁶⁾.

وقد أحسن أحمد شوقي اختيار موضوعات شعره المنتثور، والتزم فيه السّجع، فجعله ما بين جملتين إلى خمس جمل، وكانت جملة -غالبًا- قصيرة، ومتساوية الطول، فازداد لحنها وضوحًا، كما زيّن جملة الجناس الذي أغنى نغمات ألحانها⁽⁷⁾.

نماذج من شعره

(1) أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص85.

(2) انظر: محمد صبري، الشوقيات المجهولة، 48/1.

(3) انظر: حسين نصّار، في الأدب المصري، ص199.

(4) انظر: أحمد شوقي، الجندي المجهول: أسواق الذهب، ص19.

(5) انظر: أحمد شوقي، الوطن: أسواق الذهب، ص9.

(6) انظر: أحمد شوقي، الذّكرى: أسواق الذهب، ص36.

(7) انظر: حسين نصّار، في الأدب المصري، ص223.

هذه قصيدة بائنة بعنوان "بعد المنفى"، وهي قصيدة أندلسية مصرية، قالها أحمد شوقي لما عاد إلى وطنه مصر من منفاه الإيجاري في الأندلس، وقد مثلت حنينه للأندلس حضارة، وأمة مضت، كما مثلت حنينه لمصر المكلومة بالاحتلال وجشع التجار. قال (1):

أُنَادِي الرَّسَمَ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا وَأَجْزِيهِ بِدَمْعِي لَوْ أَثَابَا
وَقُلَّ لِحَقِّهِ الْعَبْرَاتُ تَجْرِي وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا
سَبَقَنَ مُقَبَّلَاتِ الثُّرْبِ عَنِّي وَأَدْيِنَ التَّحِيَّةَ وَالْخِطَابَا
فَنَثْرِي الدَّمَاعَ فِي الدِّمَنِ الْبَوَالِي كَنَظْمِي فِي كَوَاعِبِهَا الشَّابَا
وَقَفْتُ بِهَا كَمَا شَاءَتْ وَشَاوُوا وَقُوقَا عَلَّمَ الصَّبْرَ الْذَهَابَا
لَهَا حَقٌّ وَلِلْأَحْبَابِ حَقٌّ رَشَفْتُ وَصَالَهُمْ فِيهَا حَبَابَا
وَمَنْ شَكَرَ الْمَنَاجِمَ مُحْسِنَاتٍ إِذَا التَّبَرُّ أَنْجَلَى شَكَرَ الثَّرَابَا
وَبَيْنَ جَوَانِحِي وَافٍ الْوَفْ إِذَا لَمَحَ الدِّيَارَ مَضَى وَثَابَا
رَأَى مِيلَ الزَّمَانِ بِهَا فَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ صُحْبَتُهُ عِتَابَا

وأشاد بالأندلس التي أوتته في مدة نفيه إليها وهي ست سنوات، فقال:

وَدَاعَا أَرْضَ أَنْدَلُسَ وَهَذَا ثَنَائِي إِنْ رَضِيَتْ بِهِ ثَوَابَا
وَمَا أَتْنَيْتُ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ وَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَتْنَى فُعَابَا
تَخِذْتُكَ مَوْئِلًا فَحَلَلْتُ أُنْدَى دُرَى مِنْ وَائِلٍ وَأَعَزَّ غَابَا
مُعَرَّبُ آدَمَ مِنْ دَارِ عَدْنٍ قُضَاهَا فِي حِمَاكِ لِي اغْتَرَابَا
شَكَرْتُ الْفَلَكَ يَوْمَ حَوَيْتِ رَحْلِي فَيَا لِمُفَارِقِ شَكَرَ الْغُرَابَا

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 68-64/1.

فَأَنْتِ أَرْحَتِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ انْتِصَابَا
وَمَنْظَرِ كُلِّ خَوَّانٍ يَرَانِي بَوَاجِهِ كَالْبَغْيِ رَمَى الْقَابَا
وَلَيْسَ بَعَامِرِ بُنْيَانِ قَوْمٍ إِذَا أَخْلَافُهُمْ كَانَتْ خَرَابَا
أَحَقُّ كُنْتَ لِلزَّهْرَاءِ سَاحَا وَكُنْتَ لِسَاكِنِ الزَّاهِي رَحَابَا
وَلَمْ تَكُ "جَوْرُ" أَبْهَى مِنْكَ وَرَدَا وَلَمْ تَكُ "بَايِلُ" أَشْهَى شَرَابَا
وَأَنْ الْمَجْدَ فِي الدُّنْيَا رَحِيقُ إِذَا طَالَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ طَابَا
أَوَّلِكَ أُمَّةٌ ضَرَبُوا الْمَعَالِي بِمَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا قِبَابَا
جَرَى كَدْرًا لَهُمْ صَفْوُ اللَّيَالِي وَغَايَةُ كُلِّ صَفْوٍ أَنْ يُشَابَا
مُشَاطَّةُ الْقُرُونِ أَدِيلُ مِنْهَا أَلَمْ تَرَ قَرْنَهَا فِي الْجَوِّ شَابَا
مُعَاقَلَةُ تَنْظُرُ صَوْلَجَانَا يَخْرُ عَنْ السَّمَاءِ بِهَا لِعَابَا
تُعَدُّ بِهَا عَلَى الْأَمَمِ اللَّيَالِي وَمَا تَدْرِي السِّنِينَ وَلَا الْحِسَابَا

وقال يُحْيِي مصر التي أعادت إليه شبابه عندما عاد إليها:

وَيَا وَطَنِي لَقِيْتُكَ بَعْدَ يَأْسٍ كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ بِكَ الشَّابَا
وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيُؤُوبُ يَوْمًا إِذَا رُزِقَ السَّلَامَةُ وَالْإِيَابَا
وَلَوْ أَنِّي دُعِيتُ لَكُنْتَ دِينِي عَلَيْهِ أَقَابِلُ الْحَتَمِ الْمُجَابَا
أَدِيرُ إِلَيْكَ قَبْلَ الْبَيْتِ وَجْهِي إِذَا فُهِتُ الشَّهَادَةُ وَالْمَتَابَا
وَقَدْ سَبَقَتْ رَكَائِبِي الْقَوَافِي مُقْلَدَةً أَرْمَتْهَا طِرَابَا
تَجُوبُ الدَّهْرَ نَحْوَكَ وَالْفَيَافِي وَتَقْتَحِمُ اللَّيَالِي لَا الْعُبَابَا

وَتَهْدِيكَ التَّنَاءَ الحُرَّ تَاجًا عَلَى تَاجِيكَ مُؤْتَقَا عُجَابَا
هَدَانَا ضَوْءُ نَعْرِكَ مِنْ ثَلَاثٍ كَمَا تَهْدِي المُنَوَّرَةُ الرِّكَابَا
وَقَدْ غَشِيَ المَنَارُ البَحْرَ نَوْرًا كَنَارِ الطُّورِ جَلَّتِ الشُّعَابَا
وَقِيلَ: التَّغْرُ فَأَتَدَّتْ فَأَرْسَتْ فَكَانَتْ مِنْ ثَرَاكَ الطُّهْرُ قَابَا
فَصَفَحَا لِلزَّمَانِ لِصُبْحِ يَوْمٍ بِهِ أَضْحَى الزَّمَانُ إِلَيَّ ثَابَا

وقال يشيد بأهل مصر وشبابها، ويفخر بهم على حسن استقبالهم له:
وَحَيَّا اللّٰهَ فَنِيَانَا سِمَاحًا كَسَّوَا عِطْفِيَّ مِنْ فَخْرٍ ثِيَابَا
مَلَائِكَةُ إِذَا حَقَّوْكَ يَوْمًا أَحَبَّكَ كُلُّ مَنْ تَلَقَّى وَهَابَا
وَإِنْ حَمَلْتِكَ أَيْدِيهِمْ بُحُورًا بَلَّغْتَ عَلَى أَكْفِهِمُ السَّحَابَا
تَلَقَّوْنِي بِكُلِّ أَغْرَزَاهِ كَأَنَّ عَلَى أَسِرَّتِهِ شِهَابَا
تَرَى الإِيمَانَ مُؤْتَقَا عَلَيْهِ وَنُورَ العِلْمِ وَالْكَرَمِ اللَّبَابَا
وَتَلَمَّحُ مِنْ وَضَاءَةٍ صَفْحَتِيهِ مُحْيَا مِصْرَ رَائِعَةٍ كَعَابَا
وَمَا أَدْبَى لِمَا أَسَدَوْهُ أَهْلٌ وَلَكِنْ مَنْ أَحَبَّ الشَّيْءَ حَابَا

وقال يذكر المجاعة في مصر:
شَبَابَ النِّيلِ إِنَّ لَكُمْ لَصَوْنًا مُلَبِّي حِينَ يُرْفَعُ مُسْتَجَابَا
فَهَزُّوا العَرْشَ بالدَّعَوَاتِ حَتَّى يُخَوِّفَ عَنْ كِنَانَتِهِ العَذَابَا
أَمِنْ حَرْبِ البَسُوسِ إِلَى غَلَاءٍ يَكَادُ يُعِيدُهَا سَبْعًا صِعَابَا
وَهَلْ فِي القَوْمِ يَوْسُفُ يُنْقِيهَا وَيُحْسِنُ حِسْبَةَ وَيَرَى صَوَابَا

عِبَادَكَ رَبِّ قَدْ جَاعُوا بِمِصْرَ أَنْيَلَا سُقَّتْ فِيهِمْ أَمْ سَرَابَا
 حَنَائِكَ وَاهْدِ لِلْحُسْنَى تَجَارًا بِهَا مَلَكُوا الْمَرَافِقَ وَالرَّقَابَا
 وَرَقِّقْ لِلْفَقِيرِ بِهَا قُلُوبًا مُحَجَّرَةً وَأَكْبَادًا صِلَابَا
 أَمَنْ أَكَلِ الْيَتِيمَ لَهُ عِقَابٌ وَمَنْ أَكَلِ الْفَقِيرَ فَلَا عِقَابَا
 أَصِيبَ مِنَ الثُّجَارِ يَكُلُّ ضَارَ أَشَدَّ مِنَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ نَابَا
 يَكَادُ إِذَا غَذَاهُ أَوْ كَسَاهُ يُنَازِعُهُ الْحَشَاشَةُ وَالْإِهَابَا
 وَتَسْمَعُ رَحْمَةً فِي كُلِّ نَادٍ وَلَسْتَ تُحِسُّ لِلْبِرِّ انْتِدَابَا
 أَكُلُّ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَا زَكَاةَ الْمَالِ لَيْسَتْ فِيهِ بَابَا
 إِذَا مَا الطَّامِعُونَ شَكَّوْا وَضَجَّوْا قَدَعَهُمْ وَأَسْمَعَ الْغَرْثَى السِّغَابَا
 فَمَا يَكُونُ مِنْ كُلِّ وَلَكِنْ كَمَا تَصِفُ الْمُعَذِّدَةُ الْمُصَابَا
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ سُوقِ الْخَيْرِ كَسْبًا وَلَا كَتَجَارَةِ السُّوءِ اكْتِسَابَا
 وَلَا كَأَوْلِيكَ الْبُؤْسَاءِ شَاءَ إِذَا جَوَّعَتْهَا انْتَشَرَتْ ذِنَابَا
 وَلَوْ لَا الْبِرُّ لَمْ يُبْعَثْ رَسُولٌ وَلَمْ يَحْمِلْ إِلَى قَوْمٍ كِتَابَا

ج

قصيدة نهج البردة⁽¹⁾

وهي قصيدة في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، سار فيها على نهج قصيدة " البردة" للبوصيري⁽²⁾ ، وقد سرد فيها أبرز مراحل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنها:

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، 1/ 190-208.

(2) البردة: قصيدة نظمها الشاعر محمد بن سعيد البوصيري (ت1295/696) عندما أصيب بمرض الفالج، وتوسل بها إلى الله، عز وجل، بالرسول، صلى الله عليه وسلم، ومدحه فيها، فرأى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد مسح بيده الكريمة على وجهه، وألقى عليه بردته؛ فتبته من نومه ووجد في نفسه نهضة، فقام وخرج من بيته، ولم يكن أعلم أحدًا بذلك، فلقبه فقير صوفي،

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
 رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جُودَرِ أَسَدًا يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكْ سَاكِنَ الْأَجَمِ
 لَمَّا رَنَا حَدَّثَتْنِي النَّفْسُ قَائِلَةً يَا وَيْحَ جَنِّبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ
 جَعَدْتُهَا وَكَنَّمْتُ السَّهْمَ فِي كَيْدِي جُرْحُ الْأَحْبَةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ

ومنها في وعظ نفسه، حيث يندم على ما سبق من ذنوبه، فيدعوها إلى عدم الوثوق بالدنيا ومباهجها، واللجوء إلى تقوى الله، سبحانه وتعالى، فهي المنجية، ويؤكد أن النفس أمارَةٌ بالسوء، والإنسان هو مَنْ يقودها بعقله، وحسن إيمانه، قال:

يَا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمِ
 فُضِّي بِتَقْوَاكِ فَاهَا كُلَّمَا ضَحِكْتَ كَمَا يَفُضُّ أَذَى الرِّقْشَاءِ بِالثَّرَمِ

ومنها في التحذير من هوى النفس وطبائعها:

هَامَتِ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِي الصِّبَا تَهْمُ
 صَلاَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرِجَعُهُ فَقُومِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَنْقِمِ
 وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَاقِبَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ

ثم يُبَيِّنُ أَنَّ خَيْرَ مُنْقَذٍ مِنْ مَفَاسِدِ الدُّنْيَا، وشهوات النفس هو التَّوْبَةُ، والندم على ما سبق من آثام، وطلب المغفرة من الله، والشفاعة من رسوله الأمين، صلى الله عليه وسلم، قال:

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمِ

وطلب منه القصيدة التي مدح بها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وذكر أولها، وأقسم أنه سمعها وهي تُنشد بين يدي الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأعجبته، فألقى على من أنشدتها برديته، فأعطى البوصيري الفقير القصيدة، فشاعت بين الناس، وأصبحت ذات قيمة عالية، وعمد كثير من الشعراء على معارضتها، أو السير على نهجها، ومنهم أحمد شوقي، الذي نظم قصيدته "نهج البردة".

لَقِيَ رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْعَمَمِ
 إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ عِزَّ الشَّفَاعَةِ لَمْ أَسْأَلْ سِوَى أَمَمِ
 وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ
 لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ يُمَسِّكُ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللَّهِ يَغْتَنِمُ

ثم يبدأ بمدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيسرد صفاته، فهو: الرحمة المصطفاة من الله للبشر، وصاحب الحوض الذي يروي منه مَنْ يَرْجُو شفاعته يوم القيامة من الرسل والمؤمنين، وحتى جبريل، عليه السلام، قال:

مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِي وَرَحْمَتُهُ وَبُغْيَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ نَسَمِ
 وَصَاحِبُ الْحَوْضِ يَوْمَ الرُّسُلِ سَائِلُهُ مَتَى الْوُرُودُ وَجَبْرِيلُ الْأَمِينُ ظَمِي

ثم يبدأ بذكر معجزات الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومنها: قصة بحيرا الراهب، وتعبده في غار حراء، وتفجّر الماء بين أصابعه الشريفة لإسقاء صحابته، رضوان الله عليهم، وتظليل السحابة له في ذهابه إلى غار حراء، وفي سفره إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب، وغيرها:

لَمَّا رَأَاهُ بَحِيرًا قَالَ نَعْرِفُهُ بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسِّمَمِ
 سَائِلُ حِرَاءَ وَرَوْحَ الْقُدُسِ هَلْ عَلِمَا مَصُونَ سِرٍّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مُنْكَتِمِ

ومنها:

لَمَّا دَعَا الصَّحْبُ يَسْتَسْقُونَ مِنْ ظَمَا فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّيَمِ
 وَظَلَّلَتْهُ فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خَيْرَةُ الدِّيمِ

ثم يسرد مشاهد من سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومنها: نزول الوحي بأول سورة "اقرأ"، ويذكر معجزة القرآن الكريم، خاتم الرّسالات الإلهية لبني آدم، وبعض صفاته وأخلاقه، صلى الله عليه وسلم، التي كانت معروفة في قبيلته قريش، ومنها أنهم لقبوه الأمين منذ صغره، فيقول:

وَنُودِي: اقْرَأْ، تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا
لَمْ تَنْصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِقَم
هُنَاكَ أَذَنٌ لِلرَّحْمَنِ فَاِمْتَلَأَتْ

ومنها:

لَقَبْنَاهُ أَمِينَ الْقَوْمِ فِي صِغَرٍ
وَمَا الْأَمِينُ عَلَى قَوْلٍ بِمُتَّهِمٍ
فَاقَ الْبُذُورَ وَفَاقَ الْأَنْبِيَاءَ فَكَمْ
بِالْخُلُقِ وَالْخَلْقِ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ
جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَاِنصَرَمَتْ
وَجِئْنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنصَرِمٍ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ
يَزِيئُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقِدَمِ

ثم يذكر مولد الرسول، صلى الله عليه وسلم، فبدأ ببشائر مولده في وقت كان
يعمُّ فيه الظلم، والجهل والطغيان بين العرب والعجم (الفرس والروم) على حدٍّ سواء،
ومن أهم تلك البشائر: تصدّع إيوان كسرى فارس، وعبادة الأصنام، وشيوع القتل
بين الناس، قال:

سَرَتْ بِشَائِرُ بِالْهَادِي وَمَوْلِدِهِ
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مَسْرَى النُّورِ
تَخَطَّفَتْ مُهَجَ الطَّاغِينَ مِنْ عَرَبٍ
وَطَيَّرَتْ أَنْفُسَ الْبَاغِينَ مِنْ عُجَمِ
رِيَعَتْ لَهَا شَرَفُ الْإِيْوَانِ
مِنْ صَدَمَةِ الْحَقِّ لَا مِنْ صَدَمَةِ
فَانصَرَمَتْ دَعَتْ
أَتَيْتِ وَالنَّاسُ فَوْضَى لَا تُمْرُ بِهِمْ
إِلَّا عَلَى صَنْمٍ قَدْ هَامَ فِي صَنْمِ
وَالْأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا مُسَخَّرَةٌ
لِكُلِّ طَاغِيَةٍ فِي الْخَلْقِ مُحْتَكِمٌ
مُسَيِّطَرُ الْفُرسِ يَبْغِي فِي رَعِيَّتِهِ
وَقَيْصَرُ الرُّومِ مِنْ كِبَرٍ أَصَمُّ عَمٍ
يَعْدِبَانِ عِبَادَ اللَّهِ فِي شُبِّهِ
أَتَيْتِ وَالنَّاسُ فَوْضَى لَا تُمْرُ بِهِمْ
إِلَّا عَلَى صَنْمٍ قَدْ هَامَ فِي صَنْمِ
كَالْيَتِّ بِالْبَهَمِ أَوْ كَالْحَوْتِ بِالْبَلَمِ

ثم يذكر مُعجزة الإسراء والمعراج:

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكُهُ	وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ النَّفَقَا بِسَيِّدِهِمْ	كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ
صَلَّى وَرَأَاكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ	وَمَنْ يُفَزِّحُ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَأْتِمُرُ
جُبَّتِ السَّمَاوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ	عَلَى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةٍ اللَّجْمِ
رَكُوبَةً لَكَ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ	لَا فِي الْحَيَادِ وَلَا فِي الْأَيْتُقِ الرُّسُمِ
مَشْيِئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي وَصَنَعُهُ	وَقُدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشَّكِّ وَالنُّهْمِ
حَتَّى بَلَغْتَ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا	عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَبِّتَيْهِ	وَيَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْعَرْشُ فَاِسْتَلِمِ
خَطَطْتَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا غُلُومَهُمَا	يَا قَارِئَ الْوُجْهِ بَلْ يَا لَامِسَ الْقَلَمِ
أَحْطَتَ بَيْنَهُمَا بِالسِّرِّ وَانْكَشَفَتْ	لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمِ
وَضَاعَفَ الْقُرْبُ مَا قُلِدْتَ مِنْ مِثْنٍ	بِلَا عِدَادٍ وَمَا طَوَّقْتَ مِنْ نِعَمِ

ج

ثم يذكر حادثة الهجرة النبوية الشريفة، ولجوء الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، إلى غار جراء، وما جرى في تلك الرحلة المباركة، وحماية الله، سبحانه وتعالى لهما، قال:

سَلَّ عُصْبَةُ الشُّرْكِ حَوْلَ الْغَارِ سَائِمَةً	لَوْلَا مُطَارَدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تُسَمِّ
هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءَ أَمْ سَمِعُوا	هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أَمَمِ
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ	كَالْغَابِ وَالْحَائِمَاتِ وَالزُّغْبِ كَالرَّخَمِ

فَأَدْبَرُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلَعَتْهُمْ كِبَاطِلٌ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٌ

لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارِينَ مَا سَلِمَا وَعَيْتُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقُمْ

تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَنَّا وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحُ اللَّهِ لَا يُضَمُّ

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاءَ بِشَمِيتِي وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي

ثم يظهر الشاعر أحمد شوقي كامل الأدب والاحترام لصاحب قصيدة البردة "محمد بن سعيد البوصيري (ت1295/696) الملقب شرف الدين"، فيقرر أنه لا يُعارض قصيدته "البردة" بل هو يسير على نهجها، ومن هنا جاء اسم قصيدة أحمد شوقي وهو "نهج البردة". وعليه لا صحة لمن يقول إنها معارضة لقصيدة البردة، قال:

الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعٌ لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفِيحَاءِ ذِي الْقَدَمِ

مَدِيحُهُ فَيْكَ حُبٌّ خَالِصٌ وَهَوَى وَصَاقِقُ الْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلِمِ

اللَّهُ يَشْهَدُ أَنِّي لَا أَعَارِضُهُ مَنْ ذَا يُعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ

وَأَنَا بَعْضُ الْغَابِطِينَ وَمَنْ الْعَبَسُ وَلَيْكَ لَا يُذَمُّ وَلَا يُلَمُّ

ويذكر أحمد شوقي عظم المقام الذي يقومه، ومهابته، وهو مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث فيه يُصاب سحبان وائل (ت674/54) —على فصاحته وبلاغته— بالخرس، فكيف به هو؟ ثم يعود إلى ذكر بعض صفات الرسول، صلى الله عليه وسلم،

هَذَا مَقَامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مُقْتَبَسٌ تَرْمِي مَهَابَتُهُ سَحْبَانَ بِالْبَكَمِ

الْبَدْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمِ

شُمُ الْجِبَالِ إِذَا طَوَلَتْهَا انْخَفَضَتْ وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسَمَتْهَا تَسِمِ

وَاللَّيْتُ دُونَكَ بِأَسَا عِنْدَ وَثْبَتِهِ إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَاكِي السَّلَاحِ كَمِي
تَهْفُو إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتْهَا فِي الْحَرْبِ أَفِيدَةُ الْأَبْطَالِ وَالْبُهَمِ
مَحَبَّةُ اللَّهِ أَلْقَاهَا وَهَيَّبَتْهُ عَلَى ابْنِ أَمْنَةٍ فِي كُلِّ مُصْطَلَمٍ
كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّقْعِ بَدْرُ دُجَى يُضِيءُ مُلْتَثِمًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَثِمٍ
بَدْرٌ تَطْلُعُ فِي بَدْرِ فَعْرَتُهُ كَعُرَّةِ النَّصْرِ تَجْلُو دَاخِيَ الظُّلَمِ
ذُكِرْتَ بِالْيَتِيمِ فِي الْقُرْآنِ تَكْرِمَةً وَقِيمَةُ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ فِي الْيَتِيمِ
اللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ رِزْقَهُمْ وَأَنْتَ خُيِّرْتَ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْقَسَمِ
إِنْ قُلْتَ فِي الْأَمْرِ لَا أَوْ قُلْتَ فِيهِ فَخَيْرُهُ اللَّهُ فِي لَا مِنْكَ أَوْ نَعَمْ
نَعَمْ

ثم يُدافع أحمد شوقي عن الإسلام العظيم، فيردُّ التُّهم التي كان وما زال يُروِّجها المستشرقون، والمبشرون النصراني واليهود وغيرهم ضد الإسلام، ويتبناها بعض تلاميذهم من العرب والمسلمين، ومن تلك التُّهم: أنَّ الإسلام انتشر بحدِّ السيف، فيقول: إنَّ الجهاد بما فيه من ضوابط وأخلاق أفضل من الحروب التي تعتمدها الأمم غير الإسلامية بعامة والنصارى بخاصة الذين أقاموا دولهم على جماجم البشر وبدمائهم، قال:

قَالُوا غَزَوْتَ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاؤُوا لِسَفَاكِ دَمٍ
جَهْلٌ وَتَضَلُّلٌ أَحْلَامٌ وَسَفْسَاطَةٌ فَتَحْتَ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسَبٍ تَكْفَلُ السَّيْفُ بِالْجُهَّالِ وَالْعَمَمِ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّاهُ بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ دَرَعًا وَإِنْ تَلَقَّاهُ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ
سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْغَرَاءَ كَمْ شَرِبْتَ بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْعَلَمِ
طَرِيدُهُ الشَّرِّكَ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالًا سَاطِعَ الْحَدَمِ
لَوْلَا حُمَاهُ لَهَا هَبَّوْا لِئَصْرَتِهَا بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرِّفْقِ وَالرُّحَمِ

لولا مكانٌ لعيسى عندَ مُرسِلِهِ وَحُرْمَةٌ وَجَبَتْ لِلروحِ فِي القِدَمِ
لُسَمَّرَ البَدَنُ الطَّهْرُ الشَّرِيفُ عَلَى لَوْحَيْنِ لَمْ يَخْشَ مُؤْذِيهِ وَلَمْ يَجِمِ
جَلَّ المَسِيحُ وَذَاقَ الصَّلْبَ شَانِيَهُ إِنَّ العِقَابَ بِقَدْرِ الذَّنْبِ وَالْجُرْمِ
أَخُو النَّبِيِّ وَروحُ اللَّهِ فِي نُزُلِ فَوْقَ السَّمَاءِ وَدُونَ العَرْشِ مُحْتَرَمِ
عَلَّمَتْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ حَتَّى القِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الذِّمَمِ
دَعَوَتْهُمْ لِجِهَادٍ فِيهِ سُودُذُهُمْ وَالْحَرْبِ أَسُّ نِظَامِ الكَوْنِ وَالْأَمَمِ
لَوْلَاهُ لَمْ نَرِ لِلدَّوَلَاتِ فِي زَمَنِ مَا طَالَ مِنْ عُمْدٍ أَوْ قَرٍّ مِنْ ذُهُمِ
تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتَرَا كُلَّ أَوْنَةٍ فِي الأَعْصُرِ العُرِّ لَا فِي الأَعْصُرِ
بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُروُشٌ وَاعْتَلَّتْ لولا القذائفُ لَمْ تَتَلَمَّ وَلَمْ تُصَمِّ
أَشْيَاغُ عِيسَى أَعَدُّوا كُلَّ قَاصِمَةٍ وَلَمْ يُعَدِّ سِوَى حَالَاتٍ مُنْقَصِمِ
ج

ثم يُقَارَنُ بَيْنَ حَضَارَةِ الإِسْلَامِ العَظِيمَةِ الَّتِي قَامَتْ عَلَى: التَّوْحِيدِ، وَالْعَدْلِ،
وَالْأَخْلَاقِ، وَالْعِلْمِ، وَبَيْنَ الحَضَارَتَيْنِ الفَارْسِيَّةِ، وَالرُّومَانِيَّةِ، وَيَسْخَرُ مِنْ أَصْحَابِ
الدَّعَوَاتِ القَوْمِيَّةِ القَدِيمَةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَشِرُ فِي مِصْرَ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَقْطَارِ العَرَبِيَّةِ
مِثْل: الفِرْعَوْنِيَّةِ، وَالْفَنِيْقِيَّةِ، وَالْكِنَعَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَيُظْهَرُ تَفَوُّقُ الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ،
قَالَ:

شَرِيعَةٌ لَكَ فَجَّرْتَ العُقُولَ بِهَا عَنْ زَاخِرِ بَصُنُوفِ العِلْمِ مُلْتَطِمِ
يَلُوحُ حَوْلَ سَنَا التَّوْحِيدِ جَوْهَرُهَا كَالْحَلِيِّ لِلسَّيْفِ أَوْ كَالْوَشْيِ لِلْعِلْمِ
غَرَاءُ حَامَتِ عَلَيْهَا أَنْفُسٌ وَنَهَى وَمَنْ يَجِدُ سَلْسَلًا مِنْ حِكْمَةٍ يَحْمِ
نُورُ السَّبِيلِ يُسَاسُ العَالِمُونَ بِهَا تَكَفَّلَتْ بِشَبَابِ الدَّهْرِ وَالْهَرَمِ
يَجْرِي الزَّمَانُ وَأَحْكَامُ الزَّمَانِ عَلَى حُكْمِ لَهَا نَافِذٍ فِي الخَلْقِ مُرْتَسِمِ

لَمَّا اعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَاتَّسَعَتْ
وَعَلَّمَتْ أُمَّةً بِالْقَفْرِ نَازِلَةً
كَمْ شَيْدَ الْمُصْلِحُونَ الْعَامِلُونَ بِهَا
لِلْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْتِمَادِينَ مَا عَزَمُوا
سُرْعَانَ مَا فَتَحُوا الدُّنْيَا لِمِلَّتِهِمْ
سَارُوا عَلَيْهَا هُدَاةَ النَّاسِ فَهِيَ بِهِمْ
لَا يَهْدِيهِمُ الدَّهْرُ رُكْنَا شَادَ عَدْلُهُمْ
نَالُوا السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ وَاجْتَمَعُوا
دَعَّ عَنْكَ رُومًا وَأَثِينَا وَمَا حَوَّتَا
وَحَلَّ كِسْرَى وَإِيُونَا يَدِلُّ بِهِ
وَأَتْرَكَ رَعْمَسِيْسَ إِنَّ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ
دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ
ج

ثم يفخر الشاعر أحمد شوقي بخلفاء الرّسول، صلى الله عليه وسلم، ويعتزّ بدورهم في بناء الحضارة الإسلاميّة، حيث ساد العلم، والأمن، والرّخاء، والأخوة بين المسلمين، قال:

خَلَائِفُ اللَّهِ جَلُّوا عَنْ مُوَازَنَةِ
مَنْ فِي الْبَرِّيَّةِ كَالْفَارُوقِ مَعْدَلُهُ
وَكَاإِلِمَامٍ إِذَا مَا قَضَى مُزْدَحِمًا
الزَّاهِرُ الْعَذْبُ فِي عِلْمٍ وَفِي أَدَبٍ
فَلَا تَقْيَسَنَّ أَمْلَاكَ الْوَرَى بِهِمْ
وَكَابِنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَاشِعِ الْحَشِمِ
بِمَدْمَعٍ فِي مَآقِي الْقَوْمِ مُزْدَحِمِ
وَالنَّاصِرُ النَّدْبُ فِي حَرْبٍ وَفِي سَلَمِ
ج

أَوْ كَابِنَ عَقَانِ وَالْقُرْآنُ فِي يَدِهِ يَحْنُو عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْفُطَمِ
وَيَجْمَعُ الْآيَ تَرْتِيبًا وَيَنْظُمُهَا عَقْدًا بِجِدِّ اللَّيَالِي غَيْرَ مُنْقَصِمِ
جُرْحَانِ فِي كَبِدِ الْإِسْلَامِ مَا التَّأَمَّا جُرْحُ الشَّهِيدِ وَجُرْحُ الْكِتَابِ دَمِي
ج

ثم يذكر الفتنة التي نزلت بالمسلمين عند وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، والذهول الذي أصاب الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ورباطة الجأش، وقدرة الاحتمال عند أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وكيف واجهه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، المرتدين حتى أعاد للإسلام هيئته، وللمسلمين صحتهم، قال:

وَمَا بَلَاءُ أَبِي بَكْرٍ بِمُتَّهِمٍ بَعْدَ الْجَلَائِلِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْخِدَمِ
بِالْحَزْمِ وَالْعَزْمِ حَاطَ الدِّينَ فِي مَحَنٍ أَضَلَّتِ الْخُلَمَ مِنْ كَهْلٍ وَمُحْتَلِمِ
وَحَدَنَ بِالرَّاشِدِ الْفَارُوقَ عَنْ رُشْدٍ فِي الْمَوْتِ وَهُوَ يَقِينٌ غَيْرُ مُنْبَهَمِ
يُجَادِلُ الْقَوْمَ مُسْتَلًّا مُهَيَّئِدَهُ فِي أَعْظَمِ الرُّسُلِ قَدْرًا كَيْفَ لَمْ يَدُمِ
لَا تَعْدُلُوهُ إِذَا طَافَ الدُّهُولُ بِهِ مَاتَ الْحَبِيبُ فَضَلَ الصَّبُّ عَنْ
رَغَمِ

ثم يأخذ بختم القصيدة، فيبدأ الختم بالصلاة على الرسول، صلى الله عليه وسلم، وآله، وصحابته، رضوان الله عليهم، ويمدحهم، قال:

يَا رَبَّ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَى نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرَ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ
مُحِي اللَّيَالِي صَلَاةً لَا يُقَطِّعُهَا إِلَّا بَدَمْعٍ مِنَ الْإِشْفَاقِ مُنْسَجِمِ
ج مُسَبِّحًا لَكَ جُنْحَ اللَّيْلِ مُحْتَمِلًا
رَضِيَّةً نَفْسُهُ لَا تَشْتَكِي سَأْمًا وَمَا مَعَ الْحُبِّ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ سَأْمِ
ج وَصَلَّ رَيْبِي عَلَى آلٍ لَهُ لُحْبِ
جَعَلْتَ فِيهِمْ لُؤَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

بيضُ الوجوه وَوجهُ الدهرِ ذو حاكٍ شَمُ الأنوفِ وَأَنفُ الحادِثاتِ حَمَى
وأهدِ خَيْرَ صَلاةٍ مِنْكَ أربَعَةَ في الصَّحْبِ صُحْبَتُهُمْ مَرَعِيَّةُ الحُرَمِ
الراكِبِينَ إذا نادى النَّبِيُّ بِهِم ما هالَ مِنْ جَلَلٍ وَأَشَدُّ مِنْ عَمَمِ
الصَّابِرِينَ وَنَفَسُ الأرضِ واجِفَةٌ الضَّاحِكِينَ إلى الأخطارِ وَالْفَحَمِ

ثم يُنهي أحمد شوقي قصيدته بالابتهال لله، سبحانه وتعالى، ومُستشفعاً برسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، أن يُنقذ أمة الإسلام ممّا هي فيه من: ضعف، وهوان، ودّلّ أدى إلى ضياعها، وتأخرها عن الأمم الأخرى، ويدعو، عزّ وجلّ، أن يهب الأمة حُسن الخاتمة كما وهبها حُسن البداية، ببعثه الرّسول، صلى الله عليه وسلم، لها: رحمة، ومُبشراً، وهادياً، قال:

يا رَبِّ هَبَّتْ شُعوبٌ مِنْ مَنِيَّتِها وَأَسْتَيْقَظَتْ أَمَمٌ مِنْ رَقَدَةِ العَدَمِ
سَعْدٌ وَنَحْسٌ وَمَلِكٌ أَنْتَ مالِكُهُ نُدِيلُ مِنْ نِعَمٍ فِيهِ وَمِنْ نِقَمِ
رَأَى قَضائُكَ فِينا رَأْيَ حَكَمِـهِ أَكْرَمَ بوجْهِكَ مِنْ قاضٍ وَمُنْتَقِمِ
فَالطَّفِ لِأَجْلِ رَسولِ العالَمِينَ بِنّا ج وَلَا تُزِدْ قَوْمَهُ خَسَفاً وَلَا تُسَيِّمِ
يا رَبِّ أَحسَنْتَ بَدءَ المُسْلِمِينَ بِهِ فَتَمِّمِ الفَضْلَ وَأَمْنَحْ حُسْنَ مُخْتَلَمِ

3. إبراهيم عبد الفتاح آغا طوقان، عاش ما بين (1905/1323 و1941/1360) (1).

ولد إبراهيم في مدينة نابلس في عائلة ذات مكانة سياسيّة، واجتماعيّة، واقتصادية وثقافية، هي عائلة طوقان. وآل طوقان بطن من بطون العرب الموالي الحياريين، الذين كانوا بدواً يعيشون في غربي بادية الشام بين مدينتي حمص وحماة. وفرع من آل طوق الذين كانوا في تلك المنطقة في (القرن الثاني الهجري/ الثامن

(1) انظر ترجمته في: فدوى طوقان، أخي إبراهيم: الأعمال الشعرية، ص9-36؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 578/2؛ عمر فروخ، شاعران معاصران، ص13-150؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص507؛ أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، ص374.

الميلادي)، ومدحهم الشاعر العباسي أبو تمام، حبيب ابن أوس الطائي (ت 845/231). وقد هاجروا في (أواسط القرن التاسع الهجري / الرابع عشر الميلادي) إلى مدينة نابلس، واستقرّوا بها، وانتقلوا من حياة البداوة إلى الحضرة، وفي العهد العثماني أيدوا الحكم العثماني، ودخل بعضهم الإنكشارية⁽¹⁾، ومنهم إبراهيم آغا الشربجي، الذي ينتمي إليه فرع إبراهيم طوقان، وظلّ هذا اللقب (آغا)⁽²⁾ متوارثاً في العائلة، وآخر من توارثه هو عبد الفتاح آغا، والد الشاعر إبراهيم.

تزوج عبد الفتاح ابنة خاله فوزية أمين عسقلان، ورزق بعشرة أولاد، كان إبراهيم ثانيهم، وشقيقته فدوى ثامنهم. وقد نشأ إبراهيم على الحرية، وتمتع بعطف خاص من الأسرة بعامه، وجدّه داود آغا (ت 1919/1338) بخاصة نظراً لحالته الصحية، وذكانه الفطريّ.

(1) الإنكشارية: القوات الجديدة، أسسها السلطان أورخان بن عثمان في بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص 41.
(2) آغا: السيد صاحب المكانة العالية. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص 15.

ثقافته

تشكلت ثقافة إبراهيم طوقان الأدبية والسياسية والدينية من رافدين هما: الأول، الرافد الرسمي؛ فقد تلقى تعليمه المدرسي في مدينة نابلس، وبخاصة المدرسة الرشادية الغربية، وفيها اعتنى بنبوغه الأدبي المعلمان: إبراهيم أبو الهدى الخماش، وفهمي هاشم، ثم التحق بمدرسة المطران في القدس سنة (1919/1338) طالباً داخلياً، وقد كان أخوه أحمد طوقان يدرس اللغة الإنجليزية وآدابها في الكلية العربية بالقدس، فعرفه بالأستاذ نخلة زريق (ت1920/1339) الذي زاد من حبه للغة العربية وآدابها. وتخرج إبراهيم في مدرسة المطران بعد أربع سنوات وذلك سنة (1924/1341)، وقد أثرت في أخلاقه تأثيراً سلبياً. "إن إبراهيم لا يذكر مدرسة المطران من الناحية الأخلاقية بخير أبداً"⁽¹⁾.

ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت سنة (1923/1341) فدرس الصف الخامس الاستعدادي آخر صفوف الدائرة الاستعدادية، وتخرج فيها في (شهر ذي القعدة 1342 الموافق لحزيران 1924)، ثم التحق بدائرة العلوم، فحصل سنة (1929/1347) على بكالوريوس علوم.

أما الرافد الثاني لثقافة إبراهيم طوقان، فتتمثل في قراءات إبراهيم الخاصة، حيث اطلع على شعر عدد من شعراء العربية القدامى والمعاصرين له، ومنهم أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت815/199)، وأبو الفضل، العباس ابن الأحنف (ت806/190)، والبحثري، الوليد بن عبيد الطائي (ت897/284)، وأبو العباس، عبد الله بن المعتز (ت909/296)، ومحمد بن عبيد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي (ت1187/583)، ومحمود سامي البارودي (ت1904/1322)، وحافظ إبراهيم (ت1932/1351)، وأحمد شوقي (ت1932/1351) وغيرهم كثير. كما اطلع على الأدب التركي، وعلى الأدبين الإنجليزي والفرنسي، فتأثر بهما، وبخاصة المذهب الوجداني (الرومانسي) الذي كان سائداً في ذلك الوقت، لكنه بقي محافظاً على الشعر العربي الأصيل. وكان يحب تعلم اللغات، فأتقن الإنجليزية، وتعلم أربع لغات أخرى هي: التركية، والفرنسية، والألمانية، والإسبانية. وفضلاً عن كل ما سبق كان إبراهيم طوقان يحرص على قراءة القرآن الكريم باستمرار، ويكثر من ذلك في شهر رمضان المبارك، قال: "الجميل في رمضان عندي خاصة أنني أقرأ القرآن فيه، وأقرأه كله، هذا ما أصنعه في كل سنة، وأتلدّد به، فأصقل به لغتي، ونعم صيقل اللغة القرآن، وتستوقفني بعض التراكيب، فأرجع إلى كتب البلاغة، فأتفقه بكشف أسرارها، وتُشكل عليّ بعض المعاني، فأرجع إلى سيّد المفسّرين، أستاذ الدنيا جار الله الزمخشري،

(1) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص19.

فأصدر عنه رَيّان شعبان، وأنتبه إلى طريقة تاريخية فأرجع إلى أبي جعفر، محمد بن جرير الطبري، فأنسى نفسي بين أحاديثه ورواياته، هذا هو فضل رمضان علي⁽¹⁾.

وظائف إبراهيم طوقان

عمل إبراهيم في وظائف عديدة، منها:

1- التعليم، فبعد أن تخرّج في الجامعة الأمريكية، عاد إلى مدينة نابلس فعمل معلّمًا للغة العربية في مدرسة النجاح الوطنية لمدة سنة. ثم عمل في الجامعة الأمريكية ببغداد سنة (1930/1349) بعقد لمدة ثلاث سنوات، لكنه استقال قبل سنة من انتهاء العقد بسبب نفرة شخصية بينه وبين أحد المدرسين ذوي التأثير في توجيه سياسة الجامعة، حيث كتب فيه تقريرًا كيديًا، وعاد إلى فلسطين، فعمل معلّمًا للغة العربية في المدرسة الرشيدية بالقدس، فيما كان شقيقه أحمد يعمل معلّمًا في الكلية العربية، لكنّه استقال من وظيفته بسبب سوء وضعه الصحي، وعاد إلى نابلس، ثم عمل في آخر شهور حياته معلّمًا في "دار المعلمين الريفية" في منطقة "الرستمية" ببغداد عاصمة العراق، وذلك بترتيب من صديقه طالب مشتاق الذي كان يشغل وظيفة قنصل العراق في القدس، وسكن في حيّ الكرادة ببغداد حيث كان مسكنه يبعد 4 كم عن مكان عمله. ما أثر سلبًا على حالته الصحية.

2- العمل الإداري في بلدية نابلس، بعد أن ساءت حالة إبراهيم طوقان، وهو في المدرسة الرشيدية عاد إلى نابلس، وعمل في دائرة المياه، ثم ترقى إلى مدير دائرة المياه، وذلك سنة (1934/1353)، وقد ارتاح في هذه الوظيفة؛ إذ كتب لصديقه عمر فروخ يقول: "شغلي يتعلّق بأول الأشياء التي تنفي عن القلب الحزن"⁽²⁾.

3- العمل الإداري الخاص، لم يستمرّ إبراهيم طوقان في عمله بالبلدية طويلاً؛ لأنه لم يستطع الجمع بينه وبين عمله في إدارة حسابات "مصبنة العائلة" (مصنع الصابون)، فاستقال من البلدية صيف سنة (1935/1354) وتفرّغ لإدارة المصبنة وتنظيم حساباتها.

(1) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص73.

(2) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص47.

4- العمل في الإذاعة الفلسطينية، في (شهر رمضان سنة 1354 الموافق لشهر آذار 1936) تسلّم إبراهيم طوقان، وظيفة مدير إدارة البرامج العربية في الإذاعة الفلسطينية بالقدس، بدرجة "مدير فئة ك"، وهي درجة أولى يبتدئ مرتبها بمبلغ قدره تسع وعشرون جنيهاً في الشهر. وهو راتب جيّد جدّاً في ذلك الوقت. واستمرّ في هذه الوظيفة حتى (شهر رمضان سنة 1359 الموافق لشهر تشرين الأول 1940)، حيث اضطر للاستقالة نتيجة مكائد كثيرة حاكها له مسؤولو الإذاعة الإنجليز واليهود وبعض عملائهم.

شاعريته

تدّقت شاعرية إبراهيم طوقان وهو على مقاعد الدراسة، وقد نظم في أكثر موضوعات الشعر العربيّ، فله شعر في: الغزل، والمجون، والسياسة، والاجتماع، والمناسبات، وبخاصة المدح، والرثاء، والهجاء، وله شعر في الوصف، كما نظم الأناشيد في موضوعات عديدة.

مميزات شعره

امتاز شعر إبراهيم طوقان بمميزات عديدة منها:

- 1- المحافظة على الوزن والقافية.
- 2- سهولة الألفاظ وبعدها عن الغرابة.
- 3- وضوح الأسلوب، وبعده عن الغموض والإبهام والرمزية.
- 4- يكون شعره جيّدًا عندما ينفعل بالحدث، وتقلّ جودته في المناسبات.

المؤثرات في شعر إبراهيم طوقان

عوامل عديدة أثّرت في شاعرية إبراهيم طوقان، وأهمها:

- 1- بيئته الأسرية، فقد ولد ونشأ في أسرة عريقة، ومثقفة، وتوارث بعضها نظم الشعر، وحب العلم.
- 2- حالته الصحية الصعبة، فقد كان هزيل الجسم، وعانى من ثلاثة أمراض منذ صغره، فنمت معه طوال عمره حتى قضت عليه.
- 3- ثقافته الأدبية العربية الواسعة، وإطلاعه على القرآن الكريم والحديث الشريف، والتاريخ الإسلامي، فضلا عن الآداب الغربيّة ولا سيما الإنجليزية.
- 4- تأثره بأحداث وطنه فلسطين، والوطن العربيّ، فكان شعره سجلاً لأحداث تاريخيّة، واجتماعية، وسياسية كثيرة.

مفهومه للشعر

كان لإبراهيم طوقان مفهومه الخاص للشعر، فقد رأى أن الشعر هو: عبارات نثرية اتفق أن تكون موزونة، ولا أثر لإعمال الفكر فيها، قال في رسالة كتبها لصديقه عمر فروخ: "أريد أن أقول أو أن أضع تعريفاً للشعر السهل الممتنع فلم أجد أحسن من تعريفه بعبارات نثرية موزونة لا أثر لكذ الخاطر عليها، بل اتفق لها هي ولم يتفق لك أنت أن تكون موزونة"⁽¹⁾ ومن الناحية الفكرية كان إبراهيم طوقان "يحب الفكرة البسيطة تخرجها عاطفة معقدة"⁽²⁾.

وفاته

نشأ إبراهيم طوقان منذ ولادته مهزول الجسم، ضعيفه، حيث رافقه مرض ثلاثي؛ "صمم في أذنه، وقرحة في معدته، ثم استعداد في أمعائه لأنواع الالتهاب"⁽³⁾. وقد جعله هذا المرض الثلاثي كثير التردد على الأطباء، حتى قال في ذلك يصف حياته:⁽⁴⁾

مِنْ طَبِيبٍ لَطِيبٍ فَجَبَّحَا لِحَيَاةٍ عَلَى الْأَطْبَاءِ وَقَفَ

وكان جسد إبراهيم طوقان لا يناسبه الحرّ الشديد، فلمّا سافر للعمل في بغداد، خشي عليه والده من جوّ العراق وحرارته، لكنه لم يستطع منعه، فلم تمض عليه إلّا شهور عدّة في العراق حتى أصيب في (أول ربيع الأول سنة 1360 الموافق لأول نيسان 1941) بمرض شديد، فعاد إلى نابلس، ومنها نقل إلى المشفى الفرنسي في القدس للعلاج، ولكّنه انتقل إلى رحمة ربه يوم الجمعة (6 ربيع الآخر 1360 الموافق 1941/5/2)، فنقل جثمانه بسيارة تغمرها الأكاليل والزهور إلى نابلس، وصلي عليه في مسجد نابلس الكبير بعد صلاة العصر من يوم السبت (7 ربيع الآخر 1360 الموافق 1941/5/3)، ودفن في المقبرة الشرقية. وقد أبّنه عدد من الخطباء، ورثاه عدد من شعراء العربية وكتابها في الوطن العربي.

آثاره

ترك إبراهيم طوقان ديوان شعر كبير نسبياً، ضم أكثر شعره، وقد طبع طبعات عديدة منها طبعة صدرت عن مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين

(1) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص78.

(2) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص78.

(3) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص20.

(4) عمر فروخ، شاعران معاصران، ص20.

للإبداع الشعري، في الكويت، من إعداد وترتيب ماجد الحكواتي، سنة 2002. وعنوانها "إبراهيم طوقان: الأعمال الشعرية الكاملة".

كما مكنه اطلاعه الأدبي الواسع، وثقافته الجامعية من العمل الأكاديمي في التحقيق، وله في ذلك عملان هما:

1- ساعد المستشرق التشيكي الدكتور عبد الرحمن نيكل في تحقيق كتاب "الزهرة" لابن داود الأصفهاني، وهو مجموع شعري بارع.

2- قام بتحقيق ديوان الشاعر العباسي العباس بن الأحنف. ولم ينشره.

نماذج من شعره

انتقد إبراهيم طوقان في شعره صراع زعماء الأحزاب الفلسطينية، والعائلات الكبيرة على المناصب التي كان يصنعها لهم العدو البريطاني في هذه البلدية أو تلك، أو في هذه المؤسسة أو تلك، وكان نقده يأتي صريحاً أو تلميحاً، وفي (شهر شوال سنة 1353 الموافق لشباط 1935) انتقد سماسرة الأرض، الذين كانوا يدعون الحرص على البلاد في العلن، فيعرفهم العامة بأنهم زعماء الوطن وحُماته، فيما هم سماسرة يبيعون البلاد للإنجليز واليهود معاً، قال من قصيدة "السّماسرة"⁽¹⁾:

أما سماسرة البلاد فعصبة عاراً على أهل البلاد بقاؤها
إبليس أعلن صاغراً إفلاسه لما تحقّق عنده إغراؤها
يتنعمون مكرّمين، كأنما لنعيمهم عمّ البلاد شفاؤها
هم أهل نجدتها، وإن أنكرتهم وهُم، وأنفك راغم، زعماؤها
وحماؤها، وبهم يتمّ خرابها وعلى يديهم بيعها وشرائها

وكان لاطلاع إبراهيم طوقان على حقيقة أوضاع الشعب الفلسطيني، والصراع القائم بين أحزابه وعائلاته، وحقيقة تخاذل الزعماء العرب في الدفاع عن فلسطين، ومناصرة أهلها أثر كبير على تشاؤمه من مستقبل فلسطين، واستشرافه

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص212.

لذلك المستقبل المفزع والرهيب، فقال يصوّر خوفه على مصير فلسطين وشعبها سنة(1353/1935) قصيدة بعنوان "مناهج"، ومنها(1):

أمامك أيّها العربيّ يومٌ تشيبُ لهولهِ سودُ النواصي
وأنتَ كما عهدتُكَ لا تُبالي بغيرِ مظاهرِ العبثِ الرّخاص
مصيرك بات يلمسه الأَداني وسار حديثُهُ بين الأَقاصي
فلا رَحْبُ القصور غداً ببق لساكنها ولا ضيقُ الخصاص

وفي مقابل صراع الأحزاب والعائلات، وخيانة السماسرة، كان هناك مجاهدون شكّلوا في جهادهم نموذجاً للأجيال الناشئة، وقد نال هؤلاء اهتمام إبراهيم طوقان، فوصف بعض جهادهم، وجعلهم مثلاً يُحتذى في الجهاد والتضحية للأجيال الفلسطينية الناشئة، الساعية إلى تحرير أرضها، وتطهير ومقدساتها، وحماية شعبها، وبناء دولتها المستقلة، في قصيدة بعنوان "الثلاثاء الحمراء". ففيها وصف بطوله الشهداء: فؤاد حجازي من مدينة صفد، ومحمد جمجوم وعطا الزير من مدينة الخليل. وكان سبب استشهادهم أنّ بعض اليهود حاول في صيف سنة(1347/1929) تغيير طريقة أدائهم الصلاة عند حائط البراق بالمسجد الأقصى المبارك، واعتدوا على المسلمين، فعمّت المدن والقرى الفلسطينية ثورة شعبية قام جيش الاحتلال البريطاني بقمعها بالحديد والنار، واعتقل مئات الشباب الفلسطيني، وحكم على ثلاثة منهم بالإعدام شنقاً حتى الموت، وقد نقّذ حكم الإعدام فيهم (يوم الثلاثاء 5 صفر الخير 1349 الموافق 1930/6/31) في سجن عكا، وقد جرى تنفيذ الحكم في ثلاث ساعات متتالية، تنافس فيه الشهداء على من يتقدّم أولاً، فكان أن تمّ التنفيذ في فؤاد حجازي، ثم محمد جمجوم، ثم عطا الزير، وقد نظم إبراهيم طوقان ذلك الحدث الرهيب، في قصيدة بعنوان "الثلاثاء الحمراء"، وفيها شبّه الحدث بمحاكم التفتيش الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس في مشاهد عديدة، منها قوله(2):

يومٌ أطلّ على العصور الخاليه ودعا: "أمرٌ على الوري أمثاليه؟"
فأجابه يومٌ: "أجل" أنا راويه لمحاكم التفتيش تلك الباغيه

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص218.
(2) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص140-143.

ولقد شهدت عجائباً	وغرائباً
لكنّ فيك مصائباً	ونوائباً
ولم ألقَ أشباهاً لها في جورها	فاسألْ سوايَ وكم بها من مُكرٍ!

* *

وإذا بيوم راسف بقيوده	فأجاب، والتاريخ بعض شهوده:
انظر إلى بيض الرقيق وسوده	مَنْ شاءَ كانوا مُلْكُهُ بنقوده
بشرّ يُباع ويُشترى	فتحرّرا
ومشى الزّمانُ القهقري	فيما أرى
فسمعتُ مَنْ منعَ الرقيقَ وبيعهُ	نادى على الأحرار: يا مَنْ يشتري!

ثم أنطق الشاعر الساعة التي شنق فيها الشهيد فؤاد حجازي، وهي الساعة الأولى بلسان الشهيد، فقال:

أنا ساعةُ النَّفسِ الأبيّةِ	الفضلُ لـي بالأسـبقـيّه
أنا بكرُ ساعاتٍ ثـلا	ثِ كلِّها رمـزُ الحميّه
بنـتُ القضيّةِ إنَّ لـي	أثـراً جليلاً في القضيّه
أودعتُ في مهج الشّبيبةِ	نغمـةَ الرّوح الوفيّه

ثم أنطق ساعة شنق الشهيد محمد مجوم، وهي الساعة الثانية بلسان الشهيد، فقال:

أنا ساعة الرجل العتيد	أنا ساعة البأس الشديد
أنا ساعة الموت المشر	ف كل ذي فعل مجيد
بطلي يحطّم قِيَدَه	رمزاً لتحطيم القيود
زاحمت من قبل لأس	بقها إلى شرف الخلود
وقدحت في مهج الشّبا	ب شرارة العزم الوطيد
هيهات يُخدع بالوعو	د وأن يُخدّر بالعهود
قسماً بروح محمّد	تلقى الرّدى حلو الورود
قسماً بأمرّك عند مو	تلك وهي تهتف بالشّيد
ما نال من خدّم البلا	د أجلّ من أجر الشّهد!

ثم أنطق ساعة شنق الشهيد الثالث عطا الزير، وهي الساعة الثالثة بلسان الشهيد، فقال:

أنا ساعة الرّجل الصّبور	أنا ساعة القلب الكبير
رمز الثّبات إلى النّهاية	في الخطير من الأمور
بطلي أشدّ على لقاء المو	ت من صمّ الصّخور
جذلان يرتقب الرّدى	فاعجب لموت في سرور

وقد برع إبراهيم طوقان في نظم الأناشيد الوطنية والحماسية، وأول نشيد نظمته هو بعنوان "نشيد بطل الريف" قال فيه⁽¹⁾:

ففي ثنايا العجاـجِ والتحام السُّيوفِ

بينمـا الجـو داج والمنايا تطـوف

يتهدى نـسـيم فيه أزكى سلام

نحو عـبد الكـريم الأملير الهمـام

ريفنا غابنا نحن فيه الأسود ريفنا نحمله

كلنا يعجبُ بفتى المغرب

كلنا يطربُ لانتصار الأبي

أينَ جيشُ العدا إن دعا للجهاد

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية، ص.255. وبطل الريف هو: محمد بن عبد الكريم الخطابي، عاش ما بين (1882/1299 و1963/1382)، ولد في بلدة أدير بالمغرب، وتعلم فيها، ثم أكمل تعليمه الشرعي في جامعة القرويين بتونس، وعمل في القضاء بمدينة مليلة المحتلة من قبل إسبانيا، وبعد الحرب العالمية الأولى قاد ثورة الريف المغربي ضد إسبانيا، واستطاع تكوين جمهورية الريف، ثم تحالف المحتلون الفرنسيون والإسبان ضده، فاعتقل سنة(1926/1344)، ونفي مدة عشرين سنة، ثم طرد عام(1947/1366) إلى مصر فعاش بها حتى وفاته. وقد نظم إبراهيم طوقان هذا النشيد في أحد أيام شتاء سنة(1924/1342)، حيث كانت أخبار انتصارات المجاهدين في الريف المغربي بقيادة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي على جيش الاحتلال الإسباني تتوالى، وامت زحف المجاهدين إلى جيش الاحتلال الفرنسي في باقي البلاد المغربية، فأثار ذلك حمية إبراهيم طوقان، ووضع هذا النشيد لثورة الأمير الخطابي، يصور فيه مدى الانتصارات في قلوب العرب والمسلمين، الذين كانوا يسعون للتحرر من الاستعمار الأوروبي بعد سقوط الدولة العثمانية. انظر: الزركلي، الأعلام، 6/216؛ منير البعلبكي، موسوعة الموارد العربية، م754.

أصبحوا	أعبدًا بالسيوف	الحدادُ
ريفنا غائبنا	نحنُ فيه الأسود	ريفنا نحيمه

وفي سنة (1930/1348) عندما كان إبراهيم طوقان أستاذًا في كلية النجاح الوطنية بمدينة نابلس، طلب منه بعض طلبة المغرب العربي الذين كانوا يدرسون في الكلية أن يضع نشيدًا آخر للمغرب، فنظم نشيدًا بعنوان "فتية المغرب" قال (1):

فتية المغرب هيّا للجهاد نحنُ أولى الناس بالأندلس
نحن أبطال فتاهنا ابن زياد ولها تُرخصُ غالي الأنفس

وأكثر الأناشيد الوطنية التي نظمها إبراهيم طوقان ذبوعًا هو نشيد عنوانه "موطني" إذ نظمته للشباب الفلسطيني، ثم انتشر في أنحاء العالم العربي، حيث تحول إلى نشيد عام لكل عربي، قال (2):

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في ربائك
والحياء والنجاة والهناء والرجاء في هوائك

هل أراك سـالمًا مُنعمًا وغانمًا مكرمًا
هـل أراك فـي عـلاك

تبلغ السماك
موطني
موطني الشباب لن يكلَّ همُّه أن تسـتقلَّ أو يبيـد
نسـتقي مـن الردي ولن نكـون للعدى كالعبيد

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 261.

(2) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 264.

لا نريدُ

ذُلُّنا المؤبـدُ دا وعيشُنا المنكـدُ دا

لا نريدُ ذُ بـل نعيـذُ

مجدنا التليذُ

موطني

موطني الحسامُ واليراعُ لا الكـلامُ والنـزاع رمـزنا

مجدنا وعهـدنا وواجبُ إلـى الوفا يهـزُننا

عزُّنا

غايـة تشـرّف ورايـة ترفـرفُ

يا هـناكُ فـي عـلاكُ

قاهرًا عداكُ

موطني

قصيدة "حطين"

حَتَّ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانُ أَمِيرِ الشُّعْرَاءِ أَحْمَدُ شَوْقِي عَلَى النَّظْمِ فِي فَلَسْطِينَ وَقَضِيَّتِهَا،
قَالَ يَرْحُبُ بِشَوْقِي (1):

أَهْلَا بَرَبَّ الْمَهْرَجَانِ أَهْلَا بِنَابِغَةِ الْبِيَانِ
مَلِكُ الْقُلُوبِ الْمَسْتَقْلُ لَ بَعْرَشِهَا، وَالصَّوْلُجَانِ

ومنها:

أَهْلَا بِشَوْقِي شَاعِرِ الْ فُصْحَى وَمُعْجَزَةِ الْبِيَانِ
يَا بَاكِي الْفِيحَاءِ حَي نَ أَبَتْ تَقِيمُ عَلَى الْهَوَانِ
أَيَّامَ كَانَتْ وَرْدَةً بِدَمِ الْبَوَاسِلِ كَالْذَّهَانِ
أَرْسَلْتَ عَنْ بَرْدَى سَلَا مَكَ فِي لُظَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ

ثم يطلب منه النَّظْمَ في فلسطين، فيَهْزُهُ هَزًّا، قال:

عَرَّجَ عَلَى حَطَّيْنِ وَآخِ شَعْ يُشْجِ قَلْبَكَ مَا شَجَانِي
وَانْظُرْ هُنَاكَ هَلْ تَرَى آثَارَ يُوسُفَ فِي الْمَكَانِ
أَيَقِظُ صَاحَ الدِّينِ رَبِّ بَ التَّاجِ وَالسَّيْفِ الْيَمَانِي
وَمُثِيرَهَا شَعْوَاءَ أَيُّ يُوبِيَّةَ الْخَيْلِ الْهَجَانِ

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 95-97. نظم إبراهيم طوقان قصيدة "حطين" عندما عزم أحمد شوقي على زيارة فلسطين حيث أعدَّ الأدباء الفلسطينيون العدة لإقامة مهرجان تكريمًا له، لكنَّ الزيارة لم تتم، وقد هدف إبراهيم طوقان من القصيدة إلى إثارة أحمد شوقي، وهزّه لينظم شعرًا في قضية فلسطين، حيث لم ينظم شيئًا فيها، على الرغم من الصدى الكبير الذي تركه وعد بلفور في العالمين العربي والإسلامي.

ثم قال يُذَكِّرُه بما فعله صلاح الدّين الأيوبيّ بالفرنجة في معركة حطين، حيث لا سبيل للنّصر غير سبيله، قال:

حَطَّيْنُ يَوْمُكَ لَيْسَ يُنْ كِرُّ شَاهِدِيهِ الْخَافِقَانِ
تَتَطَّأِيْرُ الْأَرْوَاحُ فِيْ هِ، مِنْ السَّانِنِ إِلَى السَّانِنِ
وَتَرَى السَّهَامَ مَقْوَمًا تِ، فَوْقَ أَجْسَامِ حَوَانِ
فَإِذَا أَدِيمُ الْأَرْضِ أَحْ مَرُّ، مِنْ دَمِ الْإِفْرَنْجِ قَانِ
يُسْقَوْنَ مِنْ كَأْسِ الرَّدَى وَمَلِيْكَهُمْ ظِمَّانُ عَانِ
حَتَّى انْجَلَى رَهْجُ الْوَعَى وَالنَّصْرُ مَرْمُوقُ الْعَنَانِ
وَمَشَى صَلاَحُ الدِّينِ تَحْ تَ لَوَائِهِ فِيْ مَهْرَجَانِ
وَعَلَا الْأَذَانُ وَرَجَّعَتْ تَكْبِيْرَهُ شَرْفُ الْأَذَانِ

ومنها يُذَكِّرُ أحمد شوقي بالمصيبة في فلسطين، وقد خاطبه بكنيته "أبو علي"، تحبُّبًا، وتقربًا زيادةً في التأثير عليه، قال:

جَلَّ الْمَصَابُ أَبَا عَلِيْ يِ، فَابُكَ هَاتِيْكَ الْمَغْنَانِي
ذَهَبَ الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْهَوَانِ
فِيْ مَصْرَ يَطْمَعُ أَشْعَبُ وَهَنَا تَنَادَى أَشْعَبَانِ

ومنها:

خُذْهَا إِلَيْكَ وَأَنْتَ عَنْ هَا يَا أَمِيرَ الشَّعْرِ غَانِ

حسَناءَ فيها للصَّبا نَزَقَ على خَفَرِ الحِسانِ
نَفحاتُها من كَرَمَةٍ تُعزى إلى الحَسَن بن هاني
هيهات تَبْلُغُ شَأوَكَ الشُّ شُعراءُ يَوْمًا أو تُداني

قصيدة " عتاب إلى شعراء مصر "

عاتب فيها إبراهيم طوقان شعراء مصر بعامة، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، و خليل مطران بخاصة على عدم ذكرهم فلسطين في أشعارهم، على الرغم من مكانتهم الشعرية، ومن عظم المصيبة التي أوقعها الاحتلال البريطاني على فلسطين، وأهلها من خلال إصدار وعد بلفور؛ وذلك يُشير إلى حقيقة تأثير الإنجليز على الأدباء العرب في القضية الفلسطينية، والدور الذي كانت تقوم به المدارس والمذاهب الأدبية في توجيه الأدباء نحو موضوعات مُحددة من النظم بحجة التطور والتقدم، حيث كانت تتجنب التحريض على الجهاد لاحتلال الغربي، قال⁽¹⁾:

رَوْضُنا مِنْ رياضِكم فينان وَثَراناً مِنْ نيلِكم رِيان
وَهوانا لو تَقْدرون هَوانا كُلُّ قَلبٍ مِنْهُ لَكُمْ مَلائِ

ومنها يُعرَضُ بأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، و خليل مطران الذين هزتهم أحداث كثيرة في العالم؛ قديمة وحديثة، فنظموا فيها، بينما لم تهزهم أحداث فلسطين شقيقة مصر وجارتها، قال:

حَظَبنا لا يَهزُّ شَوْقي ولكنْ جاءَ روما فَهَزَّه الرُّومان
حَظَبنا لا يَهزُّ حَافظُ إبراهيم لكنْ تَهَزُّه اليابان
ما لِمَطران يا فلسطين شَأْنُ بكْ لكنْ لَهُ بنيرونَ شان

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص247-248.

قصيدة "هجاء المبشرين"

كان إبراهيم طوقان يعرف حقيقة الصراع في فلسطين، وأثّه صراع ديني، وقد تنبّه لما يقوم به المبشرون النصارى فيها، فقال قصيدة هجاءهم فيها وبين مخاطرتهم، منها قوله(1):

كَلَّا وَمَنْ خُتِمَ الرُّسُلَ الْكِرَامُ بِهِ وَمَنْ خَصَصْتَ بِمَرْجُو الشَّفَاعَاتِ
مَا كَانَ هَجْوِي سِوَى نَصْرِ لَدِينِكَ مِنْ مُبَشِّرِينَ أَتُونَا بِالرَّقَاعَاتِ
كَمْ أَظْهَرُوا رَحْمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَضْمَرُوهُ مِنْ عِدَاوَاتِ
إِنِّي لِأَرْجُو وَصَحْبِي أَنْ يَكُونَ لَنَا لَدَيْكَ عَنْ هَجْوِهِمْ حُسْنُ الْمَكَافَاتِ

قصيدة "ردّ على رثوبين شاعر اليهود"

وكان الشاعر اليهودي رثوبين نظم قصيدة عيّر فيها العرب بأن هاجر أم إسماعيل، عليه السّلام-جدّ العرب-جارية بينما سارة أم أسحق، عليه السّلام-جدّ اليهود-حرّة، فنظم هذه القصيدة ردّ فيها على الشاعر اليهودي ردّاً مُفحماً، وبين نقائص اليهود، قال(2):

يَا يَهُودِيَّ كَيْفَ عِلْمُكَ بِالتَّوْرَةِ رَاةَ قُلِّ لِي أَمْ فَائِذُكَ التَّعْلِيمُ
بَيْنَ أَسْفَارِهَا خَلَّاتُكَ عَنَّا مُبْتَدَاهَا وَمُنْتَهَاهَا تَمِيمُ
يُوسُفَ بَاعَهُ أَبُوكَ يَهُوذَا إِنَّ حُبَّ الدِّينَارِ فِيكُمْ قَدِيمُ
وَكَفَرْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ حَتَّى ضَاقَ دَرْعًا بِالْكَفْرِ مُوسَى الْكَلِيمُ
يَشْهَدُ التِّيَّةُ أَنْكُمْ شَعْبُ إِسْرَا نِيلَ شَعْبٍ مُنْذُ الْخُرُوجِ أَثِيمُ
يَشْهَدُ الْعَجَلُ أَنَّ الْوَاحِ مُوسَى يَوْمَ زَغْتُمْ أَصَابَهَا التَّحْطِيمُ

(1) عمر فروخ، هذا الشعر الحديث، ص163.

(2) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص113-116.

وَبُطُونُ التَّارِيخِ فِيهَا عَجِيبٌ وَغَرِيبٌ بَعَارِكُمْ مَوْسُومٌ
 أَيُّ رُؤُوبِينَ أَيْنَ أَلْوَا حَ مَوْسَى وَالْوَصَايَا فَكُلُّهُنَّ قَوِيْمٌ
 هُنَّ عَشْرٌ نَبَذْتُمُوها جَمِيعًا وَرَتَعْتُمْ فِي الْعَيِّ وَهُوَ وَخِيْمٌ
 وَتَقَضَيْتُمْ أَحْكَامَهَا فَإِذَا الْمَا لُ مَقَامَ الْإِلَهِ فَيَكُمُ يَقُومُ
 وَالرَّيَّا رَبُّكُمْ لَهُ صَنَمٌ الْحَر صَ مِثَالٌ أَنْتُمْ عَلَيْهِ جُثُومٌ
 وَإِذَا السَّبْتُ فِيهِ مَكْرٌ وَغَدْرٌ أَيْنَ فِيهِ التَّقْدِيسُ وَالتَّعْظِيْمُ
 وَعَكَسْتُمْ آيَاتَهَا فَإِذَا الْقِت لُ مُبَاحٌ وَالْفَسَقُ فَيَكُمُ عَمِيْمٌ
 فَجَهَلْتُمْ أَبَاءَكُمْ فَعُودُكُمْ وَاحْتِرَامَ الْأَبَاءِ فَيَكُمُ عَدِيْمٌ
 وَهَضَمْتُمْ حَقَّ الْجَوَارِ وَصِحْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ حَقْنَا مَهْضُومٌ
 كُلُّكُمْ شَاهِدٌ عَلَى الْحَقِّ زُورًا هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ شَأْنِهِ تَحْرِيْمٌ
 حَسْبُكُمْ لَا يُبَارِكُ اللَّهُ فَيَكُم إِنَّ شَاطِيطَانَ بَغِيْكُمْ لَرَجِيْمٌ
 فَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ أَمْسَتْ رَجُومًا مَا عَدْتُكُمْ وَاللَّهُ تِلْكَ الرُّجُومُ
 أَيُّ رُؤُوبِينَ أَيُّ شَعْبٍ تُنَادِي إِنَّ رَبًّا أَبْلَاذُهُ لَحَكِيْمٌ

قصيدة "تفاؤل وأمل"

كان إبراهيم طوقان يعي حقيقة مُدَّعي الوطنية، وخطورتهم على القضية الفلسطينية، وأهمية الشباب في الوقوف بوجههم، فنظم هذه القصيدة، وألفاهم في حفل نهاية السنة الدراسية، الذي أقامته كلية النجاح الوطنية في شهر (ذي القعدة 1347/ أيار 1929)، وقد بين فيها حقيقة أدياء الوطنية، وفضحهم، ودعا الشباب باعتبارهم

أمل الأمة- إلى عدم الانخداع بكلام هؤلاء، والتصدّي للأعداء، ومُحاربتهم وسيلة وحيدة لدحر الاحتلال البريطاني، وتحقيق الحرية، قال(1):

كَمْ قَلَبَتْ أَمْرَاضُ الْبِلَادِ وَأَنْتَ مَنْ أَمْرَاضِهَا
وَالشُّؤْمُ عَلَيْهَا فِهْلٌ فَتَشْتَعْنُ عَنْ أَعْرَاضِهَا
يَا مَنْ حَمَلْتَ الْفَاسَ تَهْدِي مَهْمَا عَلَى أَنْقَاضِهَا
اقْعُدْ فَمَا أَنْتَ الَّذِي يَسْتَعِي إِلَيَّ إِنْهَاضِهَا
وَانْظُرْ بَعَيْنِيكَ الذُّنَاءَ بَ تَعِيبُ فِي أَحْوَاضِهَا
وَطَنٌ يُبَاغُ وَيُشْتَرَى وَتَصِيحُ قُلُوبِي الْوُطَنُ
لَوْ كُنْتُ تَبْغِي خَيْرَهُ لِبَذَلْتُ مِنْ دِمَاكَ الْثَمَنُ
وَلَقُمْتُ تَضْمُّمُ جِرْحَهُ لَوْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْفُطْنِ

ومنها يدعو الشباب للجهاد، قال:

حَيِّ الشَّابَّابَ وَقُلْ سَلَامًا إِنَّكُمْ أَمَلُ الْعَالَمِ
صَاحَتْ عَزَائِكُمْ عَلَى دَفْعِ الْأَثَمِ الْمُعْتَدِي
وَاللَّهُ مَدَّ لَكُمْ يَدًا تَعْلَوْ عَلَى أَقْوَى يَدِ
وَطَنِي أَرْفُ لَكَ الشَّابَّابَ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ النَّدِي
لَا بُدَّ مِنْ ثَمَرِ لَهُ يُؤْمَا وَإِنْ لَمْ يَعْقِدْ

(1) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 89-91.

رِيحَانُهُ الْعِلْمُ الصَّاحِحُ وَرُوحُهُ الْخُلُقُ الْحَسَنُ
وَطَنِي وَإِنَّ الْقَلْبَ يَا وَطَنِي بِحَبْلِكَ مُرْتَهَنُ
لَا يَطْمَئِنُّ فَإِنْ ظَفِرْتَ بِمَا يُرِيدُ لَكَ اطمأن

ثانياً - المذهب الرومانسي⁽¹⁾

الرومانسيّة أو الرومانطيقيّة والرومانتيكيّة هي تعريب للفظّة الإنجليزيّة (رومانتك). وهي مشتقة من لفظّة (رومانس). ويطلق على المذهب الرومانسي - أيضاً- مصطلح المذهب الإبداعيّ أو الابتداعيّ. وقد أُطلقت كلمة (رومانس، أو رومانيوس) على الآداب واللّغات التي تفرّعت عن اللّغة اللاتينيّة القديمة، وهي: الفرنسيّة، والإيطاليّة، والإسبانيّة، والبرتغاليّة، والرومانيّة، والبروفنسالّيّة (أو البروفنسالّيّة الفرنسيّة، أو أرييتان، أو رموند)، والأخيرة هي لهجة تتحدث بها أقلّيّة في منطقة بروفنس جنوبي فرنسا.

وقد جاءت هذه اللفظة ثورة من الرومانسيين على آداب الإغريق واللاتين، ولغتهم، والدّعوة إلى الآداب القوميّة المتفرّعة عنهما بديلاً جديداً.

ولفظّة (رومانس) تعني: أحد أنواع القصص الذي شاع في القرون الوسطى - حسب التاريخ الأوروبي⁽²⁾ - في معظم البلدان الأوروبيّة الغربيّة بعامّة، والجنوبيّة الغربيّة منها بخاصّة. وكانت هذه القصص تُنظم شعراً، وتدور حول

(1) انظر: عز الدّين إسماعيل، الشعر العربيّ المعاصر، ص21، 25، 30-38؛ محمد خفاجي، حركات النّجديد، ص9؛ دراسات في الأدب، 305/1؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص241، 510؛ مصطفى السحرّي، الشعر المعاصر على ضوء النقد، ص214؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص189؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص194.

(2) القرون الوسطى: مصطلح غربي يطلق على الحقبة التاريخيّة الممتدة ما بين القرن الخامس والخامس عشر الميلادي، حيث بدأت بسقوط الامبراطورية الرومانية سنة (476م) وتنتهي بقيام الدول المملوكية وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي سنة (1517/923) مع عصر الاستكشاف الجغرافي والنهضة في أوروبا ثم الثورة الصناعيّة. وتقسّم العصور الوسطى إلى: قديم يمتد من القرن الخامس إلى العاشر، ومتوسط وهو القرن العاشر حتى النصف الأول من القرن الثاني عشر وفيها ظهرت الرومانكي (الرومي)، والقوطيّة وتمتد من (1150/554-1517/923) وبها تنتهي العصور الوسطى. وبلاحظ من ذلك أنه لا علاقة لهذا المصطلح بالتاريخ العربيّ الإسلاميّ. وبالتالي فإطلاقه على الأدب العربيّ والحضارة العربيّة الإسلاميّة خطأ كبير. انظر: الموسوعة العربيّة، 289/16.

مغامرات الفرسان، وبطولاتهم التي كانوا يقومون بها تمثلًا لفضائل الأخلاق، والإخلاص في الحب، وهم بذلك تأثروا بنظام "الفتوة الإسلامية" الذي أعاد تنظيمه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت 1225/622)⁽¹⁾.

ثم تطوّر معنى اللفظة إلى أن أصبح يعني: كلّ ما هو خيالي، وبعيد عن العقل، وقريب من العواطف والمشاعر. ثم استخدمت اللفظة نفسها في أوروبا للمدح والذم، ووصل استخدامها حدًّا جعلوها به مُصاحبة للمشاعر اللذيذة المستمدة من الطبيعة، أو الشعر، أو الموسيقى.

ثم ميّز الأوروبيون بين الرومانسية والكلاسيكية في الشعر بأن قالوا: إنّ كلّ شعر يُثير الخيال والعواطف هو شعر رومانسيّ. وإنّ كلّ شعر يتّصف بجزالة الألفاظ، وقوّة التراكيب، والحكمة، والرصانة في المعاني هو شعر كلاسيكيّ.

نشأة الرومانسية

ظهرت الرومانسية -أولًا- في بريطانيا، في الحقبة ما بين (1789/1204 و 1830/1246)، ووُصفت وقتذاك بأنّها ثورة في مجال الشعر، ثم تبعتها حركة مُشابهة في فرنسا وألمانيا، ثم انتقلت من الشعر والنثر إلى باقي الفنون الجميلة وهي: الرّسم، والنّحت، والموسيقى.

وأبرز شعراء الرومانسية في الغرب هم: "كولردج"، عاش ما بين (1770/1184 و 1722/1135 و 1834/1250)، و"وليم وردز روث"، عاش ما بين (1770/1184 و 1850/1267)، و"شيلي"، عاش ما بين (1792/1207 و 1882/1300)، وهم من بريطانيا. و"يوهان فولغانغ غوته"، عاش ما بين (1749/1163 و 1832/1248) من ألمانيا. و"فيكتور هوجو"، عاش ما بين (1802/1217 و 1885/1303) من فرنسا، و"إكسندر بوشكين"، عاش ما بين (1779/1193 و 1837/1253) من روسيا، و"إدجار آلان بو"، عاش ما بين (1809/1224 و 1849/1266) من أمريكا.

أما في الوطن العربيّ، فقد ظهرت الرومانسية -أولًا- على جانب الكلاسيكية في العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجريّ/ أواخر القرن التاسع عشر الميلاديّ، في مصر، حيث كانت بداياتها من خلال ترجمة بعض آثار يوهان غوته الألماني، وأناتول فرانس، الذي عاش ما بين (1844/1260 و 1924/1343)، وأفريد دي موسيه،

(1) الفتوة: تنظيم سياسي عسكري وجهادي تربوي، أعاد تنظيمه الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن محمد (ت 1225/622) وذلك سنة (1182/578)، ونشره في بلاد الخلافة لأهداف جهادية وأخلاقية. انظر: ابن المعمار، الفتوة، ص38؛ مشهور الحُبّازي، دور الفتوة، ص6.

الذي عاش ما بين (1810/1225 و 1857/1274) وهما من فرنسا وغيرهم، حيث أثرت تلك الترجمات تأثيراً كبيراً وواسعاً في الأدباء بمصر وغيرها من بلدان الوطن العربي.

وأول مَنْ دعا إلى الرومانسيّة خليل مطران في مصر، وجبران خليل جبران في المهجر، فكان الاثنان أول الدّاعين لتغريب الشعر العربيّ، ثم تعزّزت دعوتهما على أيدي ثلاث مدارس (مذاهب) هي: الدّيوان، وأبولو، والمهجر.

والرومانسيون العرب دعوا إلى تحطيم الأدب العربيّ الأصيل الذي سمّوه (الكلاسيكيّ)، واستبداله بأدب جديد يسير في ركاب الأدب الغربيّ، ويحاكيه في كلّ شيء. وقد تمثّلت دعوتهم في الآتي:

1. الدّعوة إلى تحطيم القيم التي يقوم عليها الأدب العربيّ الأصيل، (سماه الرومانسيون: الكلاسيكيّة احتذاء بالغرب).

2. الدّعوة إلى العودة إلى أحكام: الذوق، والعاطفة، والإلهام.

3. تمجيد الطبيعة، والتّغنّي بجمالها الحرّ البسيط، والعيش في أحضان الرّيف.

4. الدّعوة إلى الاهتمام بالشّعر الوجدانيّ الذاتي، والغنائيّ العاطفيّ.

5. إلّزام البساطة في التفكير والتعبير، والتّذوق والشعور، وترك النّفس على سجيّتها بعيداً عن التّكلف.

6. الاهتمام بمشاعر الفرد الخاصة والتّغني بها؛ فالرومانسيّ حسّاس يتأثر وينفعل سريعاً؛ لذلك فهو يعيش في صراع دائم مع المجتمع، ذلك هو صراع التّأثر.

7. الحنين إلى المجهول، والمطلق غير المحدود، الذي يكشف أعماق الإنسان.

8. تفضيل مضمون الشعر على شكله.

9. استخدام لغة بسيطة، وألفاظ مألوفة، وإذا ما استخدمت الرومانسيّة ألفاظاً غريبة، فإنّها تكون محاولة لاكتشاف أساليب تعبيرية جديدة.

10. الإكثار من الصور والتشبيهات، مع الميل بالخيال إلى الأحلام والضبائية.

11. تنويع الأوزان والقوافي بهدف إثارة القارئ.

وبهذه المبادئ تكون الرومانسيّة قد دعت إلى اعتماد أساس جديد للحكم على العمل الأدبي، وهو: ذوق القارئ، ومدى تأثير حساسية الأديب في حساسية القارئ، ومدى كشفه عن حقيقة الإنسان العميقة.

العوامل التي أسهمت في نشوء الرومانسيّة

أسهمت عوامل عديدة في نشوء الرومانسيّة في الأدب العربيّ، وأهمها:

1. البعثات العلميّة إلى أوروبا، التي فتحت أفقًا جديدًا أمام الأدباء والمفكرين العرب المبتعثين، حيث تعرّفوا على مناهج تفكير، وتصوّرات جديدة في المعرفة، فنظروا للتراث العربيّ الإسلاميّ نظرة احتقار، حتى كادت تنعدم صلة أغلبهم به. وشجعهم على هذه الرؤية المستشرقون الذين تولّوا تعليمهم، فزرعوا فيهم اتهامات كثيرة للتراث العربيّ الإسلاميّ، حيث طعنوا في كثير من النماذج التراثيّة العربيّة الإسلاميّة، وشوّهوها بكلّ الوسائل الممكنة.
2. الاطلاع على الثقافة الغربيّة، والأدب الغربيّ من خلال المناهج الدراسيّة في المدارس الأجنبيّة، والإرساليات التبشيرية. وفي مصر أجبر مسؤول التعليم في الاحتلال البريطانيّ المدعو فرانسيس- وكان أستاذًا للأدب الإنجليزيّ في جامعة أكسفورد- طلبة المدارس والمعاهد العليا على دراسة مختارات من الشعر الإنجليزيّ الغنائيّ تعود إلى الحقبة ما بين (بداية القرن الحادي عشر الهجريّ/ السابع عشر الميلاديّ وحتى نهاية الثالث عشر الهجريّ/ القرن التاسع عشر الميلاديّ)، والتي سمّاها "الكنز الذهبي" وقد صرّح كثير من الأدباء العرب بتأثرهم بهذه المختارات، ومنهم: إبراهيم عبد القادر المازني، وعباس محمود العقاد، وأحمد زكي أبو شادي، و بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة وغيرهم كثير. كما اعترفوا بتأثرهم بما تمّ ترجمته من الآداب الغربيّة، ونشره في الصحف والمجلات المتنوعة فضلًا عن نشر بعضها في كتب خاصة أو في بعض دواوين الشعراء، كما فعل إبراهيم عبد القادر المازني، إذ ترجم مجموعة قصائد شعريّة، ونشرها في مطلع الجزء الثاني من ديوانه.
3. نشوء الوعي الفرديّ في كثير من المجتمعات الغربيّة، ثم نشوء الطبقة الوسطى جرّاء ظهور النشاط التجاريّ، والصناعيّ، والعلميّ، وقد تأثر الأدباء العرب بذلك، ودعوا إليه، كما أنّ الاستعمار الغربيّ للدول العربيّة أسهم في تقسيم المجتمع العربيّ إلى طبقات مختلفة.
4. الصراع الذي أحدثه الاستعمار، والمستشرقون، ودعاة التغريب بين الإسلام والقوميّة.

5. الحملة العنيفة والظالمة التي شنّها المستشرقون وتلاميذهم على الأدب العربيّ ما بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وحتى احتلال نابليون مصر، ووصفه بأحط الصفات من دون أي دليل عملي.

مقارنة بين المذهب العربيّ الأصيل (الكلاسيكيّة) والرومانسيّة

قارن دعاة التغريب (التجديد) بين المذهب العربيّ الأصيل والرومانسيّة في الأدب من وجهة نظرهم؛ فادّعوا وجود فوارق كثيرة كلّها تصبّ في مسعاهم لتحطيم الأدب العربيّ الأصيل، وإنهاء التعامل به، وبخاصة الأدب الذي أطلقوا عليه اسم: أدب الانحطاط، والانحدار، والجمود، وهو الذي يُغطي أطول حقبة زمنيّة في التاريخ العربيّ الإسلاميّ، وأهم تلك الفوارق هي:

1. الشعر ينبع من العاطفة الفرديّة سواء أكانت ناتجة عن الحب أم ثوريّة ناتجة عن السياسة. والفردية هي التي تُضفي الشكل والمعنى على مجموع العواطف والأفكار، التي يشترك فيها الشاعر الرومانسي مع جمهوره.
2. الإبداع عند الكلاسيكيّة ينتج عن المعاناة التي تصل إلى أنماط ثابتة ومستقرّة، أمّا الرومانسيّة فتسعى للتضحية بالأنماط الكلاسيكيّة الثابتة، بهدف التغيير والاكتشاف، وهذا هو الجانب الثوري فيها.
3. تهتم الرومانسيّة بوحدة الشكل في القصيدة، أي وحدة الجو النفسي المشحون بدفقه العاطفيّ، لا في الرقعة المحدودة التي تفرضها القواعد والأصول عند الكلاسيكيّة، ما ينتج عنها تفكك القصيدة، وذلك حسب اعتقادهم.
4. يستخدم الرومانسيون اللغة البسيطة في نظم أشعارهم، أمّا الكلاسيكيون فيستخدمون الألفاظ الجزلة، والتراكيب المتينة. وهي عند الرومانسيين ألفاظ مهجورة، وأساليب لا تتصل بالعصر الحديث. وبناء على ذلك فضّل ميخائيل نعيمة الأفكار على اللغة بعكس ما قاله الجاحظ، قال نعيمة: "القصيدة من الأدب هو الإفصاح عن عوامل الحياة كلّها، كما تتناوب من أفكار وعواطف. وأنّ اللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها، وعواطفها. وأنّ للأفكار والعواطف كياناً مستقلاً ليس للغة، فهي أولاً واللغة ثانياً. وأنّ كلّ القواميس، وكتب الصّرف والنحو في العالم لم تُحدث يوماً ثورة، ولا أوجدت يوماً أمة، لكنّ الفكر والعاطفة يُجدّدان العالم في كلّ يوم. وأنّ اللغة في أدقّ تراكيبها ليست سوى مُستودع رموز نرّمز بها إلى أفكارنا وعواطفنا. وأتّه يحسن بنا الاحتفاظ بهذه الرّموز ما دُمنا قاصرين عن استبدالها بأدقّ منها، وأنّ بعض هذه

الرّموز يُصبح على مرّ الأيام طلاسماً، فالأجدرُ نبذُهُ. وأنّ الشعراء والكتاب هم واضعوا هذه الرّموز، وهم أولياؤها، وأتته إذا غيّر شاعر أو كاتب رمزاً من رموزكم المألوفة، أو جاءكم برمز جديد فليس في ذلك ما يدعو إلى القلق والخوف؛ لأنكم إذا أحببتم الرّمز الجديد ستحتفظون به، رضي النّحاة أم سخطوا، وإذا أعرضتم عنه فسيتلاشى من تلقائه.

وأنّ للأدب ضفادع لن يُدركوا هذه الحقائق ما دامت الألف ألفاً والياء ياءً. وأنّ لهذه الضفادع مسالك في درسها تسلية وعبرة⁽¹⁾.

وميخائيل نعيمة بذلك يرى أنّه لا توجد ألفاظ شعريّة وأخرى غير شعريّة، بل تأثير اللفظة العاطفي يقوى ويتعمّق بمقدار ألفة القارئ لها، وإقباله على استخدامها. وهذا الرأي مُخالف لقواعد بلاغة الكلمة، وفصاحة الكلام كما وضعها علماء البلاغة العرب والمسلمون.

5. الكلاسيكيون يصفون الطبيعة بموضوعيّة كما هي، أما الرومانسيون فيصفونها من خلال ذواتهم؛ لأنهم يرونها انعكاساً لما يخالط نفوسهم من انفعالات وأحاسيس.

6. الكلاسيكيون يعتمدون—غالباً—مصادر التراث العربيّ الإسلاميّ؛ لإثراء مضامينهم الشعريّة، وهي: القرآن الكريم، والسنة النبويّة الشريفة، والمرويات والأمثال، والتراث الشعبي، والمواقف التاريخيّة، والشخصيات العربيّة الإسلاميّة، والشخصيات الإنسانيّة.

أما الرومانسيون فيعتبرون ذلك من الماضي الذي يجب تجاوزه، وعليه فقد ارتدّوا إلى استخدام الأساطير الإغريقيّة، والرومانيّة، والفرعونيّة، والبابليّة وغيرها، ثم اعتمدوا أفكاراً استوحوها من التراث المسيحيّ، واليهوديّ، والوثنيّ، والهنديّ، والبوذي وغيرها مما يُحارب الإسلام ويُعاديّه، وذلك بادّعاء الإنسانيّة التي يفتقدونها في كلّ شيء.

وهنا يجب ملاحظة أنّ رفضهم التراث العربيّ واستبداله بالتراث غير العربيّ هو مناف لدعوتهم القوميّة.

7. يتميّز الشعر الرومانسيّ بسيادة نغمة العذاب الحلو، والألم اللذيذ، والحزن الوديع، حيث يصف الشاعر عذاب نفسه، وآلام قلبه، وكآبة روحه بسبب انفصاله عن المحبوبة.

(1) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص 105-106.

8. الشّاعر الرومانسيّ ثائر على مجتمعه أو منبوذ منه؛ ولذلك فإنّه ينعزل بنفسه، فيعيش في الماضي السعيد، أو الطفولة البريئة، أو البلد البعيد، أو المنظر الجميل، فيجعله عالمًا مثاليًا له.

من أعلام المدرسة الرومانسيّة

ينتمي عدد غير قليل من شعراء العربيّة، وكتابها إلى الرومانسيّة، وقد رأيت أن أترجم لاثنتين من هؤلاء، وهما:

1- جبران خليل جبران ميخائيل، عاش ما بين (1301/1883 و1931/1350)⁽¹⁾

ولد في قرية بشرى قرب نبع قاديشا بלבنا، لعائلة فقيرة، كانت هاجرت من دمشق إلى بعلبك، ومنها إلى بشرى. التحق بمدرسة القرية، وعندما اعتقل الوالي العثماني والده، وتمّ سجنه بتهمة اختلاس أموال الرسوم التي كان يجبيها عن الماشية في منطقته بحكم وظيفته، وصادر ممتلكاته، هاجر-ولمّا يكمل دراسته الابتدائية-مع أمّه وأخيه الأكبر بطرس، وأختيه ماريانا وسلطانة إلى مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية سنة (1895/1313). وقد سكن في الحيّ الصينيّ الفقير.

في مدينة بوسطن أرسله أخوه بطرس إلى المدرسة؛ ليتعلّم اللغة الإنجليزيّة، ثم أعاده إلى بيروت ليدرس اللغة العربيّة، فدرس أربع سنوات في مدرسة الحكمة، ثم عاد إلى بوسطن ليجد مرض السلّ قد انتشر في أسرته، فأخذ أخته الصغيرة سلطانة، وبعد عام قضى على أمّه، ثم على أخيه بطرس، وبقيت له أخته ماريانا التي عملت بالخياطة المنزليّة لمساعدته على العيش.

وعندما بلغ جبران خليل جبران العشرين من عمره بدأ الكتابة الأدبيّة، وعمل بالرسم، ولاقت رسوماته نجاحًا في المعارض التي كان يُقيمها في بوسطن. وفي أحد المعارض تعرّف إلى "ماري هاكسل"⁽²⁾ التي تولّت رعايته ومساعدته في ميدان

(1) انظر ترجمته في: ميخائيل نعيمة ، جبران خليل جبران ، ص 13-360؛ أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران: ترجمة جبران، ص11-15؛ عمر فروخ، هذا الشعر، ص22؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص334؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص370؛ عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص343؛ مارون عبود، مجدّدون ومجتزّون، ص160؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة، ص71؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص295؛ فواز طوقان، أسرار تأسيس الرابطة، ص173.

(2) ماري هاكسل هي: سيّدة أمريكيّة ، ثريّة زارت معرض رسومات لجبران سنة (1904/1322)؛ فأحبّته ، وأرسلته إلى باريس لدراسة مبادئ الرسم سنة (1908/1326) على يدي النحات أوغست رودان، ورأى عمر فروخ أنه لم يلق رودان فلم يُحقّق رغبة هاكسل. انظر: أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص14؛ عمر فروخ، هذا الشعر، ص157؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص355.

الرسم، وفي عام (1908/1326) أرسلته إلى باريس لتعلم الرسم على كبار رسّامي فرنسا وأوروبا، فتعلم على الرسّام "رودان" صاحب تمثال القبلة، وحصل على الدبلوم العالي في الرسم من معهد الفنون الجميلة في باريس.

عاد جبران خليل جبران إلى بوسطن بعد ثلاث سنوات قضّاها في باريس، فمكث فيها سنة، ثم انتقل إلى نيويورك سنة (1912/1331) واستقرّ بها، يكتب النثر، وقليلًا من الشعر، ويرسم، لكنّه لم يُحقّق نجاحًا يُلبّي رغباته بسبب عدم رواج كتبه التي ألفها بالعربيّة أو رسوماته.

في عام (1920/1339) أسّس مع ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي "الرابطة القلميّة"، ومنذ ذلك الوقت بدأ يُؤلّف باللّغة الإنجليزيّة، فأصدر ثمانية كتب في ثمان سنوات، لاقت رواجًا كبيرًا في المجتمع الأمريكي، وحقق منها الثروة التي كان يسعى إليها، فتغيّرت حياته، وتوقف عن الشكوى، وذكر ألم الحياة ومرارتها. واستمرّ يمارس الكتابة حتى توفي سنة (1931/1350) في أحد مشافي نيويورك، ونقل جثمانه إلى بلدته بشرى بلبنان، ودُفن فيها.

دعوته إلى التغريب (التجديد)

كان جبران خليل جبران أكثر أعضاء "الرابطة القلميّة" تأثيرًا في الدعوة إلى السير في خطى الآداب الغربيّة من حيث ما أسماه التحرّر من قيود الوزن والقافية، والخروج على قواعد اللّغة، واستخدام الألفاظ العامية، لا بل تحطيم ما أسماه الأدب القديم كله، وقد جاء هجومه على اللّغة في مقالات عدّة أهمها مقال بعنوان "لكم لغتكم ولي لغتي"⁽¹⁾.

وقد جاءت دعوة جبران منسجمة مع دعوة ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي التغريبية، وبتأثير واضح من مصادر تكوين ثقافتهم المسيحيّة، واللغات الأجنبية التي أتقنوها، ودرسوا آدابها؛ فجبران أتقن الإنجليزيّة والفرنسيّة ودرس آدابهما، حتّى أنّه ألف كتبًا كثيرة بالإنجليزيّة لاقت رواجًا أكثر من كتبه باللّغة العربيّة. وميخائيل نعيمة درس الروسية في الناصرة بفلسطين، ثم في مدينة "بولتافا" بروسيا (اليوم هي مدينة في جمهورية أوكرانيا)، ثم أتقن الإنجليزيّة والفرنسيّة، ودرس آدابها، فكان أن وضع دستور الرابطة جامعًا فيه رأي جبران إلى رأيه. قالت عزيزة مريدن "لم تكن ثقافة أعضاء "الرابطة القلميّة" واحدة، بل إنهم تفاوتوا بحسب المدارس التي درسوا فيها،

(1) انظر: أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص 93.

والثقافة التي تلقوها خلال الظروف التي تعرضوا لها، ولكنهم كلهم مسيحيون متأثرون بالإنجيل وتعاليمه -على تفاوت فيما بينهم- إذ تلقى معظمهم دراسته الابتدائية في مدارس القرية الطائفية التي كانت تُدرّس الإنجيل⁽¹⁾.

آثاره

لم يكتب جبران خليل جبران إلّا ديواناً شعرياً واحداً، لا بل قصيدة واحدة جاءت في مائتين وثلاثة أبيات طبعت في كتاب طبعات عديدة بعنوان "المواكب"، وقد زينه برسوم رمزية⁽²⁾. فيما ألف أكثر من عشرين كتاباً نثرياً في موضوعات متنوعة باللغتين العربية والإنجليزية، وأهم كتبه هي:

1-دمعة وابتسامة.

2-العواصف.

3- البدائع والطرائف. وهذه الكتب الثلاثة ضمت أغلب ما كتبه جبران باللغة العربية، وهو عبارة عن (مائة وثلاثة) مقالات وقطع أدبية وقصيدة واحدة فقط⁽³⁾.

4- الموسيقى.

5- الأجنحة المتكسرة.

6 - عرائس المروج.

7- النّبيّ.

8- المجنون.

9- رماد الأجيال.

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص213.

(2) انظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، ص254. وذكر أنّ له ديوان شعر، صدر في نيويورك؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص370. وذكر له قصيدة بعنوان "البلاد المحبوبة"، وقال إنه نظم قصيدة بالإنجليزية بعنوان "يسوع يقرع الباب"؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة، ص75. وذكر أن قصيدة "المواكب" جاءت على بحر البسيط، ومجزوء الرمل، وأنها القصيدة الوحيدة الموزونة والمقفاة، وأنه سبق ونظم قليلاً من الشعر الموزون في حالات عاطفية.

(3) انظر: فواز طوقان، أسرار تأسيس الرابطة، ص173؛

10- النار الخالدة.

11- حقار القبور.

12- آلهة الأرض.

7- يسوع ابن الإنسان.

14- التائه.

15- رمل وزبد.

16- الأرواح المتمردة وغيرها.

وقد عرض جبران خليل جبران في كتبه أفكاره التي تراوحت ما بين الإيمان بتناسخ الأرواح، والكفر. وبعض كتبه تُرجم إلى لغات عديدة، وبخاصة كتاب "النبي" الذي وضّح فيه رأيه في حياة الإنسان؛ كيف ولد، وكيف يأكل، ويشرب، ويُحب، ويتزوَّج، ويفرح، ويحزن ويموت؟، وذلك في أمثال ومواعظ.

نموذج من شعره

نظم جبران خليل جبران قصيدته "المواكب" سنة (1918/1337) بُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان ما زال فقيراً، بل زادت سنوات الحرب فقره وبؤسه، وجعلها على لسان جيلين مُتباعدين، وبصوتين مختلفين هما:

جيل الشيخ وصوته، وهو يخرج من المدينة ينوء بهمومها، ومشاكلها، وآلامها، وهو بذلك يصوّر حقيقة المجتمع البشري، والواقع الذي يعيش.

وجيل الفتى وصوته، وهو يخرج من الغاب عارياً، فيُمثّل حقيقة الحياة المجردة من نفاق المجتمع، وآثامه. وقد زين صفحات قصيدة "المواكب" بأحد عشر رسماً رمزياً لا يكاد أحد يفهمها. وقصيدة "المواكب" عبارة عن سلسلة من صور متعاقبة، تبدأ بالشيخ يقول عن حياة المجتمع التي يعيشها⁽¹⁾:

الخيرُ في النَّاسِ مصنوع إذا جُبروا والشَّرُّ في النَّاسِ لا يفنى وإن قُبروا

وأكثرُ النَّاسِ آلاتٌ تُحرّكها أصابعُ الدَّهرِ يومًا ثمَّ تنكسرُ

فأفضلُ النَّاسِ قطعانٌ يسيرُ بها صوتُ الرُّعاةِ ومَنْ لم يمشِ يندثرُ

(1) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص 378.

وجاء ردّ الفتى الخارج من الغاب عاريًا على الشيخ بقوله:
ليس في الغابات راع لا ولا فيه القطيع
فالشّتتا يمشي ولكن لا يُجاريه الربيع
أعطني الثّاي وغنّ فالغنا يرعى العقول
وأنين الثّاي أبقى من مجيد وذليل

ويستمر تتابع القصيدة، فكلما رسم الشيخ صورة سيئة لحياة المجتمع (البشر) بما فيه من: تقاليد، وعادات، وعقائد، يردّ عليه الفتى مُذكرًا إيّاه بجوهر الحياة النقي الصافي حيث: لا نفاق، ولا اختلاف في العقائد، والعادات والتقاليد، ولا شيء ممّا أفسده البشر في مجتمعهم.

وفكرة هذه القصيدة في الحقيقة منتحلة من قصة "حي بن يقظان" للفيلسوف المسلم محمد بن عبد الملك الأندلسي، المعروف بابن طفيل (ت 1185/581)، لكنّ جبران خليل جبران جعل حياة المدينة الفاسدة بشهواتها وملذّاتها تنتصر على دعوة الفتى الخارج من الغاب، وذلك على عكس فكرة قصة "حي بن يقظان" التي انتصرت فيها حياة الفطرة على الحياة التي أفسدها شياطين الإنس والجن، قال على لسان الشيخ منهياً القصيدة:

العيش في الغاب، والأيام لو نُظمت في قبضتي لغدت في الغاب تنتشر
لكن هو الدّهر في نفسي له أربّ فكلّما رُمْتُ غابًا راح يعتذر

2- خليل عبده مطران، عاش ما بين (1872/1289 و 1949/1369)⁽¹⁾

(1) انظر ترجمته في: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 703/2؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص259؛ محمد خفاجي، دراسات في الأدب، 305/1؛ سامي الدّهان، قدماء ومعاصرون، ص214، شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص121؛ عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص307؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص193، جمال الدين الرمادي، من أعلام الأدب، ص237.

ولد في بعلبك لأبٍ مسيحيّ كاثوليكيّ، كان من وجهاء المدينة، وأم فلسطينية هي الشاعرة ملكة الصبّاح، فحبّبت إليه الشعر.

تلقّى تعليمه الأول في بعلبك، ثم في زحلة، وأكمل تعليمه المدرسيّ في الكليّة البطريركيّة للروم الأرثوذكس ببيروت، حيث تخرّج فيها سنة (1889/1307) وهو ابن سبعة عشر عاماً، وقد أتقن الفرنسيّة إضافة للعربيّة، وعمل مدرّساً في الكليّة ذاتها، فعلم طلبتها اللغتين العربيّة والفرنسيّة، فيما اهتم بإتقان اللغتين الإنجليزيّة والتركيّة.

وفي الكليّة البطريركيّة بدأ خليل مطران مهاجمة الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، بتأثير من أستاذه إبراهيم اليازجيّ، فنظّم عدّة قصائد تدعو إلى التمرّد عليها، وتبثّ روح العصبية القوميّة، التي استخدمها المبشّرون، وأساتذة المدارس الإرساليات المسيحيّة، وسيلة لتمزيق الدولة العثمانيّة، وخدمة لأهداف الدول الاستعمارية المسيحيّة، وبخاصة بريطانيا، وفرنسا، وروسيا القيصريّة. قال في إحداها⁽¹⁾:

بني العرب فيم الصبر والحال ما نرى ويأبى علينا الخسف تاريخنا قدما

وحثّام نطوي الليل والليل دامسٌ ونحتمل الإجحاف والضيم والظلما

وعندما سمع والي بيروت القصيدة حدّر خليل مطران من الاستمرار في التحريض على الفتنة، لما في ذلك من إضرار بالدولة والمجتمع، وخدمة للاستعمار، إلّا أنّ خليل مطران لم يرعو، واستمرّ في معاداة الدّولة العثمانيّة الإسلاميّة. ثم هاجر إلى باريس سنة (1890/1308) ليواصل حملته على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، وهناك اتصل بجمعية "تركيا الفتاة"، المناهضة للدّولة العثمانيّة وعمل معها، وبشّر بأهدافها الداعية لتمزيق الدولة العثمانيّة الإسلاميّة.

وفي مقابل التحريض على الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، كان خليل مطران مُعزّماً بنابليون بونابرت (ت1821/1237) الحاقّد على الإسلام والمسلمين، فجعل أول قصائد ديوانه في مدحه عندما انتصر على ألمانيا في معركة (يانا) سنة (1806/1221)، والإشادة به باعتباره نموذجاً له ولأمثاله من نصارى الشرق المُستعربين؛ وذلك على الرّغم من أنّ نابليون بونابرت هو الذي احتل مصر؛ فدمرها، ونهبها، وقتل ثمنَ مواطنيها، وأفسدها. ومطلع قصيدة خليل مطران هو⁽²⁾:

(1) انظر: أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص270.

(2) خليل مطران، ديوان الخليل، 15/1.

مَشَتِ الجبالُ بهم وسالَ الوادي
ومضوا مهادًا سِرْن فوقَ مهادٍ
ومنها في مدح نابليون وقيادته:
نفرت طلائع خيله مندُ الضحى
فاتوا كما يجري الأتيُّ مُشعَّبًا
في غير مجرى مائه المعتادِ
وكانَ نابليونَ في إشرافه
المجدُّ رَهْنُ إشارةٍ بيمينه
والفخرُ في راياته متملُّ
كالهائط المرصوص من أجساد
فتَهَيَّأ الألمان لاسـتقباله

ثم قال يفخر بما فعله الجيش الفرنسي بالألمان بعدما حقق النصر:
ما زال يفتك بالنفوس زواهق
وكانَ تلكَ هنيهة الميعادِ
حتى تولى الدَّعْرُ جيشَ بُروسِيَا
فسعى الفرنسيونَ في آثارهم
يستكبرُ الصُّعلوكُ منهم دائسًا
واستفتحوا برلينَ وهي منيعة
وأقام أصحابُ البلادِ ماتمًّا
ناحت عرائسهم على أزواجهما
وقضوا بها الأيامَ كالأعيادِ
وكسوا على القتلى ثيابَ حدادِ
والأمهاتُ بكّت على الأولادِ

واشتدَّ حزنهم ولم يكُ مُجدياً من بعد فقد أحبّة وبلاد

ولا أمراً يدعوهُ فهو سامعٌ وتستمعُ الأقدار حين يقولُ

ثم فخر بجيش نابليون، الذي كان احتل مصر، قال:

وتفديكِ جنْدٌ في الحروبِ أعزّة وأنْت بلا سَهْمٍ أصابَ قتيْلُ

ولا شكَّ في أنَّ مَنْ يقول هذا الشعر يكون مؤمناً به، فهو صادر عن عاطفة صادقة، وإحساس بالفخر بهذا النصر. وإن قال قائل: إنَّه في القصيدة ذاتها، أشاد بانتصار ألمانيا على فرنسا في عهد نابليون الثالث (ت1873/1290) واحتلالها باريس، فالجواب: إنَّه ذكر ذلك في ثمانية أبيات، وعلى أنه ثار لما كان في وقعة "يانا" ليس إلّا.

وما يؤكد عمل خليل مطران لصالح فرنسا أنَّه لم يُبق من شعره في صباه إلّا هذه القصيدة كما قال هو نفسه. فضلاً عن أن مَنْ يُطالع ديوانه يجد أنَّه كان غربيّ الهوى. وإلّا ما الذي يدفعه لرثاء ملكة بريطانيا فكتوريا سنة (1901/1319)، وهي التي كان جيشها يحتل وطنه الثاني مصر، قال(1):

بُؤوكِ فروعٌ للعلى وأصولُ ومُلككِ ما للشمس عنهُ أفولُ

وسعدُكِ في الأمثال سارَ ولم يكنْ له في سعود المالكين مثيلُ

وما شهد الأقوامُ قبلكِ سيِّداً يُطاعُ مطيعاً قومهُ ويصولُ

كما أنَّه مدح نابليون حتى وهو يحتضر في منفاه، قال(2):

قالوا لنابليونَ ذات عشيةٍ إذ كان يرقبُ في السَّماءِ الأنجما

هل بعدَ فتح الأرض من أمنيّةٍ فأجاب: أنظرُ كيفَ أفتَحَ السَّما

(1) خليل مطران، ديوان خليل ، 59/1.

(2) خليل مطران، ديوان خليل ، 133 / 1.

وقد أمضى خليل مطران في باريس سنتين، عزّزَ فيهما ثقافته الفرنسيّة، فدرس التاريخ الفرنسيّ، واطّلع على الأدب الفرنسيّ، ولا سيما أدب "ألفريد دي موسيه"، كما اطلع على الأدب الإنجليزي وبخاصة أدب "شكسبير"، فقلّد الأدبين، وبدأ هجومه على الشعر العربيّ.

وقد تعلّم خلال وجوده في فرنسا اللغة الإسبانيّة كي يهاجر إلى أمريكا الجنوبيّة، لكنّه هاجر إلى مصر، وبقي فيها إلى وفاته.

وفي مصر نزل الإسكندرية، فصادف ذلك وفاة "بشارة تقلا" مؤسس جريدة "الأهرام"، فرثاه بقصيدة أعجبت أخاه "سليم تقلا" الذي عيّنه مساعدًا له في تحرير "الأهرام"، ما زاد في شهرته.

في مصر بدأ حياته صحفيًّا في "الأهرام"، ثم تولّى تحريرها، وشارك في تحرير جريدتي "اللواء" و "المؤيد". ثم في سنة (1900/1318) أصدر مجلة شهرية باسم "المجلة المصريّة" لثلاث سنوات، ثم حوّلها إلى جريدة يوميّة باسم "الجوائب" التي استمرّت خمس سنوات.

وقد أوصلته الصحافة إلى الخديوي عباس الثاني، حيث اصطحبه ممثلًا لجريدة "الأهرام" في رحلته إلى الآستانة (إستانبول)، كما اتصل بشعراء مصر، والوطن العربيّ، ونادهم، وراسلهم في شعره، ومنهم: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وأحمد زكي أبو شادي وغيرهم كثير. وعلى الرّغم من شاعرية خليل مطران التي عمّت أغلب أغراض الشعر العربيّ إلّا أنّه لم ينظم بيتًا واحدًا في مأساة فلسطين بعامة، ووعد بلفور بخاصّة، وقد لاحظ ذلك الشّاعر الفلسطينيّ إبراهيم طوقان، فدعاه دعوة صريحة في قصيدته "عتاب إلى شعراء مصر"، للنّظم فيهما، لكنّه لم يستجب للدّعوة.

شاعريته

بدأ خليل مطران نظم الشعر، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد بدأ بنظم الشعر العربيّ الأصيل بألفاظ جزلة، ومعان سهلة واضحة، لكنّه لمّا هاجر إلى فرنسا بدأ ينظم على الطريقة الغربيّة، وحاول نقل أساليب الشعر الغربي إلى الشعر العربيّ، وقد نظم "قصيدة" على ما سُمي الشعر المنثور، أنشدها في حفل تأبين أستاذه إبراهيم ناصيف اليازجي، الذي توفي بالقاهرة سنة (1906/1324). وليس له غيرها على هذا النوع من الشعر⁽¹⁾، ومع ذلك لم ينقطع عن نظم الشعر العربيّ الأصيل.

(1) انظر: خليل مطران، ديوان الخليل، 294/1.

مفهومه للشعر

رأى خليل مطران أنّ الشعر هو: وعاء لشعور الشاعر كله يُسجّل فيه زفرائه وأحلامه، وأحداث الزمان، فهو يمثل: الحياة، والحقيقة، والخيال، وأنه يقوله في كلّ وقت يكون فيه خالي الذهن عن طلب الرزق: في الصباح والمساء، وسواء أكان وحيداً أم مع الأصدقاء.

ومصادر شعر خليل مطران ثلاثة، هي: تقليد السلف مع الاحتفاظ بأصول اللغة، والفترة السليمة، ومجاراة مقتضيات عصره، بحيث حاول أن يدخل فيه كلّ جديد.

وذكر خليل مطران أنه كان يسعى من نظم الشعر إلى تحقيق هدفين، هما: امتاع نفسه وإرضائها عندما يكون وحيداً، ووعظ الأمة، وإرشادها إلى ما فيه الخير، وتحذيرها ممّا فيه إتلافها، بل هو ناصح لها، وشعره دواء لجراحها.

أما مكانة الشاعر من الناس عند خليل مطران فقد كانت عظيمة؛ إذ هو الحادي، وهم ركبّان الشقاء في الصحراء، قال: "فإنّ الناس ركّبُ شقاء، وسقَرُ هيماء، فما أسعدُ حاديهم - وهو الشاعر - إذا حدا، أن يمسّ لنغماته عند إخوانه في المسير رثّة وصدى"⁽¹⁾.

وخلاصة الأمر أنه أراد للشعر أن يكون عصريّاً، قال في ردّه على مَنْ هاجم شعره: "فيا هؤلاء: نعم، هذا شعر عصريّ، وفخره أنه عصريّ، وله على سابق الشعر مزيّة زمانه على سالف الدهر.

هذا شعر ليس ناظمه بعبد، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصّحيح، باللفظ الفصيح. ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد... بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته، وفي موضعه، وإلى جمال القصيدة في تركيبها وترتيبها، وفي تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التّصوّر، وغرابة الموضوع، ومطابقة كلّ ذلك للحقيقة، وشفوفه عن الشعور، وتحريّ دقة الوصف، واستيفائه على قدر"⁽²⁾.

أمّا في موسيقا الشعر، فكان خليل مطران يرى أنّ الالتزام بالوزن والقافية لا يجب أن يحرف الشاعر إلى غير هدفه. وفي الألفاظ دعا الشاعر إلى الاعتناء باختيار

(1) خليل مطران، ديوان الخليل ، 10/1.

(2) خليل مطران، ديوان الخليل ، 9/1.

الأنسب منها لحمل المعنى الذي يُريد أن يقوله. وفي بناء القصيدة اهتم خليل مطران بتركيبها كلها بحيث تكون معانيها متناسقة، ومطابقة للحقيقة. ولم ينظر إلى جمال البيت المفرد وحده بل للقصيدة كلها، أي كان يحرص على ما أسماه النقاد المحدثون بالوحدة الموضوعية للقصيدة.

العوامل المؤثرة في شاعريته

أسهمت ثلاثة عوامل رئيسة في تشكيل شاعرية خليل مطران هي:

1- نشأته وتربيته

فقد ولد في بعلبك مدينة الآثار الرومانية، ذات النقوش والصّور المنحوتة ببراعة، ومنها صور إله الحرب "مارس" وعليه درعه، وإلهة الصيد "ديانا"، وإله الخمر، وحول رأسه عناقيد العنب "باخوس"، وإلهة العشق "عشتار"، وبين يديها ولد ذو جناحين هو "كوبيدون" رسول الحب والعشق. فهذه الآثار بعثت في نفسه التاريخ والحزن، والجمال والعظمة، فضلاً عن جمال طبيعة بعلبك، وزحلة، وببيروت حيث تعلم، فانبعث في نفسه حب الطبيعة ووصفها.

ولمّا هاجر إلى باريس زاده جمالها حباً للطبيعة. وفي مصر جمع الأمرين اللذين أثرا فيه في لبنان وفرنسا، حيث الطبيعة والآثار، وبذلك يكاد يقتصر شعره على الوصف والغزل إلى جانب المدح وشعر المناسبات.

2- ثقافته الغربية

لقد تتقف خليل مطران ثقافة عربية أصيلة على يد أستاذه إبراهيم اليازجي، فقرأ دواوين كبار شعراء العربية، ثم قرأ الأدبين الفرنسي والإنجليزي، وقد انبهر بالأدب الفرنسي، وحفظ كثيراً من أشعار اللغتين الفرنسية والإنجليزية، فارتدّ عمّا نشأ عليه من الأدب العربي، وأراد أن ينقل الشعر العربي والمسرح الغربي إلى مصر والوطن العربي، وعمل ما استطاع لفعل ذلك.

3- هجرته

هاجر خليل مطران وهو ابن ثمانية عشر عاماً، فنزل الإسكندرية في طريقه إلى فرنسا التي عاش فيها عامين، ثم عاد إلى مصر وتخذها موطناً له، ولم يغادرها إلّا بعد ثلاثة وثلاثين عاماً، فزار لبنان، وسوريا، وفلسطين سنة (1924/1343)، ثم سافر سنة (1929/1348) إلى بيروت ودمشق مع الشاعر حافظ إبراهيم.

وقد أدت هجرته عن وطنه وأهله إلى زيادة حزنه وحنينه، وبالتالي أورثته إحساساً مرهقاً.

دعوته إلى تغريب (تجديد) الشعر العربي

يرى كثير ممّن درسوا الأدب العربي الحديث، أنّ خليل مطران مثّل رأس مذهب جديد في الشعر العربي الحديث، وأنّه حمل لواء الدّعوة إلى ما يسمونه التجديد (التغريب)، فيما هو حقيقة كان يدعو إلى تغيير الشعر العربي بأن يصبح مقلدًا للشعر الغربي، بدل أن يكون استمرارًا للشعر العربي الأصيل، وامتدادًا له، كما فعل من سبقوه وعاصروه من مثل: محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإبراهيم طوقان، وسليم أبو الإقبال اليعقوبي، ويوسف النبهاني، وعبد المحسن الكاظمي، وشكيب أرسلان، و خليل مردم، وخير الدّين الزركلي، ومئات غيرهم. وأهم ما دعا إليه خليل مطران هو⁽¹⁾:

1. وحدة الموضوع في القصيدة، وادخال الخيال.
2. التجديد في المضمون، والابتكار في المعاني والأفكار.
3. التحرّر من التكلف، والقافية مع المحافظة على جزالة الأسلوب من خلال اختيار الألفاظ الفصيحة والسليمة.
4. دعا إلى النظم في أغراض جديدة توائم العصر مثل: الشعر القصصي، والمسرحي، والوجداني، ووصف الطبيعة.
5. الدعوة إلى السير في طريق الأدب الغربي؛ فكان يقول: إذا أردنا التجديد في الشعر، فيجب أن نسير في طريق الغرب. وذلك بأن يخلق الشاعر موضوعًا، ويصيغه، ويصوّره ويفصله، فيجمع المعلومات عنه، ثم يرتّب الأشخاص، والحوادث، والأشياء بشكل متسلسل حتى ينتهي الموضوع، وفكرته كما أراد الشاعر.
6. دعا إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر والمجتمع، بخيرها وشرّها، مع المشاركة في الأحوال الاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والوطنيّة وغيرها.

أثر خليل مطران في حركات تغريب (تجديد) الشعر العربي

أراد خليل مطران للشعر العربي أن يقلّد الشعر الغربي، ويسير في ركابه، لكي يكون متطورًا، وأن ينقطع عن تقليد الشعر العربي. وكانت دعوته ذات أثر كبير، فيمن جاء بعده من الشعراء، وتحوّلت إلى حركة حمل لواءها شعراء ثلاث مدارس،

(1) انظر: محمد خفاجي، دراسات في الأدب، 300/1؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص135.

هي: الديوان، وأبولو، والمهجر. وقد اعترف أكثر من شاعر بتأثره بخليل مطران صراحة، ومنهم: إبراهيم عبد القادر المازني، أحد رؤوس مدرسة الديوان، إذ قال: "أعتقد أنني مدين لمطران بأكثر مما يعرفه الناس، ولا سيما في صدر حياتي، فإنّ خليل مطران هو أول مَنْ أدخلَ شيئاً من التجديد على الشعر في مصر"⁽¹⁾.

ورأى عباس محمود العقاد أنّ أثر خليل مطران كان واسعاً في أدباء مصر وشعرائها، بل في الشعر العربيّ كله، قال: "صفوة القول في بيان فضله على نهضة التجديد أنّه كان منذ نشأته الأولى هادياً بصيراً إلى موضوعات الشعر، التي يحسن بالشاعر العصريّ أن ينظم فيها، فنظم في وصف الطبيعة، كما نظم في وصف المجتمع. ونظم في التعبير عن العاطفة، كما في التعبير عن الحياة العامة. ونظم في القصّة التاريخية، كما نظم في القصّة الاجتماعيّة"⁽²⁾.

آثاره

كان خليل مطران كاتباً، وشاعراً، ومُعلِّماً، وصحفيّاً، ومترجماً، ولذلك جاءت مؤلفاته موزعة على أعماله، ومهاراته، وهي:

1. في الشعر، ترك ديوانين هما:

أ. ديوان باسم "ديوان الخليل" وقد صدرت طبعته الأولى سنة (1908/1326)، ثم طبع طبعات عدّة منها طبعة دار الهلال، ونشرته دار المعارف بالقاهرة، بعناية لجنة تكريم الشاعر، في آذار سنة (1949/1369). وهي في جرائن، وقد ضمت الطبعة ما اختاره من شعره حتى سنة (1908/1326).

ب. ديوان باسم "إلى الشباب"، وهو ديوان أراجيز وحكم.

(1) أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص267.

(2) أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص269.

2. في النثر

- أ. مقالات متنوعة الموضوعات نشرها في الصحف، والمجلات المختلفة.
- ب. كتاب "مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام" وهو في التاريخ، صدر في جزأين سنة (1906/1324).
3. جمع ما نظمه كثير من شعراء العربية في رثاء الشاعر محمود سامي البارودي في كتاب بعنوان "مراثي الشعراء".
4. ترجم إلى العربية عددًا من روايات شكسبير التمثيلية (المسرحيات) ومنها: مكبث، وهملت، وعطيل، وتاجر البندقية وغيرها. كما ترجم بعض مؤلفات عدد من الكتاب الفرنسيين.

ثالثًا: مدرسة الديوان

تأسيس المدرسة

- أسسها الشاعر والكاتب المصري عبد الرحمن شكري سنة (1909 / 1327)، ووضع قواعدها الأولى في ديوانه الذي أصدره في تلك السنة بعنوان "ضوء الفجر"، وامتاز شعره في هذا الديوان بثلاث ميزات هي⁽¹⁾:
1. التجديد في قوافي الشعر، فنظم بعض أشعاره، بحيث تتغير القافية في كلّ بيتين من أبيات القصيدة مع المحافظة على وزن واحد، وهذا ما يسمى في الشعر العربي بالشعر المزدوج.
 2. التجديد في قوافي الشعر، فنظم بعض أشعاره، بحيث تتغير القافية في كلّ بيت مع المحافظة على وزن واحد للقصيدة، وهذا استمدّه من الأدب الإنجليزي، وهو يعرف بالشعر المرسل.
 3. جاء شعره في هذا الديوان ارتدادًا وخروجًا على الشعر العربي القديم الذي قيل ما قبل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، والشعر الحديث ممثلًا في مدرسة الإحياء (النهضة)، وقد عمّ خروجه لغة الشعر وقوافيه.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص 61.

شارك عبد الرحمن شكري في أفكاره وآرائه الشعرية كل من عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وبذلك يعتبران من المساهمين في تأسيس هذه المدرسة، وقد تمثلت مشاركة كل منهما في الآتي:

مشاركة عباس محمود العقاد

جاءت مشاركة عباس محمود العقاد من خلال(1):

1. عندما نشر عبد الرحمن شكري الجزء الثاني من ديوانه سنة (1913/1331)، كتب مقدّمته عباس محمود العقاد، وفيها مدح طريقة عبد الرحمن شكري في نظم ديوانه، حيث عبّر فيه عن وجدانه بهدوء وتأمل، فصور كل خوالج نفسه، وصوامت الكون من حوله.

2. عندما نشر عبد الرحمن شكري الجزء الثالث من ديوانه سنة (1914/1332)، كتب مقدّمته -أيضاً- عباس محمود العقاد، فأوضح فيها المذهب الذي تتبعه مدرسة الديوان (المذهب الرومانسي) وقال: إنّه مذهب يعتمد على وصف آلام النفس، والتعبير عن أحزانها، في شعر يكون زفرات وعبرات لصاحبه، ودعا إلى عدم التقيد بالقافية، وإلى الصدق في العواطف، وهاجم مدرسة الإحياء ممثلة بحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ووصفهما بعدم الصدق في شعرهما، إذ يمدحان من يحتقرانه، ويهجوان من يحترمانه في دواخلهما. واستمرّ عبد الرحمن شكري يصدر شعره في أجزاء متتابعة ما بين السنوات (1909/1327 و1914/1332)، وفي سنة (1919/1338) صدر الجزء السابع، وبعده اختلف مع زميليه، وابتعد عنهما، لا بل وجها له نقداً قاسياً.

3. سنة (1916/1334) أصدر عباس محمود العقاد ديوانه الأول، وطبّق فيه مبادئ مدرسة الديوان.

مشاركة إبراهيم عبد القادر المازني

تمثلت مشاركته من خلال كتابة مقالات نقدية على النحو الآتي(2):

1. نشر إبراهيم عبد القادر المازني سنة (1912/1330) مقالاً في صحيفة "الجريدة"، نقد فيه بشدة أصحاب مذهب الإحياء، وسخر من طرائقهم في

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص62؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص142.

(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص63.

نظم أشعارهم، فقال: إن استمرارهم في تقليد القدماء يجعلهم نسخًا متشابهة، ودعاهم إلى تصوير خوالج أنفسهم، وتمثل روح العصر الذي يعيشونه، وهي الروح الحزينة المتشائمة.

2. سنة (1914/1332) نشر مقالات عديدة في صحيفة "عكاظ"، بناها على نقد شعر حافظ إبراهيم نقدًا قاسيًا من خلال مقارنته مع شعر زميله ورائد مدرستهم (الديوان) عبد الرحمن شكري، وقال:

أ. شعر حافظ إبراهيم متصنع لا يمتُّ إلى نفس صاحبه بصلات صادقة. أما شعر عبد الرحمن شكري، فشعر مطبوع لا تصنع فيه، ويُعبر فيه بصدق عما في نفسه.

ب. شعر حافظ إبراهيم سياسي، وشعر مناسبات يومية طارئة، فهو بذلك عاجز عن استلهام ما في الكون من حقٍّ وجمال، ويقوم على المبالغة والخروج عن حدِّ المعقول، فيأتي كاذبًا غير صادق.

ج. تتبّع بعض الأخطاء اللغوية التي وقع فيها حافظ إبراهيم، وما أسماه السرقات الأدبية من القدماء الذين كان يقلدهم في شعره.

انقسام مدرسة الديوان (الرومانسيّة)

بعد إصدار عبد الرحمن شكري الجزء السابع من ديوانه سنة (1919/1338) اختلف معه عباس محمود العقاد، وإبراهيم المازني، فشنّا على شعر زميلهما عبد الرحمن شكري حملة نقدية، لا تقلّ عما كان ثلاثتهم ينتقدون فيه مذهب الإحياء. وفي عام (1921/1340) أصدر (العقاد والمازني) كتابًا بعنوان "الديوان في الأدب والنقد" وقد شنّا فيه هجومًا على أحمد شوقي، أحد أهمّ بُناة مدرسة الإحياء، وعبد الرحمن شكري مؤسس مدرسة الديوان (الرومانسيّة) الأول، وزميلهما لمدة تزيد على اثنتي عشرة سنة. وجاء محتوى الكتاب في محورين هما⁽¹⁾:

1. نقد عباس محمود العقاد للشاعر أحمد شوقي، إذ عقد عدّة فصول في نقده، وبيان رأي الرومانسيين في الشعر، وقد جاء نقده لأحمد شوقي تطبيقًا على فن الرثاء، واختار منه قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل، وعابها في أربعة أمور: التفكك؛ أي أن أبياتها تستقل بعضها عن بعض في معانيها، وعليه يمكن تغيير أماكنها في بناء القصيدة. والمبالغة؛ أي رفع المرثي في

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص65؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص148.

صفاته إلى ما هو غير حقيقي. والتقليد؛ أي الحفاظ على عناصر بناء الأغراض الشعرية وهي في الرثاء: الندب (البكاء)، والتأبين، والتعزية. والاهتمام بالمظهر الخارجي (العرض) دون الجوهر.

والحقيقة أنّ هذا النقد يستند إلى فهم كلّ منهما للشعر، وفي النقد لا يجوز تطبيق مذهب شعري على مذهب آخر، ففي هذا نفي للمذهب مَوْضِع النقد، وهدم كامل له.

2. نقد إبراهيم عبد القادر المازني لزميله عبد الرحمن شكري.

جاء نقده في فصلين اثنين بعنوان: "صنم الألاعيب"، وفيهما اعتبر حديث عبد الرحمن شكري عن آلام البشرية مرضاً.

وقد أدّى الخلاف بين الشاعرين الزميلين المازني وشكري إلى افتراق أحدهما عن الآخر، وهجر كلّ منهما الشعر، فقد ترك المازني الشعر، واتّجه إلى السياسة والصحافة، ولم ينظم الشعر إلّا نادراً، كما هجر شكري الشعر كلياً. وبذلك تكون مدرسة الديوان قد انتهت سنة (1921/1340).

عباس محمود العقاد ومدرسة الديوان

استمرّ العقاد ينظم الشعر، ويصدره في دواوين شعرية متتابعة، وهو في نظمه يمثل آراء مدرسة الديوان، وتمثّل ذلك في ديوانين مهمّين له، وهما:

1. ديوان "عابر سبيل"، نشره سنة (1937/1356).

تناول العقاد في هذا الديوان الموضوعات التي يُشاهدها أي إنسان في الطريق الذي يسلكه ذهاباً وإياباً، إذ يفكر فيها، فتتأثر نفسه بها، وتنعكس في شعوره، فينظمها لسانه شعراً بسيطاً.

2. ديوان "هدية الكروان"، نشره سنة (1938/1357).

والكروان: نوع من الطيور المشهورة في مصر، يمتاز بتغريده الشّجي ليلاً، فيُثير أحاسيس وانفعالات سامعية. وقد جعل عباس محمود العقاد أكثر قصائد هذا الديوان في هذا الطائر (أي في تغريداته الشّجيّة)، ولعلّه استوحى فكرته من الشاعر الإنجليزي "شيلي" في قصيدته "القبرة".

مارس عباس محمود العقاد بعد سنة (1922/1341) ما كان نقد به شعراء مدرسة الإحياء، فانخرط بالحياة السياسيّة؛ ونظم شعراً في المناسبات المتنوّعة، ومدح، ورثى مع المحافظة على وحدة القصيدة، وصدق العاطفة، وذلك دليل على

عقم محاولات إحلال الأساليب، والمعاني الغربية محلّ الأساليب والمعاني العربيّة، أي محاولات تغريب (تجديد) الأدب العربيّ، وبخاصة الشعر. وغدت مدرسة الديوان كأنها لم تكن.

مفهوم الشعر عند مدرسة الديوان

الشعر هو: مجموعة عواطف، ومشاعر، وأحاسيس تُعبّر عن النّفس البشريّة بمعناها الإنساني العام، بما فيها من خير وشر، وألم ولذة، كما تُعبّر عن الطّبيعة بما فيها من حقائق وأسرار، فيخرجها الشاعر لحناً موسيقياً يُصوّر فيه صلته بالمجتمع والكون⁽¹⁾.

مصادر الشعر عند مؤسسي مدرسة الديوان

استقى مؤسسو مدرسة الديوان مفهومهم للشعر، وطبيعته، ودوره من ينابيع عديدة هي⁽²⁾:

1. الأدب الإنجليزي بخاصة، والآداب الأوروبيّة بعامة (فرنسيّة، وإيطاليّة، وألمانيّة، وإسبانيّة، وروسيّة)، حيث سيطرت على هذه الآداب في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلاديّ)، وبداية القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلاديّ (عواطف الحزن والألم الناتجة عن شعور الفرنسيين بخيبة الأمل من ثورتهم، فنابليون لم يستطع تحقيق أحلامه، وأحلام شعبه في إمبراطورية مترامية الأطراف بما فيها من خيرات، فخرجوا من ثورتهم، وقد سيطر عليهم الحزن والكآبة، كما انتشر الحزن في أوساط شعراء أوروبا انتشار النار في الهشيم، و بالتالي أصابت نزعة الحزن والكآبة تلك الشعراء العرب الذين صادف وجودهم في أوروبا، أو درسوا اللّغات والآداب الأوروبيّة في بلادهم، ومنهم: عبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعباس محمود العقاد، الذين تأثروا أكثر من غيرهم بسبب الظروف السياسية التي كانت تعيشها بلادهم مصر، فقد ضاعت أحلام أهل مصر في تكوين دولة قوية على يد محمد علي باشا في بداية (القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلاديّ)، كما كانت قد ضاعت في (بداية القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلاديّ)،

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص58.

(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص59.

حيث هدم الاحتلال البريطاني أحلامهم في استعادة أمجاد أسلافهم النبيلة، وحقوقهم السياسية والاجتماعية.

2. الآداب العربية القديمة بعامة، والأدب العربي في العصر العباسي حتى نهاية (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) بخاصة.

خصائص مدرسة الديوان الشعرية

دعا مؤسسو مدرسة الديوان إلى إحداث تغيير في مفهوم الشعر وطبيعته، وحاولوا قدر استطاعتهم تطبيق ذلك في أشعارهم، كما صيَّروا سهام نقدهم على شعراء مذهب الإحياء وغيرهم، ونتيجة ذلك تميَّزت مدرستهم بميزات عديدة هي⁽¹⁾:

1. الشعر في أساسه إلهام، ينبع من القلب، وينتج عن إحساس الشاعر، وشعوره بالكون المحيط به، فيصدر على لسانه نغمة موسيقية حزينة ومؤثرة، وقد عبّر عنها بدقة عبد الرحمن شكري، فقال⁽²⁾:

إنَّما الشَّعرُ نغْمةٌ من حنَّين المزاميرُ

كلُّ أمرٍ نحسُّهُ فُرصاتٌ لشاعرٍ

إنَّما الشَّعرُ في الحياة كمنظَّارٍ نناظرُ

وقال في أصل الشعر، وما يؤثر فيه⁽³⁾:

والشَّعرُ كالإلهام يأتِي النَّفسُ فَيَقْطَاطُها

والكَوْنُ أيُّهُ شاعرٌ يأتِي بمبتكراتِها

2. وحدة القصيدة الشعرية، بحيث تكون مترابطة المقاطع، فتنمو الفكرة فيها نمواً عضوياً، بحيث لا يمكن فصل أجزائها بعضها عن بعض من دون تأثير واضح بوجود نقص أو تشويه.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص 59.

(2) عبد الرحمن شكري، ديوانه، ص 247.

(3) عبد الرحمن شكري، ديوانه، ص 344.

3. محاربة فكرة القومية في الأدب بمعناها الضيق المؤدي إلى العنصرية.
4. محاربة فكرة الاشتراكية باعتبارها عقيمة كونها لا تقيم وزناً للأدب الذي لا يعالج حرب الطبقات الاجتماعية، ولا يطالب بلقمة الخبز للعامّة.
5. الدعوة إلى الشعر الصادر عن الوجدان الشخصي للشعراء.
6. الثورة على التقليد والجمود في بناء القصيدة وأفكارها وألفاظها.
7. الإبداع الشعري بخاصة، والأدبي بعامّة هو: قدرة نفسية وليس بلاغية.
8. المثل الأعلى لشعراء مدرسة الديوان هو: الرومانسية الأوروبية بعامّة والإنجليزية بخاصة.

مؤسسو مدرسة الديوان

قام على تأسيس مدرسة الديوان في مصر ثلاثة من شعراء وكتاب مصر المعروفين، وهم:

- 1- عبد الرحمن محمد شكري عياد، عاش ما بين (1886/1304 و 1958/1378)⁽¹⁾

ولد في مدينة بور سعيد لأسرة ذات أصول مغربيّة، وقد أرسله والده إلى الكتاب، ثم تعلّم في مدارس مدينته، وعمد إلى تثقيف نفسه في مكتبة والده التي كانت تضمّ كثيراً من كتب الأدب والتاريخ العربيّ والإسلاميّ، وكان والده يحرص على تثقيفه، فعرض عليه كتاب "الوسيلة الأدبيّة إلى العلوم العربيّة" للشيخ حسين المرصفي، وكان يصله بزوّاره من أدباء مصر الذين ينزلون عنده في زيارتهم لبورسعيد، وبخاصة عبد الله النديم، أديب ثورة أحمد عرابي، والشيخ حمزة فتح الله وغيرهما. ولذلك بدأ بنظم الشعر، وكتابة المقالات المتنوعة، وهو لم يزل يدرس في المدرسة الثانوية.

التحق بمدرسة الحقوق مدّة، ثم فصل منها بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب، فالتحق بمدرسة المعلمين العليا، وفيها قرأ الأدبين العربي والغربيّ،

(1) انظر ترجمته في: عبد الرحمن شكري، ديوانه، ص 1-36؛ شوقي ضيف، الأدب العربيّ المعاصر، ص 128؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص 60؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص 279؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص 225؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص 141.

وبخاصة الشعر الغنائي الإنجليزي. ومارس كتابة المقالات لجريدة "الجريدة"، وزوّدها بأشعاره.

سافر إلى لندن سنة (1909/1327) في بعثة دراسية، وفيها نشر ديوانه الأول بعنوان "ضوء الفجر". ولما عاد عمل في الإسكندرية، ثم نشر ديوانه الثاني سنة (1913/1331)، وقدم له عباس محمود العقاد بمقدمة عن الشعر وتطوره، واستمر في العمل معلماً حتى عام (1944/1364) حيث تقاعد، واكتفى بالكتابة للصحف والمجلات المصرية مثل: الأهرام، والمقتطف، والرسالة، والهلal. وتوفي بالإسكندرية.

شعر عبد الرحمن شكري

تأثر عبد الرحمن شكري بالأدب الإنجليزي، فاتخذة نموذجاً له في التعبير عن عاطفته، وتأمّل كلّ ما يتصل بالحياة والطبيعة من أفكار وأنغام، كما تأثر بالأدب العربي، وبخاصة بكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، و"الحماسة" لأبي تمام، وديواني الشريف الرضي، ومهيار الديلمي، فأعجب بما فيها من غزل وجداني بعيد عن التكلف.

وقد صبغ شعره بصبغة الحزن المستمد من الينبوع الرومانسي، ومن بينته المصرية الخاضعة للاحتلال البريطاني؛ حيث: المعاناة، واليأس، وعدم القدرة على تحقيق الآمال، فكثّر حديثه عن الحزن والموت، وانعكس ذلك على مشاهد الطبيعة من حوله، كما نظم شعراً مرسلًا تحرّر فيه من القافية.

وعلى الرغم من دعوته إلى التجديد إلّا أنّه نظم شعراً في أهم موضوعين تقليديين هما: المديح، والثناء.

مؤلفاته

1. أصدر عبد الرحمن شكري سبعة دواوين شعرية ما بين الأعوام (1909/1327 و 1919/1338)، أولها "ضوء الفجر".
2. قصة بعنوان "الحلاق المجنون"، تأثر فيها بالأدب الروسيّة.
3. كتاب "الاعترافات" تأثر فيه بالأدب الفرنسيّة، وبخاصة اعترافات "جان جاك روسو"، و"شاتو بريان". وهو تحليلات وتأمّلات، وصف فيه الشباب المصري بأنّه عظيم الأمل واليأس.

4. كتب مئات المقالات الأدبية والسياسية والاجتماعية، ونشرها في الصحف والمجلات المصرية.

2- إبراهيم عبد القادر المازني، عاش ما بين (1889/1307 و 1949/1369)⁽¹⁾

ولد في القاهرة لأب كان يعمل في المحاماة الشرعية، ثم ما لبث أن فقد أباه، فرعته أمه، وحرصت على تعليمه، حتى تخرج في مدرسة المعلمين الخديوية سنة (1909/1327)، فعُيّن مدرساً للترجمة، واللغة الإنجليزية، ثم ترك التعليم والتحق بالحركة الوطنية المصرية، وكتب مقالات سياسية وأدبية واجتماعية نشرها في الصحف والمجلات المصرية. وامتاز أسلوبه الكتابي بتخيّر ألفاظه، وسعة خياله، وسيادة الأسلوب ذي الصبغة التهكمية الساخرة.

العوامل المؤثرة في تشكيل فكر المازني وأدبه

أسهمت أربعة عوامل في تشكيل فكر المازني وأدبه، وهي:

1. موت والده، وعدم قدرته على دراسة الطب، والحقوق، وقصر قامته، وعرجه.
2. قراءاته الواسعة للأدب العربي القديم؛ نثرًا وشعرًا.
3. دراسته الأدب الإنجليزي وبخاصة الشعر.
4. عمله في الصحافة، حيث تعرّف إلى شريكه في مدرسة الديوان وهما: عبد الرحمن شكري، وعباس محمود العقاد.
5. قراءاته للأدب الروسي والأمريكي، والترجمة منهما إلى العربية، وبخاصة الساخر منه، فانقلب من أديب وجداني تطفح نفسه بالمرارة والألم إلى أديب ساخر يستخف بالحياة وما فيها.

شعره

تميّز شعر إبراهيم عبد القادر المازني بمميّزات عديدة منها:

(1) انظر ترجمته في: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص264؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص82؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص319؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص231؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص152.

1. سار على منهج مدرسته في أول الأمر، ف تحرّر من شعر المناسبات، واستوحى شعره من موجودات الحياة المحيطة، يتفاعل معها ويتأثر بها، فكان شاعراً وجدانياً (رومانسياً).
2. تحرّر من الوزن والقافية في بعض أشعاره، ففتح الباب لبناء جديد في الشعر العربي.
3. استخدم في أسلوبه بعض الكلمات العامية لتوظيفها في السخرية والفكاهة.
4. هاجم عبد الرحمن شكري في شعره الجديد، ثم هو نفسه لم يعد يؤمن بما يدعو إليه، وتوقف عن كتابة الشعر سنة (1932 / 1351)، واتجه إلى كتابة القصة.

مؤلفاته

1. أصدر ديوانين شعريين، نشر الأول سنة (1913/1332)، والثاني (1919/1338). وله أشعار أخرى لم تصدر في ديوان.
2. شارك عباس محمود العقاد في إصدار جزأين من كتاب "الديوان في الأدب والنقد"، الذي تسمّت المدرسة باسمه.
3. اتجه للكتابة النثرية، فأصدر قصة طويلة بعنوان "إبراهيم الكاتب"، ومجموعات قصصية منها: إبراهيم الثاني، وخيوط العنكبوت، وفي الطريق، وميدو وشركاه، وعود على بدء، وثلاثة رجال وامرأة، وع الماشي، ومن النافذة. وأصدر مسرحية واحدة بعنوان: "بيت الطاعة".
4. كتب كثيراً من المقالات في: الأدب، والنقد، والسياسة، والاجتماع. ورأى شوقي ضيف أنه كان من السابقين للدعوة إلى فكرة جامعة الدول العربية، إذ كتب سنة (1935/1354) مقالاً بعنوان "القومية العربية"، دعا فيه إلى إيجاد هيئة سياسية واحدة تجمع كلمة العرب، وتوحّدهم ضد الاستعمار.
5. ترجم بعض الآداب الغربية منها: قصة ابن الطبيعة، ومسرحية الشاردة، ومختارات من القصص الأدبي.

3-عباس محمود العقاد، عاش ما بين (1307 / 1889 و 1384/1964)⁽¹⁾

ولد في مدينة أسوان بمصر لأسرة بسيطة؛ إذ كان والده موظفًا في دائرة الأرشيف، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في المدرسة الابتدائية، وتخرج فيها سنة (1321 / 1903)، واطلع على أفكار محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، و عبد الله النديم، وذلك بصحبة والده إلى مجلس القاضي أحمد الجداوي، ثم انقطع عن التعليم، وعمل في وظائف حكومية، ثم عمل في الصحافة بالقاهرة، ثم عاد للتعليم بالقاهرة، فتعرّف إلى إبراهيم عبد القادر المازني، ثم عبد الرحمن شكري، فالفوا مدرسة "الديوان" الرومانسية في الأدب.

وقد عمل على تنقيف نفسه من خلال قراءاته المتنوعة في: الأدب، والفلسفة، والسياسة، والتاريخ العربي الإسلامي، كما ثقف نفسه في الآداب الغربية، وبخاصة الإنجليزية.

بعد موت والده (1325/1907)، بدأ عباس محمود العقاد العمل في الصحافة، والسياسة، وكتب مقالات كثيرة في كلّ الفنون، ما أدى إلى اعتقاله لمدة تسعة شهور، وتنوّعت كتاباته بتنوّع ثقافته، حتى بلغ ما أصدره أكثر من ستين مؤلفًا.

العوامل المؤثرة في تشكيل فكر العقاد، وأدبه

تشكّل فكر عباس محمود العقاد، وأدبه بفضل عوامل عديدة، أهمها:

1. قراءاته الواسعة في الآداب العربية والغربية، وقدرته الفائقة على تمثيلها، وإثراء معانيه ومفرداته.
2. صفاته الشخصية الخاصة المتمثلة في: الذكاء، والتبوغ، والاعتداد بالنفس، والثبات على الرأي.

شعره

يتميّز شعر عباس محمود العقاد بمميزات عديدة، أهمها:

(1) انظر ترجمته في: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص74؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص309؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي، ص227؛ إبراهيم خليل، مدخل لدراسة، ص146.

1. دعوته إلى التجديد في المعاني مع المحافظة على الأوزان والقافية والألفاظ الجزلة، وهو في ذلك يختلف مع عبد الرحمن شكري زميله في مدرسة "الديوان" الرومانسية (الوجدانية).
 2. عدم المبالغة في الحزن والتشاؤم، بل مزجها بالطموح الذي انتهى به إلى الإقبال على الحياة، وما فيها من نعم.
 3. اختيار موضوعات شعره من حياة الناس البسطاء، ومن الطبيعة.
 4. غلبة الفكر والمنطق في كثير من أشعاره على العاطفة والشعور، وهذا مما يتعارض مع مدرستي الرومانسية والديوان.
- وعلى الرغم من دعوته للابتعاد عن شعر المناسبات إلا أن ديوانيه "أعاصير مغرب" و "بعد الأعاصير" يضمّان كثيرًا من شعر المناسبات، وبخاصة في موضوعي الرثاء والمديح.

مؤلفاته

كانَ عباس محمود العقاد موسوعيّ المعرفة، فكتب في كثير من المعارف، حيث ترك ستين كتابًا منها:

1. أصدر عشرة دواوين شعرية.
 2. له عدد من المؤلفات الأدبية منها: مراجعات في الآداب والفنون، ومطالعات في الكتب والحياة، والفصول وغيرها.
 3. نشر عددًا من كتب السير والتراجم ومنها: محمد، صلى الله عليه وسلم، وعبقريّة أبي بكر الصديق، وعبقريّة عمر، وعبقريّة علي، رضي الله عنهم، وعقائد المفكرين في القرن العشرين.
 4. له مئات المقالات في مختلف موضوعات الحياة.
 5. له بعض القصص والمسرحيات.
- ويمكن القول إنّ نشر عباس محمود العقاد أهم من شعره، وقد امتاز نثره بألفاظ جزلة، وأسلوب رصين يدل على ثقافة واسعة، ومعان عميقة.

نماذج من شعر العقاد

اخترت ثلاثة نماذج من ديوانه "هدية الكروان"، وهي:

النموذج الأول بعنوان "الكروانيات"، قال⁽¹⁾؛

هتفات الكروان⁽²⁾ بالليل تترى ومعاني الربيع نوراً وعطرا
وجمال الحياة حباً وحسناً وشباباً يفيض عطفاً وبشرا
بتُّ أصغي لها، وأقبس منها ثم ترجمتها لمن شاء شعرا

النموذج الثاني بعنوان: "الكروان"، وقد نظمها عباس محمود العقاد، أول

سماعه ألحان طائر الكروان، فقال⁽³⁾؛

هل يسمعون سوى صدى الكروان صوتاً يرفرف في الهزيع الثاني؟
من كل سار في الظلام كأثـه بعض الظلام، نُضله العينان
يدعو إذا ما الليل أطبق فوقه موج الدياجر، دعوة الغرقان
ما ضرَّ مَنْ غلى بمثل غنائـه أن ليس يبطش بطشة العقبان
إن المزايا في الحياة كثيرة الخوف فيها والسَّطا سيان

(1) عباس العقاد، هدية الكروان، ص11.

(2) هذه الأبيات الثلاثة ، افتتح عباس محمود العقاد فيها ديوانه ، وسمّاها باسم "الكروانيات".
والقصيدة الثانية نظمها لمّا أعجب بالحن الكروان عندما استمع لهتافه، ولمّا استمع له بعد عشرين
سنة من نظم القصيدة = الأولى، وجد أنّ الكروان يُجَدِّد معانيه لسامعيه، من حين لآخر، فنظم
القصيدة الثانية ليؤكد ما فهمه من ألحان الكروان المُجَدِّد.

(3) عباس العقاد، هدية الكروان، ص11.

يا مُحييَ اللَّيْلِ البهيم تهجُّدًا والطيِّر أويَّة إلى الأوكان
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعًا من نابغ في غمرة النسيان
قلْ يا شبيبة النابغين إذا دُعوا والجهل يضرب حولهم بجران
كم صيحة لك في الظلام كأنها دقات صدر للدُّجَّة حان
هُنَّ اللغات ولا لغات سوى التي رُفعت بهن عقيرة الوجدان
إن لم تقيِّدْها الحروفُ فإنَّها كالوحي ناطقة بكلِّ لسان
أغنى الكلام عن المقاطع واللُّغى بثَّ الحزين وفرحة الجذلان

النموذج الثالث بعنوان "الكروان المُجَدَّد"، وقد نظمها العقاد بعد عشرين سنة من نظمه قصيدة "الكروان" السابقة، قال⁽¹⁾؛

زعموك غير مجدّد الألمان	ظلموك، بل جهلوك، يا كرواني
قد غيّرتك، وما تُغيّر شاعرًا	عشرون عامًا في طراز بيان
أسمعتني بالأمس ما لا عهد لي	بسماعه في غابر الألمان
ورويت لي بالأمس ما لم تروه	من نغمةٍ وفصاحةٍ ومعان

شكواي منك، وإن شكرتك، إنه	سرّ تصرّ به على الكتمان
شكري إليك، وإن شكوتك، إنه	سرّ تؤخّره لخير أوان
كنز يُصان فهات من حباته	ذخر القلوب وحليّة الأذان

أنا لا أراك؟! وطالما طرق النّهي	وحيّ، ولم تظفر به عينان
أنا في جناحك حيث غاب مع الدّجى	وإن استقرّ على الثّرى جثماني
أنا في لسانك حيث أطلقه الهوى	مرحًا، وإن غلب السرور لساني
أنا في ضميرك حيث باح فما أرى	سرًّا يغيبه ضمير زماني
أنا منك في القلب الصّغير، مساجلّ	خفق الريع بذلك الخفقان
أنا منك في العين التي تهبّ الكرى	وتضنّ بالصّحوات والأشجان

(1) عباس العقاد، هدية الكروان، ص12-13.

حجر الوهاد لهم بالطيران
فرحات منطلق الهوى نشوان
بالمين غير سرائر الإنسان

سر السعادة في الوجود الفاني
فيكم تؤلف نافر الأوزان
وكألكم فيه الطريد الجاني
بعد كما يتباعد الخصمان
حمل ابن آدم عثرة الإخوان
كللا! ولا متقدم أو وان
ساري ظلام، هاتف بأغان
عند الرحيل تجمع القطان
من هذه الأجواء والأوطان
وهو الوحيد فماله من ثان
لا من سباق بينكم ورهان

فيكم كهانة صالح الكهان
وبه اشترىتم يقظة اليقظان

طر في الظلام بمهجة لو صافحت
تغنيك عن ريش الجناح وعزمه
فرحات دنيا لا يكدر صفوها

علمتني بالأمس سرّك كله؛
سر السعادة نفرة ومحبة
الكون أنتم في صميم نظامه
أنتم سواء كالصديق وبينكم
لا يحمل الطيار وزر العاني
لا عالم منكم ولا متعلم
متشابهين على الحياة فكلكم
متفرقين على المقام ودأبكم
وكأنما نسخت لكل نسخة
فهو الشريك على نصيب واحد
نخر الطبيعة منه تُعطون الحجي

أنتم بني الطير المسبح في الدجى
بعتم كرى الغافي وطيب رقاده

قل ما اشتھيت القول يا كرواني في لهو ثرثار وحلم رزان
سأعيش مثلك لي وللدنيا معاً وأقول مثلك: كيف يزوجان؟
وأظُلُّ تزدحم الحياة بمهجتي أبداً ويجتنب الزحام مكاني
في عزلة أنا والحبيب تؤمنا دنيا الجمال، ونحن منفردان

الخلاصة

إن ما دعا إليه أصحاب مدرسة " الديوان " من تغريب (تجديد) في الشعر العربي، لم يلتزموا هم أنفسهم به، فكلٌّ منهم نظم شعراً فيما أسموه شعر المناسبات، وبخاصة في موضوعي المديح والرتاء، كما أنهم لم يستطيعوا التحرر من الأوزان الشعرية العربية المعروفة، وإن كان يُسجَل لعبد الرحمن شكري ريادته في الدعوة إلى الشعر المرسل والحرّ، وأما دعوتهم للتحرر من القافية، فلم تنجح، وما نظموا في تعدّد القوافي أو المزدوج كان موجوداً في الشعر العربي في العصور السابقة. وعليه فقد اختلفوا فيما بينهم، فعبد الرحمن شكري المؤسس الأول للمدرسة ابتعد عن الحياة الأدبية، وإبراهيم عبد القادر المازني توقف عن نظم الشعر بعد عام (1919/1338)، وعباس محمود العقاد غلب فكره وجدانه.

وقد جاءت دعوتهم بتأثرهم السريع بالأدب الغربية، وإيمانهم بأفكار المستشرقين الذين حصروا الأدب العربية في الحقبة (ما بين الجاهلية والقرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي)، على أبعد تقدير، واعتبروا ما بعد ذلك من غير دراسة- عصور انحطاط وجمود في كل شيء.

رابعاً: جماعة أبولو

معنى أبولو

أبولو أو أبولون هو: اسم إله الشعر، والموسيقي، والفنون، والجمال، عند اليونانيين القدماء، كان له معبد في جزيرة "دلفي" باليونان، واشتهر كمركز للتكهن (التنبؤ).

وقد أخذ مؤسس الجماعة اسمها من الأساطير (الميثولوجيا) اليونانية (الإغريقية)، بهدف إعطاء الجماعة اسمًا فنيًا عالميًا – حسب اعتقاده-لعلّ شعر جماعته يكتسب هذه العالمية⁽¹⁾.

المؤسس

أسسها الطبيب الشاعر أحمد زكي محمد أبو شادي في القاهرة في شهر (جمادى الأولى 1351 الموافق لشهر أيلول سنة 1932)، وتولى هو منصب أمين السر بصفة دائمة، والشاعر أحمد شوقي رئاسة الجماعة، لكنّ القدر عاجله، فتوفاه الله، سبحانه وتعالى، في (12 جمادى الآخرة/14 تشرين الأول) من السنة نفسها، فتولى رئاسة الجماعة الشاعر خليل مطران. واستمرت الجماعة حتى سنة (1935/1354) حيث انتهى دورها⁽²⁾.

عضوية الجماعة

فتحت الجماعة الباب لعضويتها في مصر والوطن العربي للشعراء بخاصة والأدباء ومحبي الأدب بعامة، ومنّ كانوا يؤمنون بأهدافها بخاصة، ومن هنا تم تعيين الشاعر أحمد شوقي رئيساً لها، وخليل مطران وأحمد محرم وكيلين (أي نائبين للرئيس)، أما أعضاء أول مجلس إدارة للمجلة، فهم: إبراهيم ناجي، وعلي العناني، وكامل كيلاني، ومحمود عماد، ومحمود صادق، وأحمد الشايب، وسيد إبراهيم (الخطاط)، وعلي محمود طه (المهندس)، ومحمود أبو الوفاء، وحسن القاياتي، وحسن كامل الصيرفي. وبعد وفاة أحمد شوقي بأسبوع أي في (22 جمادى الآخرة 1351 الموافق 1932/10/22) اختير الشاعر خليل مطران رئيساً للجماعة، وقد انتسب إليها عدد غير قليل من شعراء مصر، وحتى من شعراء حركة المذهب العربي الأصل (البعث والإحياء) وغيرها⁽³⁾.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70؛ المنجد في الإعلام، ص19؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص99.

(2) انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص 32-5؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70؛ محمد خفاجي، دراسات في الأدب العربي، ص249؛ حركات التجديد، ص97.

(3) انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص5-32؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70، 145؛ يوسف داغر، مصادر الأدب، 55/2؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص97؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص247؛ مصطفى السحرطي، الشعر المعاصر على ضوء النقد، ص168، وقال إن شعر أحمد زكي أبي شادي

مجلة الجماعة

أصدر أحمد زكي أبو شادي مجلة للجماعة تحمل اسم "مجلة أبولو"، وفتح صفحاتها للأدباء والشعراء الشباب في مصر، وفي أول عدد أوضح فكرة الجماعة، وغايتها، وسبب تسميتها بأبولو⁽¹⁾؛ فالفكرة قامت على أساس الرقي بالشعر، ورفع مستواه في الشكل والمضمون، والغاية هي رعاية الشعراء والعناية بهم مادياً وأدبياً. وأما سبب التسمية فسبق الإشارة إليه في معنى اسم الجماعة.

وكانت "مجلة أبولو" أول مجلة تُخصّص للشعر ونقده في مصر والوطن العربي، وهدفها نشر أدب الجماعة وأفكارها. وقد حيا أحمد شوقي الجماعة ومجلتها بقصيدة لامية نشرت في عددها الأول، ومنها قوله⁽²⁾:

أبولو!! مرحباً بك يا أبولو	فإبك من عكاظ الشعر ظلُّ
عكاظ وأنت للبلغاء سوقٌ	على جنباتها رحلوا وحلوا
وينبوعٌ من الإنشاء صافٍ	صدى المتأدبين به يُقلُّ
ومضمارٌ يسوقُ إلى القوافي	سوابقها إذا الشعراء قلُّوا
يقولُ الشعرَ قائلهم رصيناً	ويُحسنُ صيفٌ يُكثِرُ أو يُقلُّ
ولولا المحسنون بكلِّ أرضٍ	لما سادَّ الشعوبُ ولا استقلُّوا
عسى تأتيننا بمُعَلِّقاتٍ	نروحُ على القديم بها نُدلُّ
لعلَّ مواهباً خفيت وضاعت	تُذاعُ على يدك وتُسْتَعْلُ
صحايقك المدبَّجة الحواشي	رُبى الوردِ المفتِّح أو أجلُّ

مؤسس الجماعة جمع بين مذاهب عديدة؛ مصطفى هدارة، دراسات في الأدب، ص34، وقال: إن أبولو رابطة للشعراء أكثر مما هي مدرسة فنية ذات اتجاهات متميزة.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70.

(2) أحمد شوقي، الشوقيات، 86/4.

رياحين الرياض يُملُّ منها وريحان القرائح لا يُملُّ
يُمَهِّدُ عبقريُّ الشَّعرِ فيها لكلِّ ذخيرةٍ فيها مَحَلُّ
وليس الحقُّ بالمنقوص فيها ولا الأعراضُ فيها تُسْتَحَلُّ
وليسَتْ بالمجال لنقدِ باغ وراءَ يراعِهِ حسدٌ وغِلُّ

واستمرت المجلة تصدر حتى سنة (1935 / 1354)، وصدر عوضاً عنها مجلتا: أدبي والإمام، أصدرهما أبو شادي في الإسكندرية لكن خفَّت دورهما، وأثرهما في الشعر والأدب، ولم يعد موجوداً. وقد اهتمت الجماعة بنشر كثير من كتب أعضائها ودواوينهم الشعرية⁽¹⁾.

العوامل التي ساعدت على تشكيل جماعة أبولو

أسهمت عوامل عديدة في تشجيع أحمد زكي أبو شادي على تشكيل هذه الجماعة الشعرية، وأهمها⁽²⁾:

1. اتساع التعليم وانتشار الثقافة في مصر.
2. اتصال الأدباء والشعراء والمتقنين في مصر بالآداب الغربية مباشرة، أو من خلال الترجمة عبر الجامعة المصرية، ومن خلال ما كتبه الجيل الجديد من الأدباء المصريين في الصحف والمجلات من آراء جديدة في الأدب والشعر، فضلاً عن نشر ترجمات لنماذج من أشعار الشعراء الغربيين بعامية والشعراء من: بريطاني، وفرنسا بخاصة.
3. لجوء الملك فؤاد ورئيس الحكومة المصرية إسماعيل صدقي وبالاتفاق مع الاحتلال البريطاني إلى التضييق على حرية الناس، وبخاصة من خلال تشديد الرقابة على ما ينشره الأدباء والكتاب، والشعراء من مقالات متنوعة في الصحف والمجلات المصرية، فأصاب الشعراء اليأس، وسيطر عليهم الحزن. وقد قيل إنها صدرت بدعم من الملك ورئيس الحكومة لصرف

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص 99.

(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص 73.

الشباب عن ظلم الحكومة، ومشاكل البلاد، وإهائهم بقضايا الحبّ والهيّام التي شغل بها شعراء المجلّة⁽¹⁾.

قال شوقي ضيف وكأنّه يُبرّر سلوكهم: "فكان طبيعياً أن ينطوي الشعراء على أنفسهم، وأنّ يجترّوا الألم والحزن، ويعكسوها على ما حولهم من الطبيعة؛ فإذا هم رومانسيون في جمهورهم. وهي رومانسية تتّضح أصداؤها في أشعارهم، وفي نفس عنوانات دواوينهم؛ فلأبي شادي "الشعلة" و "فوق العباب"، ولإبراهيم ناجي "من وراء الغمام"، ولعلي محمود طه "الملاح الثّانة"، ولحسن الصيرفيّ "الألحان الضائعة"، ولمحمود أبي الوفا "الأنفاس المحترقة"⁽²⁾.

4. عناية المجلّات والصحف في مصر بالأدب، سواء من حيث الكتابة في ماهية الأدب والقيم التي يجب أن يتضمّنها، أم من حيث التعريف بكبار شعراء أوروبا مع نماذج من أشعارهم وتوضيح مذاهم الأدبية، أم من حيث التعريف بشعراء المهجر، ونماذج من أدبهم. وبذلك وقرت المجلّات والصحف لأدباء جماعة "أبولو" وغيرهم أربعة نماذج من الأدب، هي: أدب مدرسة النهضة (الإحياء)، وأدب مدرسة الديوان، والأدب الغربيّ، وأدب المهجر.

هذه النماذج أدت إلى اطلاع شعراء جماعة "أبولو" على نماذج شعرية كثيرة، فجاء شعرهم في نماذج وأغراض عديدة، وقد ظهر هذا التأثير بوضوح في دواوين أحمد زكي أبو شادي حيث جاء شعره في أغلب موضوعات الشعر العربي المعروفة قديماً، وتلك الحديثة؛ فقد ضمّت دواوينه مواضيع: الحب والطبيعة، والأسواق بما فيها من بشر وأغراض، والأساطير اليونانية، والمخترعات الحديثة، والتاريخ، والحضارة المصرية الفرعونية، والشعر الوطنيّ، والقوميّ والإنسانيّ، والإسلاميّ وغيرها.

أما أساليب أدب الجماعة فقد تراوحت بين المحافظة على أساليب مدرسة النهضة، وبين أساليب مدرسة الديوان فلم يُشكّل أصحاب هذه الجماعة مذهباً خاصاً بهم، وذلك على الرغم من وضوح النزعة الرومانسيّة في أدب أدبائها.

(1) انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص15-16.

(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص71-74؛ أحمد هيكّل، موجز الأدب الحديث، ص194-206.

نقد جماعة أبولو

انتقد عدد من دراسي الأدب جماعة "أبولو" في أمرين هما(1):

1. افتقار الجماعة للتخطيط الفني.
2. لم يكن لها هدف شعري واضح، ولا مذهب أدبي محدد، بل اعتبرت نفسها جماعة كلّ شاعر مصري.

أهداف جماعة أبولو

حدّدت الجماعة لنفسها ثلاثة أهداف عامة، هي(2):

1. الرقي بالشعر العربي، وتوجيه جهود الشعراء توجيهًا شريفًا.
2. مُنصرة النهوض الفني في الشعر العربي.
3. رعاية الشعراء والعناية برفع مستواهم ماديًا واجتماعيًا، وأدبيًا والدفاع عن كرامتهم.

خصائص جماعة أبولو

على الرّغم من عدم وجود مذهب واضح لجماعة "أبولو"، وعدم وجود تخطيط فني لها إلّا أنّ معالم الرومانسيّة الأوروبيّة كانت بارزة في شعر كثير من الشعراء الذين نالوا عضوية الجماعة، ويمكن توضيح خصائص الجماعة في محورين، هما(3):

الأول: مضمون الشعر

شاع في شعر أغلب شعراء جماعة "أبولو" مضامين شعرية عديدة أهمها:

1. الاهتمام بالحب مع إضفاء الطابع الروحيّ.
2. الحنين للوطن بعامة، ومواطن الذكريات منه بخاصة، وصبغ حنينهم بالحزن والشكوى؛ وذلك تعبيرًا عن خيبة أملهم.

(1) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70-71.
(2) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص70؛ محمد خفاجي، الأدب العربي الحديث، ص250، حركات التجديد، ص97.
(3) انظر: أحمد هيكّل، موجز الأدب الحديث، ص221-229.

3. الإكثار من ذكر الطبيعة بعامة، والمناطق الريفية منها بخاصة، مع ما في هذا الريف من طبيعة بسيطة، وأناس بسطاء.
4. سيادة قضايا الحياة والموت، والإيمان والكفر، واليقين والشك في أشعارهم مع ما يرافق هذه القضايا من تأمل وإطالة نظر وتفكير أدى ببعضهم إلى الزهد.
5. معالجة قضايا الوطن العربي والإسلامي، وبخاصة الجهاد ضد الاستعمار في: فلسطين، وسوريا، وليبيا، والجزائر، والمغرب وغيرها.
6. الإيمان بأنّ الحزن والألم هو مصدر الإبداع الشعري؛ لذلك كثرت في أشعارهم الشكوى سواء أكانت من الوحدة، أم الفشل في علاقة الحب، أم خيبة الألم.

الثاني: بناء القصيدة

اعتمد شعراء جماعة "أبولو" عناصر جديدة عديدة في بناء قصائدهم، ومنها:

1. استخدام الرمز في شعرهم؛ وذلك بسبب الأوضاع السياسية، وخوفًا من مواجهة الأنظمة الحاكمة.

2. استخدام التشخيص (التجسيم) في نقل المعاني المقصودة للقارئ، فهم يُحوّلون بهذه الطريقة المعنوي المجرد إلى مادي حسي، وبذلك بعثوا الحياة في مواد الطبيعة.

من أعلام جماعة "أبولو"

ضمّت جماعة "أبولو" عددًا كبيرًا من شعراء مصر من كلّ الأطياف: الثقافية، والسياسيّة، والدينيّة، كما نشرت لشعراء من الوطن العربي ومن المهجر⁽¹⁾، وسأحدث عن اثنين ممّن كانوا أكثر استيعابًا لآراء الجماعة، وتمثيلًا لها، وهما:

1- أحمد زكي أبو شادي، عاش ما بين (1892/1310 و1955/1375)⁽²⁾.

ولد أحمد زكي محمد أبو شادي في القاهرة لأب محام، وخطيب مفوّه، وأم أديبة وشاعرة، وكان خاله شاعرًا، وهو: مصطفى نجيب. وتعلّم في مدارس القاهرة، وفي سنة (1912/1330) سافر إلى لندن لدراسة الطب، فلمّا تخرّج حصل على منحة لدراسة علم الجراثيم، واستمرت إقامته في لندن عشر سنوات، وفي لندن اطلع على الأدب الإنجليزي، وأنشأ "جمعية آداب اللغة العربيّة"، وعمل في: التصوير، وتربية النحل، وغيرها من الأعمال التي أتقنها.

شاعريته

تفجّرت موهبة أحمد زكي أبو شادي الشعرية، وهو في ريعان شبابه، وقد نشر ما كان ينظمه أو يكتبه في المجلات والصحف المصرية، وأصدر أول دواوينه

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص98-99.

(2) انظر ترجمته في: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص5-32؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 55/2؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص145؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص101؛ قصة الأدب المهجري، ص398؛ مع الشعراء المعاصرين، ص17-25.

الثلاثة والعشرين بعنوان " أنداء الفجر " وهو ابن ثمانية عشر عاماً، وذلك سنة (1909 / 1327)⁽¹⁾.

وقد تأثر كثيراً بخليل مطران، والشعر الإنجليزي، ونظم شعره في كلّ موضوعات الشعر العربيّ مع الاهتمام بوصف الطبيعة والغزل، والشعر القصصي والتمثيلي، والشعر الوطني والقومي. ويمثل شعره أهداف وآراء الجماعة التي أسّسها أصدق تمثيل، فهو على الرغم من شيوع سمات الرومانسية في كثير من أشعاره إلّا أنّه لم يلتزمها التزاماً واضحاً⁽²⁾.

أما أساليب أبي شادي، فيغلب عليها السهولة في الألفاظ، والوضوح والبساطة في المعاني، وقد نظم في الشعر المرسل نماذج عديدة بثّها في دواوينه المختلفة⁽³⁾.

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص16، 18. ذكر له وديع فلسطين خمسا وثلاثين ديواناً منها اثنان باللغة الإنجليزية. انظر: وديع فلسطين، صورة من قرب: الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد زكي أبو شادي، ص13-14.

(2) انظر: مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص169؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص19 وهو يعتبره رائد المدرسة الرومانسية في مصر.

(3) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص453، وقد سمّاه الطليق، وقال إنه تحرّر فيه من قيد القافية لكنه التزم بالوزن الواحد، كما أنه نظم شعراً متنوع الوزن؛ مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص170-173؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص148.

مؤلفاته

كتب أحمد زكي محمد أبو شادي في مجالات العلم المتنوعة؛ إذ كان موسوعي المعرفة، فهو طبيب، وعالم في علم الجراثيم، وفي النباتات والحيوانات، وأديب؛ شاعر ونائر، ومؤرخ، ومفكر، وعالم باللغات، فترجم كثيراً من الآداب والعلوم التي رأى حاجة لمجتمعها في ترجمتها. وفي الشعر صدر له ثلاثة وعشرون ديواناً.

تشكيل شاعرية أبي شادي

أسهمت عوامل عديدة في تشكيل شاعرية أبي شادي المتنوعة والواسعة، وأهمها⁽¹⁾:

1. موهبته الشعرية المتدفقة، وسرعة بديهته، حتى أنه كان يستطيع أن ينظم شعراً في أي موضوع يخطر بباله، أو يثير اهتمامه.
2. تنوع مصادر ثقافته، وعدم تعصبه لثقافة بعينها، فكان يبحث عما يوسع مداركه، ويُنمي فكره، ويُرضي ذوقه؛ فأخذ عن أحمد شوقي وحافظ إبراهيم أصول الشعر العربي؛ في بناء القصيدة، ووزنها وقافيتها، وألفاظها ومعانيها، وعن خليل مطران التجديد في الشعر من حيث الوزن والقافية والموضوعات؛ إذ كان خليل مطران يميل للشعر المرسل، ومن رواد الرومانسية؛ واطلع على الآداب العربية القديمة، والآداب الأوروبية بعامة، والأدب الإنجليزي بخاصة حيث أمضى عشرة أعوام من كهولته في بريطانيا، وكذلك الحال مع الأدب الأمريكي حيث عاش آخر تسع سنوات من حياته في أمريكا، فاطلع على نتاج هذين الأدبيين، واتصل بأدبائهما اتصالاً مباشراً، فأخذ عنهما المفهوم الغربي للشعر، وأنواع الشعر ومذاهبه، فعرف الشعر القصصي، والتمثيلي، والغنائي. والمذاهب الرومانسية، والرمزية، والواقعية.

3. وظائفه العديدة، والمتنوعة، فهو طبيب، وعالم في علم الجراثيم، ونحال (مربي نحل)، وعالم في النبات، وصحفي، ومصوّر، وموسيقي، فضلاً عن قيامه بتأسيس جمعيات تهتم بالعلوم التي كان يتقنها والوظائف التي عمل

(1) انظر: محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18-19؛ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص153؛ مصطفى السحرّتي، الشعر المعاصر، ص168-181.

فيها، وهذا التنوع في الوظائف والعلوم انعكس على نتاجه الشعري، فلم تخل دواوينه الشعرية من أي من موضوعات الحياة.

ولأن موضوع البحث هو الأدب بعامة والشعر بخاصة، فالأهم هو ذكر بعض آثاره فيها، فهو ترك ثلاثة وعشرين ديوان شعر، وعشر مسرحيات، وعدداً من القصص، فضلاً عما كتبه من مقالات أدبية ونقدية نشرها في الصحف والمجلات المختلفة، وهذا الانتاج الأدبي الغزير جعل النقاد ودارسي الأدب يختلفون في أحكامهم عليهم، فمنهم من عدّه "درةً متألقة في جبين الشعر المعاصر، وفيه روائع من القصيد، لم تجد بها قريحة شاعر"⁽¹⁾ ومنهم من رأى أنه: "لم يترك باباً من أبواب الشعر إلّا وأفاض فيه؛ فله الشعر الوجداني والغزلي، والوصفي، والتصويري، والفلسفي، والصوفي، والقصصي، والتمثيلي"⁽²⁾. وقد اتبع أبو شادي ثلاثة مذاهب فنية، ففي مرحلة الصبا كان رومانسياً، وفي مرحلة الكهولة ظهرت عليه نزعة صوفية واجتماعية وإنسانية، وفي مرحلة الشيخوخة والنضج سادت في شعره النزعة الواقعية والتقدمية⁽³⁾.

ومنهم من رأى أنّ أبا شادي قدّم للأدب العربي الحديث خدمات جليلة، وأنّ شعره مفخرة للأدب العصري، لكنّ غزارة انتاجه، وعدم دراسة أدبه دراسة وافية من قبل بعض الدارسين جعلت هؤلاء لا يُقدّرون أدبه التقدير اللازم الذي يستحقّه، وهو جمع في أدبه بين ثلاثة مذاهب أدبية كانت سائدة في عصره هي الكلاسيكية، والرومانسية، والواقعية، مع غلبة الرومانسية على شعره حتى عدّه رائدها في مصر، وقد ضرب أمثلة على ذلك من دواوين شعره، مع الإشارة إلى أن شعره لا يخلو من بعض العيوب سواء أكانت في الصياغة، أم الوزن أم القافية أم غيرها من العيوب التي لا تقلل من قيمة أدبه⁽⁴⁾.

وأخيراً يرى شوقي ضيف أنّ غزارة انتاج أبي شادي الشعرية، وسرعة بديهته في النظم في أي موضوع يخطر بباله، جعل تجاربه الشعرية – في أكثر الأحيان- غير ناضجة، وبالتالي لم يستطع النهوض بالشعر فنياً⁽⁵⁾.

نماذج من شعره: اخترت خمسة نماذج من شعره، وهي:

- (1) محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18.
- (2) يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 56/2. وانظر: محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18.
- (3) انظر: محمد خفاجي، مع الشعراء المعاصرين، ص18-19.
- (4) انظر: مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر، ص168-181.
- (5) انظر: شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص153.

النموذج الأول بعنوان: "أنداء الفجر"، قال⁽¹⁾؛

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهَرِ العَا	شَقَّ صِيغَتُ وَمِنْ رَجَاءِ الحَيَاةِ
فِي حَنَانٍ وَرَقَّةٍ وَهِيَ لَا تَم	لَكَ مِنْ عَمَرِهَا سِوَى لِحَظَاتِ
فِي تُغُورِ الْأَزْهَارِ فِي أَلْقِ العُشِّ	بِ وَفَوْقَ الغُصُونِ تَحِيَا وَتَقْنَى
وَهَبَّتْ حُسْنَهَا الضَّحِيَّةَ لِلشَّم	سَ كَأَنَّ الفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَغْنَى
وَيَعُودُ الفَجْرُ الوَفِيُّ بِهَا بَع	ثًا، وَلَكِنْ تَعُودُ تَمْضِي الضَّحِيَّةُ
هِيَ مِلْكٌ لَنَا حَيَاءٌ وَمَوْتًا	وَهِيَ بِالرُّوحِ صُورَةُ الْأَبْدِيَّةِ

النموذج الثاني بعنوان: "حَيَاتَان"، قال⁽²⁾؛

أُمِّي (الطَّبِيعَةُ)! فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي	وَفِي ابْتِعَادِي أَعَانِي دَهْرِي الْعَادِي
وَفِي حِمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ	وَكُلِّ نَبِيْلٍ وَحِيْئِكَ الْهَادِي
مَا بِأَلْهَا هِيَ صَفْوِي وَحَدَّهَا فَإِذَا	رَجَعْتُ لِلنَّاسِ لَمْ أَظْفِرْ بِإِسْعَادِي؟
كَأَنَّمَا النَّاسُ أَعْدَاءٌ: فَبَعْضُهُمْ	حَرَبٌ لِبَعْضٍ وَحُسَّادٌ لِحُسَّادِي!

النموذج الثالث بعنوان: "حِظُّ النَّاقِمِينَ"، قال⁽³⁾؛

فَوَادِي بَرِّغَمِ الحَادِثَاتِ كَبِيرُ	وَطَرْفِي وَإِنْ عَزَّ الْعَفَافُ كَسِيرُ
---	---

(1) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص35.

(2) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص37.

(3) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص37.

تَلِينُ لِي الْإَيَّامُ فِي كُلِّ شِدَّةٍ وَلَوْ أَنَّ جُلَّ الْفَاتِحِينَ أَسِيرُ
 سَلَخْتُ مِنَ الْأَعْوَامِ بَعْضًا وَعَشْرَةً أَقِيمِ عَلَى دِينَ الْعُلَى وَأَسِيرُ
 وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِي الْقَلْبِ لَوْعَةٌ عَلَى أَنْ كُلِّي هَمَّةً وَمَرِيرُ⁽¹⁾
 وَمَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ أَنْسٍ وَنَعْمَةٍ وَلَكِنْ حَظُّ النَّاقِمِينَ عَسِيرُ!

النموذج الرابع بعنوان: "الناس"، قال⁽²⁾:

أَسِيرُ فَلَا أَرَى فِي النَّاسِ نَاسًا وَلَكَّيْ أَرَى صُورًا أَمَامِي
 إِذَا كَثُرَ الزَّحَامُ وَخَفَتْ مِنْهَا فَأَقْوَاهَا ضَعِيفٌ فِي الزَّحَامِ
 شُخُوصٌ لَا يُصَانِعُهَا سِوَى مَنْ يَنْزِلُ عَنِ الشَّخُوصِ مِنَ الْأَنَامِ
 وَمَا يُجِدِي لَهَا أَبَدًا مَلَامٌ فَمَا هِيَ فِي الْيَقِينِ وَلَا الْمَلَامِ
 لَقَدْ سَادَ الطُّغَامُ الدَّهْرَ حَتَّى حَسَبْنَا الْمَجْدَ مِنْ فَضْلِ الطُّغَامِ
 فَدَعْنِي لَا أَحَازِرُ أَوْ أَبَالِي بِأَوْبَاشِ الْمَنَاكِيدِ اللَّئَامِ
 لَقَدْ قَتَلُوا كِرَامَ النَّاسِ قَتْلًا فَحَسْبِي إِنْ أُمِتَ مَوْتُ الْكِرَامِ
 وَدَعْنِي فِي إِبَائِي فَهُوَ عِنْدِي أَجَلٌ مِنْ انتِقَامِكَ وَانْتِقَامِي

النموذج الخامس بعنوان: "القرد والسمكة"، قال⁽³⁾:

أَمْشِيهَا بِالْقَرْدِ مَنْ هُوَ رَبُّهُ فَضْلًا، أَبَيْتُ لِمِثْلِكَ التَّشْبِيهَا

(1) المريز: العزم، والإصرار. اللسان: مادة مرر.
 (2) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص298.
 (3) أحمد زكي أبو شادي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص452-453.

فالقردُ جَلَّ مِثَالُهُ ووفاءُهُ من أن يكونَ له الخوونُ شَبِيها!
أَعْلِمْتَ أَنَّكَ مِثْلُ أَسْمَاكِ لَهَا قَاعُ المَحِيطِ مَبَاءَةٌ وَحِياهُ
فإذا سَمَتْ مَاتَتْ كأنَّ هوانِها عَيشٌ، وَغَايَاتِ السُّمُورِ مَمَاتٌ!

خامساً: مدرسة شعراء المهجر⁽¹⁾

إحدى مدارس حركة التجديد (التغريب) في الشعر العربي، التي ظهرت في بداية (العقد الخامس من القرن الرابع عشر الهجري/ العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي)، بتأثير من شعراء مدرسة الديوان في مصر، ودعوتهم التغريبية (التجديدية)، القائمة على الدعوة للمذهب الرومانسيّ الابتداعي، وهدم ما أسموه المذهب الكلاسيكيّ الإتياعي، مُتمثلاً في مدرسة الشعر العربيّ الأصيل (الإحيائيين أو البعثيين) الذين قادهم: محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإبراهيم طوقان، وسليم أبو الإقبال اليعقوبي، وإبراهيم الدباغ، وعبد الرحيم محمود، ويوسف النبهاني، وبدر الدين النعساني، وبدر الدين الحامد، وشكيب أرسلان، وعمر أبو ريشة، وعبد المحسن الكاظمي، وجميل صدقي الزهاوي، ومحمد سعيد الحبوبي، ومحمد علّال الفاسي، ومحمد الجزولي، وخالد الفرّج، وسعيد المسعودي، وسليمان الباروني، وفؤاد الخطيب، ومحمد سعيد العباسي، وعبد الله البنا، ومحمد العيد خليفة، ومفدى زكريا، والمختار بن حامد الديماني، وصالح الحامد وغيرهم مئات بل آلاف الشعراء ممّن ساروا على مذهب الشعر العربيّ الأصيل، الذين حرص أصحاب المذاهب التغريبية على عدم ذكرهم، والاكتفاء بذكر البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم .

بعد مُضيِّ عقد على بداية ظهور مدرسة المهجر، أي في (أوائل العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجريّ / العقد الثالث من القرن العشرين الميلادي)، علا صوت شعراء هذه المدرسة، وذاع صيتهم في أنحاء العالم بعامة، والعالم العربي

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص17-45؛ محمد خفاجي، حركات الشعر، ص171؛ قصة الأدب المهجريّ، ص71؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة، ص38؛ محمد هدارة، دراسات في الأدب، ص32؛ عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص324؛ فواز طوقان، أسرار تأسيس الرابطة، ص25.

بخاصة، وذلك من خلال تشكيلهم جمعيات، ونشرهم صحف ومجلات؛ يلتقون فيها، وينشرون أدبهم وآراءهم فيها. وقد عُرف أدبهم بأدب المهجر.

ويُقصد بأدب المهجر: الأدب الذي أنتجه الأدباء العرب؛ شعراً ونثراً، الذين هاجروا من بلاد الشام بعامة؛ وسوريا ولبنان بخاصة إلى أمريكا الشماليّة، والوسطى، والجنوبيّة.

وقد بدأت هجرة أهل الشام بعامة، والأدباء منهم بخاصة إلى أمريكا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، واستمرّ حتى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري/بداية النصف الأول من القرن العشرين، حيث أخذ جدول أدب هؤلاء الأدباء في الجفاف، ثم توقف عن التأثير، والجريان لرفد نهر الأدب العربي الكبير.

وقد ذهب بعض الدارسين إلى تشبيه هذا الأدب بالأدب العربي في الأندلس، بجامع البيئة الجديدة التي نشأ فيها، والأثر الذي تركه في حياة الأدب العربي⁽¹⁾. والحقيقة أنّ وجه الشبه بسيط لا يكاد يُذكر، وهناك مناطق كثيرة هاجر إليها الأدب العربي، وأثر فيها منذ هاجر إليها في بداية (القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي)، وحتى يومنا هذا (القرن الخامس عشر الهجري/ الحادي والعشرين الميلادي)، ويتمثل ذلك في هجرته المشرقيّة، حيث آثاره لا تزال ماثلة في الآداب الفارسيّة، والتركيّة، والهنديّة.

أما الأدب المهجريّ، فمدّته لا تزيد عن قرن من الزمن، وأدبه انصبّ على اتجاه محدّد، وهو يكاد ينحصر في العنصر الأقل تأثيراً في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وهو العنصر المسيحيّ، كما أنّه حاول نقل مظاهر الحضارة العربيّة المسيحيّة للحضارة العربيّة الإسلاميّة، خدمة للتبشير المسيحيّ، والاستعمار المسيحيّ في العالم الإسلاميّ؛ ولذلك لا أحد يذكره إلّا في بلاد الشام ومصر من خلال بعض المناهج الدراسيّة. أما الأدب الأندلسيّ، فهو وليد العرب والمسلمين، وامتدّ ثمانية قرون ونيّف، وآثاره لا تزال قائمة، وستبقى في كلّ مناحي الثقافة العربيّة الإسلاميّة بعامة، وفي الأدب العربيّ منها بخاصة، وذلك على الرّغم من قيام الكنيسة الكاثوليكيّة الإسبانيّة بحملات تنصير شاملة للمسلمين، ومحو كلّ ما استطاعت من آثار الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

1- أسباب الهجرة إلى أمريكا

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص173-175؛ مارون عبود، مجدّدون ومجترون، ص155.

هناك أسباب عديدة دفعت أهل الشام بعامّة، والنصارى منهم بخاصّة إلى الهجرة من بلادهم إلى أمريكا منذ (أواخر القرن الثالث عشر الهجري/منتصف القرن التاسع عشر)، وتتمثل هذه الأسباب في⁽¹⁾:

1. حرمان أهالي جبل لبنان وفق النظام الخاص، الذي شرّعه له بريطانيا وفرنسا بالضغط المتواصل على الدولة العثمانية، حماية للنصارى- من السهول الصالحة للزراعة، ومن ارتياد البواخر التجارية ساحله، فيما كانت ترسو في موانئ: بيروت، وطرابلس، وصيدا وغيرها، وهذا الحرمان أدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية في أوساط أهالي جبل لبنان النصارى، فسعوا إلى الهجرة بكلّ السبل الممكنة من أجل تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية. قال يوسف الحكيم: "وكان اللبنانيون أسبق إخوانهم السوريين في هذا المضمار، نظراً لحرمان جبلهم من السهول الصالحة للزراعة، ومن ارتياد البواخر ساحله بمقتضى نظامه الخاص"⁽²⁾

وقد عبّر عن ذلك إيليا أبو ماضي، فهو يحنّ إلى وطنه، ويتمنى العودة إليه، لكنّ خوفه من عودة الفقر الذي كان سبب هجرته، يمنعه من العودة، قال⁽³⁾:

أرومُ إلى ربّى لبنان عوداً فيمنعني عن العودِ افتقارُ
ولو خُيرتُ لم أهجر بلادي ولكن ليس في العيش اختيارُ

2. تمكن كثير من المهاجرين من الثراء والحصول على ثروات كثيرة، فقاموا بتحويل بعضها إلى ذويهم في جبل لبنان، الذين بدأوا بإعمار أراضيهم، وزرعوها بأشجار الزيتون، وأنواع الفواكه، وبنوا البيوت الفاخرة، فأوحى ذلك الثراء في جبل لبنان إلى أهالي القرى المجاورة بالهجرة على خطى

(1) انظر: أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية، 68/2؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص13-25. وقد وضع إحصاء لعدد المهاجرين العرب إلى دول القارات الأمريكية، وأستراليا، ونيوزلندا حيث فُتّر عددهم بأكثر من مليوني مواطن. كما فصلّ في موجات الهجرة من كل من سوريا ولبنان؛ يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص240؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 2/473 و527 و531 و584 وغيرها؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82؛ إيليا أبو ماضي، ديوانه: دراسة عن إيليا شاعر المهجر الأكبر، ص17؛ محمد قوبعة، الرومنطيقية ومنابع الحداثة، ص38.

(2) يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص240؛ إيليا أبو ماضي، ديوانه: دراسة عن إيليا شاعر المهجر الأكبر، ص19.

(3) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82.

أهالي الجبل. وذلك على الرغم من كلّ الصعوبات التي كانوا يلاقونها من الدولة العثمانية، التي كانت تمنع الهجرة؛ لحاجتها للشباب في: فلاحه الأرض، والخدمة العسكرية. قال يوسف الحكيم: "مما أوحى فكرة الهجرة التي اتبعوها إلى أهل القرى المجاورة لجبل لبنان، رغم الصعوبات التي كانوا يلاقونها من رجال الحكومة، بناء على الأوامر الصادرة من العاصمة، ولعلّ أهم موجباتها هي حاجة البلاد العثمانية والسورية منها خاصة إلى الأيدي العاملة لاستغلال الأراضي الواسعة، وضرورة قيام أبنائها بالخدمة العسكرية المفروضة عليهم"⁽¹⁾.

3. التعصّب الدينيّ عند بعض الطوائف المسيحية الشرقية، والخلاف بينها وبين الإرساليات التبشيرية المسيحية الكاثوليكية، والبروتستانتية المدعومة من الدول الأوروبية وأمريكا، حيث كانت هذه تعمل على تحويل نصارى الشرق إلى مذهبها، ومن ذلك قيام بطريرك الموارنة في لبنان باعتقال أسعد الشدياق بسبب تحوّلته إلى البروتستانتية، حيث قام البطريرك بتعذيبه حتى الموت، وذلك كان سبباً في هجرة شقيقه أحمد فارس الشدياق، ثم تحوّلته إلى الإسلام، كما أنّ القس السرياني لويس صابونجي هاجر إلى أوروبا، ثم أمريكا بسبب خلافه مع الموارنة حيث ألف رسالة بعنوان "الرحلة الفتية" جعلها في الطعن بالطائفة المارونية⁽²⁾.

4. تشجيع الدول الأوروبية للنصارى في بلاد الشام، والأقليات الأخرى الذين درسوا في مدارس الإرساليات التبشيرية أو في الغرب، وأتقنوا لغاته على الهجرة إليها، أو البلاد التي احتلتها للعمل لديها بوظيفة مترجم، أو عميل لنشر ثقافته، وعاداته وتقاليده، والمساهمة في تغيير المجتمع المسلم تحقيقاً للأهداف الاستعمارية، وقد أكد أكثر من دارس للأدب هذا الأمر، ومن أهم هؤلاء مارون عبود، إذ قال: "أجل كان اللبناني رسول ثقافة بين الشرق والغرب، فأنشأ في سفوح جبله، وعلى قممه مدارس تُعلّم لغات الغرب على حقّها... وكان الذين تعلّموا في تلك المدارس تراجمة الأجنبية حين جاء مصر غازياً، ثم انكفأ عنها بعدما ألقى فيها بذور علمه ومدنيته"⁽³⁾.

(1) يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص240.

(2) انظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 527/2 و473.

(3) مارون عبود، الرؤوس، ص286.

وهذا ما يقوم به كثيرون من هؤلاء مع أمريكا، وأوروبا، وروسيا في غزوهم الجديد للوطن العربي والإسلامي بعد قرن ونيف من الزمن، حيث بدأ غزوها الجديد باحتلال أفغانستان سنة (1431/2001)، ثم العراق، ثم سوريا، ثم ليبيا.

5. الرّغبة في الثراء، وبخاصة عندما اتصل النصارى العرب، والمسلمون من أبناء العائلات المتنفذة بالأوروبيين في مدارس الإرساليات التبشيرية، حيث عرفوا الكثير عن العالم الجديد، والفرص المتاحة فيه، كما أنّ بعضهم سافر إلى أوروبا، فزادت معرفته عن العالم الجديد، وفرص العمل والثراء فيه، لذلك فقد كان طلب المال والثراء عاملاً مهماً من عوامل الهجرة.

6. تدهور الأوضاع السياسيّة في بلاد الشام، جرّاء الفتن الدّينية، والمذهبيّة، والعرقية التي أثارها قناصل الدول المسيحيّة الأوروبيّة، والولايات المتحدة، وروسيا القيصرية بالتعاون مع المبشرين ومدارس الإرساليات التبشيريّة، والمستشرقين، وذلك لزيادة تدخّل تلك الدول في شؤون الدولة العثمانيّة، والحصول على مزيد من الامتيازات. ولاستغلال بعض هؤلاء المهاجرين في الإساءة للدولة العثمانيّة، والحطّ من شأنها، وبناءً على ذلك وجدنا كثيراً من هؤلاء المهاجرين قد أنشأوا صحفاً ومجلات بمساعدة حكومات الدول الاستعماريّة المسيحيّة، وفتحوا صفحاتها للطعن في الدول العثمانيّة، والدّعوة إلى توفير الحماية للنصارى، والأقليات العرقية والمذهبيّة في الدولة العثمانيّة بحجة حرية التعبير، والدين، وحماية ما تُسمّيه حقوق الإنسان، فظهر هؤلاء وكأّهم يعيشون في واحة من الحرية فيما هم يُمارسون الخيانة العظمى لوطنهم، ويُقدّمون خدمات جليلة للدول الاستعماريّة بجامع الدين، أو المصلحة الشخصية.

7. حبّ المسلمين بعامّة، وأهل الشام بخاصة للرحلة، والسياحة في الأرض، فمنذ الفتح الإسلاميّ في (القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي)، شكّل أهل الشام جزءاً مهماً من حملات الفتوحات الإسلاميّة في كلّ الاتجاهات، ومع دخول الشام في إطار الدولة العثمانيّة، وزيادة مساحة رقعة دولة الخلافة العثمانيّة زاد سفر أهل الشام إلى كلّ المناطق، حتى إن أغلب علماء الشام الذين ظهرُوا في حقبة الدّولة العثمانيّة ألفوا رحلات إلى المناطق التي زاروها. وكثير من هذه الرحلات ما زالت مخطوطة.

ولذلك لمّا عرف أهل الشام العالم الجديد، هاجر قسم منهم حبّاً في المغامرة، ورغبة في بناء حياة جديدة، أو في جمع المال والثروة مع المحافظة على الثقافة، والتراث، والدين.

8. سهولة الهجرة إلى أمريكا؛ إذ لم تكن الولايات المتحدة، ودول أمريكا الجنوبية تفرض أية شروط صعبة، أو قيود على الهجرة إليها، والعيش فيها، كما أن تلك الدول لم تكن تضع أية قيود على الأعمال التي يقوم بها هؤلاء المهاجرون.

9. تشجيع إمبراطور البرازيل اللبنانيين على الهجرة إلى بلاده، وتسهيل حياتهم في بلاده؛ فعندما زار الإمبراطور البرازيلي "إلدون بدرو الثاني" لبنان، استقبله اللبنانيون بحفاوة، فأعجب بهم، وبحيويتهم، وأبدى رغبته في أن يُهاجر إلى بلاده عدد منهم، مع الوعد بتقديم كل مساعدة ممكنة لهم. ويُروى عن هذا الإمبراطور أنه التقى بلبنانيين اثنين في "سان باولو"، فلمّا لم يستطعا إجابته؛ لعدم معرفتهما باللغة البرتغالية، وحادثة عهدهما في البلاد، منحهما بطاقته الشخصية، وطلب منهما مقابلته في القصر، فلمّا ذهبا إليه أحسن استقبالهما، ووَقّر لهما عملاً، ومنحهما مبلغاً من المال.

10. قيام سلطات الاحتلال البريطاني في مصر سنة (1300/ 1882) زمن ثورة أحمد عرابي، بتوجيه إنذار إلى بعض اللبنانيين والسوريين المهاجرين إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن المصرية بضرورة مغادرة مصر إلى أمريكا وأستراليا، فكانت هذه أول هجرة شبه جماعية إلى العالم الجديد. وذلك من أجل خدمتها في تلك البلدان بوسائل متنوعة، وأهم الأعمال التي قاموا بها هي: الترجمة في الجيش المحتل، وفي القنصليات البريطانية للتعامل مع العرب والمسلمين، وتجنيدهم لصالح الدول المستعمرة. فقد ذكر يوسف الحكيم أن قنصليات معظم الدول الأوروبية وروسيا في طرابلس الشام - عندما كانَ هو نائباً عاماً في المدينة - كانت بعهدة آل كاتفليس قال: "فأحدهم جورج هو قنصل روسيا، وشارلو قنصل إيطاليا، وجواني قنصل النمسا، وابنه رودولف قنصل بلجيكا بالإضافة إلى قنصلية النمسا التي عهد بها إليه بعد وفاة والده، وكان كلّ منهم يقوم بواجباته نحو الدولة التي يُمثلها... وكانَ لديهم تراجمة فخريّون من كرام الطرابلسيين؛ بشارة كرم في القنصلية الروسية، ومحمد البابا في القنصلية الإيطالية، ووديع طريبه وجورج صعب في القنصلية الفرنسية"⁽¹⁾.

11. تشجيع الناجحين من المهاجرين ذويهم، وأقاربهم ومعارفهم على اللحاق بهم، وتقديم الخدمات الأولى لهم في المهجر.

(1) يوسف الحكيم ، سوريا والعهد العثماني، ص236. وانظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 342/2، حيث ذكر أن جرجي زيدان عمل مترجماً للجيش البريطاني الذي احتل السودان.

12. تشجيع بعض الحجاج المسيحيين من أوروبا-الذين كانوا يشترون المصنوعات الفلسطينية-بعض الفلسطينيين المهرة في الصناعة على الاتجار بمصنوعاتهم في أوروبا وأمريكا، وبخاصة أنها تأتي من بلاد مقدسة (فلسطين).

13. قيام أغنياء التجار في بعض موانئ بلاد الشام بعامة، وفي ميناء بيروت بخاصة، وبالتعاون مع سماسرة في تلك المدن بتشجيع الناس على الهجرة، رغبة في الحصول على أموال المهاجرين، حيث كانوا يستغلونهم أشنع استغلال. قال يوسف الحكيم: "قام سماسرة من الشجعان ذوي النفوذ والخبرة بمهمة تسهيل أمر السفر لمن أراد الهجرة، وإيصالهم ليلاً إلى البواخر، التي تنتظرهم في عرض البحر، بواسطة بحارة أطلق عليهم اسم مهرّبين؛ وذلك لقاء مبلغ من المال من كلّ مسافر"⁽¹⁾. وهذا كان يتم كما يقول يوسف الحكيم في أول الأمر باتفاقات سرّية بين المهرّبين، وبعض موظفي وقادة الأمن، وخفر السواحل الشاميّة، كما أنه كان يتم بالاتفاق مع قادة السفن الحربيّة البريطانيّة والفرنسيّة، التي كانت تُراقب سواحل الشام. ويؤيّد ذلك ما نقله عيسى الناعوري عن يعقوب ضعّون حول منع الدولة العثمانية الهجرة، وتعامل المهرّبين بها بالاتفاق مع الدول الغربيّة المسيحيّة، قال: "إنّ الهجرة في زمن العثمانيين كانت محظورة رسمياً، ومُباحة عملياً بواسطة المهرّبين، حيث يصل المسافر إلى جنوة، أو مرسيليا، وهناك يستلمه سمسار جديد، ويُنزله في خان[فندق] قذر! ولا يحمله إلى باخرة تنقله إلى أمريكا إلّا حينما يُفرغ جيبه من الفلس الأخير"⁽²⁾.

وهذا التهريب لا يختلف عمّا يجري من تهريب المواطنين من العالم العربيّ وأفريقيا إلى أوروبا عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط منذ (بداية العقد الثالث من القرن الخامس عشر الهجريّ/ العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين) أي بعد قرن كامل، حيث تتم عمليات التهريب باتفاقات ورشاو بين المهرّبين، وخفر السواحل، وموظفي الجمارك في البلدان العربيّة المُشاطئة للبحر الأبيض المتوسط، وبين قيادات في الأساطيل الغربيّة المسيحيّة الموجودة في البحر الأبيض المتوسط.

14. تشجيع الدول الأوروبيّة للدروز، والنّصيريّة، والإسماعيليّة، والنصارى اللاتين والروم على العصيان والتمرد على الدولة العثمانية، وبالتالي توفير

(1) يوسف الحكيم ، سوريا والعهد العثمانيّ، ص24.

(2) محمد خفاجي، قصة الأدب الهجريّ، ص18.

الحماية لهم في بلدانها عندما تتمكن الدولة العثمانية من القضاء على تمردهم، أو اكتشاف مخططاتهم الهدامة كما حصل في تمرّد النصيرية، والإسماعيلية، والفتنة بين الدروز والموارنة وغيرها من الأحداث التي استغلّتها الدول الأوروبية للتدخل في شؤون الدولة العثمانية.

15. خيانة بعض النصارى ممّن كانوا يعملون موظفين في سلك الدولة العثمانية الإسلامية، الأمانة الوظيفية، وتعرضهم للاعتقال، والمحاكمة بسبب ما ارتكبه من جرائم، والحكم عليهم بالسجن، فكانوا يهربون إلى خارج البلاد العثمانية بمساعدة القناصل الأجانب، أو تقوم عائلاتهم بالهجرة، كما حصل مع عائلة خليل جبران، الذي كان يعمل مُحصّلاً للرسوم التي تُجبي عن المواشي في منطقة "جرود" شمالي لبنان، وتمّ اعتقاله ومحاكمته، ثم مصادرة أمواله وسجنه؛ لقيامه باختلاس وسرقة الرسوم التي كان يُحصّلها، فقامت عائلته المكوّنة من: زوجته، وأولاده الأربعة ومنهم ابنه جبران بالهجرة إلى أمريكا: "لم ينعم جبران طويلاً في حياته... لأنّ الأب أثم باختلاس ما كان يجبيه من الرسوم، وسُجن، وحُجزت أملاكه، فما كان من الأمّ إلّا أن غادرت الوطن، ومعها أولادها الأربعة قاصدة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نزلت في حي الصّينيين في بوسطن، وكان ذلك سنة (1895)". [أي 1312 هجرية]⁽¹⁾. كما أنّ الشاعر والصحفي رزق الله حسون، الحلبي المولد، والأرمني الأصل، عمل في الجمارك حتى ترقى إلى نظارة (إدارة) جمارك الدّخان، وقربّه فؤاد باشا الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إليه، لكنه اختلس أموال الجمارك، فاعتقل وحكم بالسجن؛ لكنّه هرب إلى روسيا القيصرية، ومدحها وحنّها على احتلال إستانبول عاصمة الخلافة، ثم هاجر إلى بريطانيا، وسخّر قلمه مع مجموعة من أمثاله لمعاداة الدولة العثمانية، والطعن بها، ووصل به الأمر إلى تأليف كتاب في الطعن بالدين الإسلامي بعنوان "حسر اللثام عن الإسلام". وقد أكد سرقة الشاعر والأديب أحمد فار الشدياق؛ إذ قال عندما عرض به في كتابه " النفثات": "كان حسّون لصّاً وله سرقات، فأصبح صلاً وله نفثات"⁽²⁾. وعلى الرغم من هذه العداوة التي مارسها رزق الله حسون للدولة العثمانية الإسلامية إلّا أنّنا نرى أكثر دارسي الأدب العربي يعدّونه مُصلحاً، ومن كبار أحرار الأمة،

(1) أنطوان القوّال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص12.

(2) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، 162/2. والصّل: الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها. انظر: لسان العرب: مادة صلّ.

وصاحب دور مهم في نهضة الأدب، فيما هو ليس أكثر من خائن للأمة،
ودينها، وتاريخها، وحضارتها، وخدام للاستعمار الأوروبي، والروسي⁽¹⁾.

16. الفرار من الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش العثماني، فبعد صدور
التنظيمات العثمانية أصبح التجنيد يشمل رعايا الدولة غير المسلمين، ولما
اشتدت حروب الدول الأوروبية وروسيا القيصرية على الدولة العثمانية
الإسلامية فرضت الدولة الخدمة العسكرية الإلزامية على الشباب، فكان
كثيرون من نصارى الشام، والشيعة يتهربون من أداء الخدمة بالهجرة؛
نصارى الشام وشيعته يهاجرون إلى القارات الأمريكية، والشيعة في
العراق يهاجرون إلى إيران ويدعون أنهم فرس، حتى روى محمد القزويني
قصة مضحكة حول تهرب شيعة العراق من الخدمة العسكرية في الجيش
العثماني، فقد قام عدد من شيعة مدينة الحلة بالحصول على الجنسية
الإيرانية، للتخلص من الخدمة العسكرية في الجيش العثماني، ولكي يبعدوا
التهمة عنهم، خرجوا في موكب أسموه "موكب الإيرانيين" بمناسبة ذكرى
عاشوراء، إثباتاً لفارسيّتهم. وقاد الموكب رجل اسمه "قاسم" لم يكن يعرف
لا هو، ولا مَنْ يسير معه في الموكب شيئاً من اللغة الفارسية، فكتب بعض
الردات المطعّمة بالنكهة الفارسية؛ ليردّها أصحابه في موكبهم، ويثبتوا أنهم
فرس، وليسوا عرباً، ومما نظمته، قوله⁽²⁾:

اليوم عاشوراس يا معشر العدواس

فلما وصل الموكب بيت الشيخ محمد القزويني، وهو من كبار الشيعة، كما
هي عادة الموكب العاشورائية، خمّس الشيخ محمد القزويني له الردة، بقوله:

اليوم قاسم قاسمي يمشي بلا مداس

يصرخُ بين الناس اليوم عاشوراس

يا معشر العدواس

(1) انظر: يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، 315/2.

(2) انظر: محمد القزويني، طروس الإنشاء، ص 61؛ يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني،
ص 241.

2- بدايات الهجرة⁽¹⁾

أول مَنْ بدأ الهجرة من بلاد الشام، هم أهل فلسطين؛ إذ كانوا يزورون البلدان الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط لبيع ما يصنعونه من: مسابح، وأيقونات، وتعاويذ، ثم سافروا إلى معرض شيكاغو سنة (1893/1311)، وحققوا أرباحاً كثيرة، فمكث بعضهم في الولايات المتحدة، ثم انتشروا في دول أمريكا الجنوبية والوسطى، وقد كثروا في أمريكا الوسطى، وفي جمهورية تشيلي حيث يعملون بكثرة في التجارة والصناعة.

ثم كانت هجرة اللبنانيين الذين رافقوا يوسف كرم إلى منفاه في إيطاليا، فلما توفي فضلوا الهجرة إلى أمريكا الجنوبية على العودة إلى وطنهم لبنان.

والهجرة الجماعية الأولى كانت هجرة اللبنانيين والسوريين الذين طردهم الاحتلال البريطاني من القاهرة والإسكندرية، حيث أنذرتهم سلطات الاحتلال البريطاني بالهجرة إلى أمريكا وأستراليا. ثم تتالت الهجرات؛ فردية وجماعية إلى العالم الجديد حتى (العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري / العقد التاسع من القرن العشرين الميلادي)، حيث أخذت دول بلدان الهجرة تفرض قيوداً صارمة على الدخول إليها، فقلت أعداد المهاجرين بشكل كبير.

ويقال إن أول مهاجر عربي إلى أمريكا الشمالية هو اللبناني أنطون البشعلاني الذي أقام في نيويورك سنة (1854/1271)، وبقي فيها حتى توفي.

على الرغم من سهولة الهجرة، وعدم وجود عوائق كبيرة أمام المهاجرين في البلدان التي هاجروا إليها، واستقروا فيها، إلّا أنّ أكثر المهاجرين عانوا كثيراً في بداية حياتهم، وكانت معاناتهم مادية، وروحية؛ روحية من حيث شعورهم بالاغتراب في المجتمعات التي حلّوا فيها، سواء أكان ذلك في اللغة، أم العادات والتقاليد، أم المناسبات الاجتماعية، أم الملابس، والطعام والشراب، ومن خلال الحنين إلى الأهل، والأحبة، والأصدقاء، ومواطن الذكريات، والقرى، والبلدات، والمدن، التي درجوا فيها منذ قدومهم إلى هذه الحياة، بل إلى الوطن الأول بكل ما فيه من طبيعة دنيا وعليا (الأرض والسماء). ومعاناة مادية من حيث البحث عن الأعمال المناسبة، وبناء الحياة الجديدة، فعمل أغلب المهاجرين في كلّ أنواع الأعمال، من: زراعة، وتجارة، ووظائف مختلفة، حتّى أنّ بعضهم التحق بجيوش البلدان التي هاجروا إليها، فعملوا بها مرتزقة.

(1) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص 20-25.

وقد عبّر بعض الشعراء المغتربين عن قسوة الحياة التي عاشوها في بداية الهجرة، من أجل تحقيق أحلامهم في بناء حياة أفضل في المهجر، ومن هؤلاء الشاعر مسعود سماحة الذي مارس أعمالاً كثيرة من تلك التي تسمى الأعمال الحفيرة-قبل أن يصبح ضابطاً كبيراً في الجيش الأمريكي، قال (1):

كم طويّت القفارَ مشياً وحملتي فوق ظهري ويكاد يقصم ظهري؟
كم قرعتُ الأبوابَ غيرَ مُبالٍ بكلال، وقرّرَ فصل، وحرّ؟
كم توغّلتُ في البراري وقلبي سابح مثل زورق في نهر؟
كم تعرّضتُ للعواصفِ حتّى خلت أن الثلوجَ في القفر قبّري؟
كم توسّدتُ صخرةً وذراعي تحت رأسي، وخنجري فوق صدري؟

فالشاعر هنا يشكو بحرقة، وحسرة ما عاناه في المهجر، فهو عمل عثلاً، وكانَ يبحث عن عمل بذل وهوان، صيفاً وشتاءً، ما جعله في كثير من الأوقات يهيم على وجهه في الغابات هرباً من حياة الذل والهوان؛ فينام وهو يفترش الأرض، ويلتحف السماء، وهو غير آمن على نفسه من فساد المجتمع وعصاباته؛ لذلك كان يحمل خنجراً، أو غيره ممّا يعتقد أنه به يستطيع الدفاع عن نفسه إذا ما فاجأه مُعتدّ.

ولكنّ صَبَرَ أغلب المهاجرين على قسوة الحياة، ومتاعبها، وإصرارهم على النجاح، مع حسن أخلاقهم، وإتقانهم أعمالهم، وصدق معاملاتهم مكّنت كثيرين منهم من التّجّاح في بناء حياتهم الجديدة، والتقدّم بحيث أصبح بعضهم من أثرياء البلدان التي هاجروا إليها، كما أنّ مناطق كاملة في بعض المدن صُبغت بالصبغة العربيّة، وظهر منهم علماء ومُخترعون، وصُنّاع، وتجار، ومؤثفون كثير.

وقد ألف بعض المهاجرين كتباً تحدّثوا فيها عن حياة المهاجرين؛ قسوتها، ونجاحها، ومن هؤلاء عبد اللطيف اليونس، الذي ألف كتاباً بعنوان "المغتربون" ذكر فيه بعض أحوال المغتربين، ومنه قوله يصف قسوة الحياة، والمصاعب التي واجهها كثيرون، حتّى عدّ حياتهم بالجهاد، قال: "لا يستطيع كاتب، مهما أوتي من قوة البلاغة أن يُصوّر تلك الفترة القاسية التي مرّت على المغتربين، في المراحل الأولى من اغتربهم، ومهّرت حياتهم بنضال دونه قدرة الإنسان العادي، وطبعته بطابع الكفّاح

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص 49.

البطوليّ، والجهاد في سبيل وضع أفضل، وعيش أجمل، وحال أكمل، وقد كان شعار كلّ منهم، قول "بدوي الجبل":

والعيشُ معناه الكفاح فهالِكُ مَنْ لَا يُكافِحُ⁽¹⁾

وذكر يعقوب ضَعَوْن في كتابه "ذكرى الهجرة" بعض معاناة المهاجرين، وتلاعب السماسرة والمهريّين بهم حتى كانوا يسلبونهم كلّ أموالهم قبل وصولهم إلى مقصدهم فقال: "إن الهجرة في زمن العثمانيين كانت محظورة رسمياً، ومُباحة عملياً بواسطة المهريّين، حيث يصل المسافر إلى جنوة أو مرسيليا، وهناك يستلمه سمسار جديد، ويُنزله في خان [فندق] قدر، ولا يحمله إلى باخرة تنقله إلى أمريكا إلّا حينما يفرغ جيبه من الفلس الأخير، وفي تلك الباخرة يلتقي بأمثاله الذين قضى عليهم القدر بالاغتراب، وكان أسعدهم حظاً مَنْ يجد على المرفأ إنساناً ينتظره، أو إنساناً يتكلّم العربيّة، فيأنس به، أو يعرف عنواناً لنسيب أو صديق، أو يحمل كتاب توصية يؤمّن له الطعام والمأوى في الليلة الأولى، ومَنْ لم تتوقّر له إحدى هذه الوسائل يكون فراشه رصيف الشارع، وطعامه الكسرة الباقية من زاد المسافر في جعبته"⁽²⁾.

وقد أحسن وصف حال المهاجرين، وكفاحهم الشاعر شفيق المعلوف، قال:

دُرْ مع الدّهر خلفَ شَعْبٍ شرود مُلْكنا الضّخْمُ حولَ كُلِّ الحدود

يومَ سَدُّوا عليه للرّزق باباً شقَّ بالمنكبين بابَ الخلود

وقد استطاع كثير من المهاجرين التغلب على الصعوبات التي واجهوها في حياتهم، وسجلوا نجاحاً في ميادين الحياة المختلفة، وقد ذكر عبد اللطيف اليونس في كتابه "المغتربون" أن المدن والأرياف المهجريّة شاهدة على ذلك النجاح، قال: "امتلأت المدن والأرياف بأصحاب الأعمال الناجحة من المغتربين، فشيّدوا المعامل، وأنشأوا المزارع، وأسّسوا الشركات والبنوك، وسيطروا في كثير من المدن على مجالات العمل والانتاج، حتى إنك تمرُّ بشارع واسع في مدينة "سان باولو"، وهي

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص17-18.

(2) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص18.

(3) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص23.

المدينة الصناعية الأولى في البرازيل، بل وفي أمريكا الجنوبية كلها، فلا تجد متجرًا لغير عربيّ، وذلك فضلًا عن متاجر عربيّة كثيرة منتشرة في أكثر أحياء المدينة"⁽¹⁾.

وقال يعقوب ضعّون في كتابه "ذكرى الهجرة": "إنّه زار مدينة في جمهورية "تشيلي" تدعى "إليابل" وقد استلفت نظره شارعها الرئيس الذي يخترقها من الشمال إلى الجنوب، وقد انتظمت المخازن العربيّة للفلسطينيين واللبنانيين على جانبيه"⁽²⁾.

وقد تحدّث دارسون كثير عن قصص نجاح رائعة، سجّلها المغتربون العرب في المهجر، في مجالات الحياة المختلفة، لكنّ هؤلاء المغتربين مع مرور الزمن أخذوا في الانصهار والذوبان في المجتمعات التي هاجروا إليها، حتى أنّ أحفادهم، أو أبناء أحفادهم لم يعودوا يتكلمون العربيّة بسهولة، بل إنّ بعضهم يكاد لا يعرف له صلة بالعرب إلّا من خلال ما تبقى له من اسمه، أو أحد أسماء عائلته، وبعض الذكريات، وقد أشار إلى هذا المستقبل عبد اللطيف اليونس في كتابه "المغتربون"، فقال: "المغتربون يذوبون تدريجيًّا في المحيط الأجنبيّ، وينصهرون في بوتقته الجبّارة الرهيبة، وهم لا يستطيعون بإمكانياتهم وحدها أن يُقاوموا تيار الزّمن، ولا أن يحولوا دون سيره المضطردّ الحثيث؛ يتزوج المغترب، ويُنجب أطفالًا، يصبحون بحكم القوانين المرعية من أبناء البلاد التي ولّدوا فيها؛ يحملون جنسيتها، ويسجلون بين أفراد رعيّتها، وينشأ هؤلاء وهم يجهلون اللّغة العربيّة، وقد يكونون تواقين لمعرفتها، وقد يكون أبأؤهم أكثر توقًا منهم، وأكثر اهتمامًا ولكن لا الآباء يبذلون جهدًا لتعليمهم اللّغة العربيّة، ولا الأبناء يعرفون الطّريق السّوي"⁽³⁾.

3- العوامل التي أسهمت في ظهور مدرسة شعراء المهجر

أدى تدفق المهاجرين إلى القارات الأمريكية الثلاث منذ (أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري / أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي)، إلى تشكيل جماعات عرقية عربيّة مترابطة في البلدان التي هاجروا إليها، حيث نقل هؤلاء معهم اللّغة العربيّة، والآداب العربيّة، والعادات، والتقاليد العربيّة، وكان من بين المهاجرين أدباء؛ شعراء وكتاب على حدّ سواء، فأنشأوا أدبًا جميلًا، نشره في الصحف والمجلات التي أسسوها في مهاجرهم، أو في كتب تمّ طباعتها، وتوزيعها على المهاجرين، وفي أحيان كثيرة تم ترجمة بعضها إلى لغات البلدان التي هاجروا إليها، وقد عبّر هؤلاء الأدباء في أدبهم عن مشاعرهم، وأحاسيسهم، وعواطفهم، وتجاربهم الجديدة، كما سردوا في ذلك الأدب آثار غربتهم،

(1) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص44-45.

(2) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص45.

(3) محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص68.

وحنينهم للوطن، ووصفوا ما تعرّضوا له من عناء وشقاء، وتجارب مريرة ومثيرة في الغربة.

شكل هذا الأدب ما عُرف بأدب المهجر، الذي أصبح مدرسة من المدارس الشعرية العربية التي ظهرت في مصر -غالبًا- مع بعض الامتداد إلى عدد من الدول العربية المختلفة، وقد عُني النقاد والدارسون الأكاديميون العرب بهذا الأدب، فنما وازدهر في (العقود الخامس والسادس والسابع من القرن الرابع عشر الهجري/ الثالث والرابع والخامس من القرن العشرين)، ثم أخذ يخفت تدريجيًا، حتى لم يعد يذكر مع (العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري/ نهاية القرن العشرين) تقريبًا.

لا شك في أنّ عوامل عديدة أسهمت في ظهور أدب المهجر، وبالتالي ما عرف بمدرسة شعراء المهجر، وقد اختلف الدارسون في تحديد تلك العوامل، التي يمكن إجمالها في الآتي (1):

1. الشعور بحرية في التعبير أكثر ممّا كان مُتاحًا لهم في بلدانهم، وقد انخدع شعراء المهجر الشمالي، الذين زاروا، أو سكنوا مدينة نيويورك، بتمثال الحرية، فظنوها كاملة، ما دفعهم إلى تمجيد قيمة الحرية في مهجرهم، فهذا الشاعر أمين الريحاني قال عندما شاهد تمثال الحرية: "متى تحوّلين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية؟!، متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر، فيدور معه حول الأرض، ويضيء ظلمات كلّ شعب مظلوم؟ أيتأتى أن يرى المستقبل تمثالًا للحرية بجانب الأهرام؟ أيمن أن نرى لك في بحر الروم مثيلًا؟ أممك أن يُولد لك أخوات في الدردنيل، وفي بحر الهند، وفي خليج الصين؟ أيتها الحرية: متى تدورين مع البدر حول الأرض لتنيري ظلمات الشعوب المقيّدة، والأمم المستعبدة؟" (2).

وهذا الشاعر رشيد أيوب، يقول (3):

وحقّك يا حريّة قد عشّقتها وأنفقتُ عمري في هواها مُحارباً
لأنّني مُنى الدُّنيا وغاية سؤلها وأفضّلُ شيء قد رأيتُ مُناسِباً

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص173؛ قصة الأدب المهجري، ص18؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص17.

(2) أمين الريحاني، من على جسر بروكلن: الريحانيات، ص51.

(3) عبدالله حمد، قضايا الشعر العربي، ص50.

2. تأثر شعراء المهجر بالثقافة الغربية بعامة، والأدب بخاصة، في الشكل والمضمون، وتأثر المهاجرين بسكان القارات الأمريكية ذوي الأعراق، والعادات والتقاليد، والقيم والأفكار المتنوعة، وامتزاج كثيرين منهم بهؤلاء السكان حتى بالزواج، وتكوين الأسر الجديدة، ما أدى إلى ظهور أدبهم المهجريّ الجديد، الذي جمع بين ملامح الشرق والغرب.

3. محافظة أغلب شعراء المهجر على صلاتهم، وروابطهم مع وطنهم الأم، وأهلهم، وذويهم، ما جعلهم على تواصل دائم مع ما يحدث في أوطانهم من أحداث: سياسية، واجتماعية، واقتصادية؛ فانعكست تلك الأحداث بشكل، أو بآخر في أدبهم، شعراً ونثراً، وكان لها صدى متفاوتاً عند هذا الأديب، أو ذاك، بل إن بعض أدباء المهجر شاركوا في أحداث وطنهم بقدر استطاعتهم، ومثال ذلك: مشاركة الشعراء في الصراع الذي دار بين مؤيدي القومية، والجامعة الإسلامية (الخلافة العثمانية)، وإعلان الدستور العثماني، وانهيار ضباط الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد الثاني وخلعه، والحرب العالمية الأولى، ومشاركة الدولة العثمانية الإسلامية فيها، وتحالف الشريف حسين بن علي مع بريطانيا والحلفاء ضد الدولة العثمانية، ونقض بريطانيا والحلفاء وعودهم للشريف حسين بن علي، شريف مكة المكرمة، وإصدار وعد بلفور، وما تبعه من أحداث، وتقاسم بريطانيا وفرنسا البلدان العربية في المشرق واحتلالها، ثم ما حدث من ثورات في أرجاء الوطن العربي ضد الاستعمار الأوروبي المسيحي بدءاً من المغرب العربي ممثلاً في ثورة الريف المغربي بقيادة محمد عبد الكريم الخطابي، ومروراً بالثورات والجهاد المتتابع في كلّ من: الجزائر، وتونس، وطرابلس (ليبيا)، ومصر، والسودان، وبلاد الشام، والعراق وغيرها.

4. الشعور بالاغتراب في بلدان المهجر، والحنين إلى الوطن بكل ما فيه من طبيعة، وإنسان وحيوان، ما جعل أكثر الأدباء يتطلعون باستمرار إلى وطنهم الأم، وقوميتهم والتغني بها، والشعور بفقدانها، وذلك على الرغم من واقعهم المعيش الأفضل في مهجرهم؛ فهذا الشاعر شكر الله الجرّ، يتذكر وطنه لبنان، فيحنّ إلى طبيعته المفقدة في مهجره، فيقول في طبيعته الدنيا، والعليا⁽¹⁾:

حبّذا الأرز في الدرى يتهادى كلّت أنجم السّماء هضابه

(1) عبد الله حمد ، قضايا الشعر العربي ، ص 50.

5. الصدمة التي أصابت عددًا منهم، بعد سنوات من حياتهم في المهجر، أمضوها في غفلة من التفكير في مصيرهم؛ فقد وجد هؤلاء أنفسهم في خضم مجتمع مادي، يُمارس في تفاصيل الحياة تمييزًا عنصريًا بغضًا على أساس: العرق، واللغة، واللون، والدين وغيرها، فانعكس ذلك حيرةً، وقلقًا في حياة الأدباء، الذين شعروا بفقد القيم والمثل العليا التي حملوها من وطنهم في عقولهم، وقلوبهم، وكانت لا تزال تنمو بسبب تواصلهم المستمر مع وطنهم ومجتمعهم، ففرّوا إلى الطبيعة؛ يُناجونها، ويصفونها، لعلمهم يستطيعون تخفيف آثار الصدمة الحضارية التي أصابتهم، يقول إيليا أبو ماضي⁽¹⁾:

نسيّ الطين ساعة أنه طي نّ حقيّر فصال تيهًا وعَرَبَ بَدَ

وكسّا الخزّ جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرّد

6. تأثر شعراء المهجر بالحركات الفكرية، والثقافية التي ظهرت في الوطن العربي، وأثارت جدلاً كبيراً بين أوساط المثقفين، فهزّت قناعات فئات واسعة، وقد شارك بعض شعراء المهجر في هذه الحركات، وذلك الجدل، وتأثروا به، وانعكس في شعرهم، ومن ذلك: ما أثاره مصطفى عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" حيث نفى أن يكون نظام الخلافة، والخليفة شرطاً لا يتم الإسلام الحقيقي إلا بوجوده. وما أثاره طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي شكك فيه بصحة أكثر الشعر الجاهلي، وبكونه يمثل حياة العرب الجاهلية في مظاهرها المتنوعة، بهدف الوصول إلى التشكيك في صحة القرآن الكريم؛ وذلك سيرةً على خطى أساتذته المستشرقين، ونفخاً في أفكارهم الهدّامة. وما أثاره عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني في كتابهما "الديوان في الأدب والنقد" الذي شككا فيه - تأثراً بالأدب الغربي بعامة والإنجليزي بخاصة - بالقيم الجمالية والفنية التي قام عليها الشعر العربي، منذ نشأته إلى عصرهما، فيما اعتبر غيرهما من الشعراء وبخاصة محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم في مصر، وأغلب شعراء العربية في باقي الوطن العربي الشعر العربي بقيمه الجمالية والفنية نماذج للمحاكاة، والإبداع، مع مراعاة مستجدات العصر الذي يعيشونه في كلّ مجالات الحياة.

(1) إيليا أبو ماضي، الجداول: من أعمال الشاعر، ص39.

7. تأثر شعراء المهجر بفكرة القومية العربية، التي نادى بخلافة عربية، ثم دولة عربية بجامع التراث العربي، واللغة العربية، والوحدة الترابية، والمصير المشترك، التي بثها الغرب المسيحي في العالم العربي، كما بث الطورانية في تركيا، والفارسية في إيران، وغيرها من القوميات في الشعوب الإسلامية بهدف مساعدته في هدم الخلافة العثمانية الإسلامية.

وكان أكثر مَنْ نظّر لفكرة القومية العربية من نصارى العرب مثل: ميشيل عفلق، وأنطون سعادة، الذي التحق بالمحفل الماسوني برئاسة والده خليل سعادة في "سان باولو" بالبرازيل، وهو شاب، وقَدّم استقالته منه في (3 ذو القعدة 1344 الموافق 1926/ 5/ 14)، وهو حتى في كتاب الاستقالة يفخر بالمحفل الماسوني⁽¹⁾، أو من الشيعة التصيرية (العلويين) والإسماعيلية مثل زكي الأرسوزي، أو من المسلمين الذين تعلموا في الغرب، وتأثروا به مثل: صلاح الدين البيطار وغيرهم.

وكانت الغالبية العظمى من شعراء المهجر من النصارى العرب، الذين هاجموا الخلافة العثمانية، وندّوا بها، ودعوا إلى الثورة عليها، وهدمها باعتبارها احتلالاً، فيما مجّدوا القومية العربية، ودعوا إلى اعتمادها رابطة بديلة عن رابطة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها السلطان عبد الحميد الثاني، واستمرت دعوتهم حتى سقوط الخلافة.

8. تأثر شعراء المهجر بالأفكار العلمية التي ظهرت في الغرب، وأثارت جدلاً واسعاً على أساس أصل الجنس البشري، وعلاقة الإنسان بالله، سبحانه وتعالى، وتحليل تصرفات الإنسان وأعماله من مثل: نظرية النشوء والارتقاء لدارون، وعلم النفس التحليلي لسيجموند فرويد وغيرهما من النظريات، التي تُشكك في القيم الدينية والإيمانية، وقد انعكست تلك الأفكار على نتاج عدد من شعراء المهجر الذين وصل شعرهم إلى موطنهم الأصل؛ فأثر في الشعراء والمجتمع على حدّ سواء.

ما سبق من عوامل، وغيرها أثر في الشّعَر المهجريّ، وكان شعراء المهجر أسبق من غيرهم في التأثر بالمذاهب الأدبية الغربية مثل: الرومانسية، والرمزية، والواقعية، والسريالية وغيرها.

(1) انظر: كان أنطون سعادة ماسونياً ومن أب ماسونيّ : موقع جريدة البيان (جريدة أسبوعية ، سياسية ، مستقلة) طرابلس ، لبنان، حيث نشرت نص الخطاب الذي ألقاه سعادة في احتفال تكريسه ماسونياً في محفل "نجمة سوريا" سنة (1926/1344) وكتاب سعادة إلى عميد الداخلية سنة (1949/1368) يتكرر فيه للماسونية. www.albayanlebanon.com.news.php .

4- الندوات، والنوادي، والروابط، والجمعيات الأدبية في المهجر

شكّلت الصحف والمجلات التي أنشأها أدباء المهجر مكاناً مفتوحاً، للقاء شعراء المهجر، وتبادل الأفكار، والقيم، والأساليب فيما بينهم ومن دون شروط على هذا اللقاء، ثم ما لبث أن بادر عدد من الأدباء إلى عقد ندوات، وتأسيس روابط، وجمعيات أدبية، وثقافية، يلتقي فيها أدباء المهجر، ويتبادلون الآراء والأفكار في كلّ الموضوعات. وقد تفاوتت عمر تلك الندوات، والروابط، والجمعيات ما بين سنين معدودة وعقود معدودة، وكلّها اختفت مع (بداية عقد السبعينيات من القرن الرابع عشر الهجري / بداية النصف الثاني من القرن العشرين)، ما يدلّ على محدودية تأثير مدرسة شعراء المهجر في حركة الشعر العربيّ بعامة، والحركة التغريبية (التجديدية) فيه بخاصة، وأهمّ التجمعات الأدبية والثقافية التي شكلها شعراء المهجر هي:

أولاً: الندوات

عند المهجريون إلى عقد ندوات أدبية، وثقافية، في دور المطابع أو الصحف والمحافل العامة، والنوادي الأدبية، والجمعيات العربية والإسلامية المنتشرة في أماكن كثيرة من المهجر، وأحياناً في منازل الأدباء وأماكن سمرهم ولقاءاتهم العامة. وقد كانت تلك الندوات بمثابة أسواق أدبية، أسهمت في ازدهار الأدب، وتنوّع فنونه، وتهذيب لغته، وأساليبه، وفي رعاية المواهب الناشئة، وتعليم أبناء الجالية العربية اللغة العربية، وتذوق الأدب. وقد أقيمت الندوات في مناسبات كثيرة منها: الأدبية، والدينية، والقومية، والاجتماعية، وغيرها ومن تلك الندوات:

1- رواق المعري⁽¹⁾

ندوة أدبية أنشأها الشاعر قيصر المعلوف في البرازيل، (أواخر العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري/ أوائل القرن العشرين الميلادي)، وسماها بهذا الاسم تيمناً بالشاعر والفيلسوف المسلم أبي العلاء المعريّ (ت 1057/449). وضمت في عضويتها عدداً من شعراء المهجر في البرازيل ومنهم: جورج عسّاف، ونعوم لبكي، وفارس نجم وغيرهم. وقد عملت الندوة على نشر نتاج شعراء المهجر وبخاصة من

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص 179؛ قصة الأدب المهجريّ، ص 111؛ ممنوح محمود، تطور الشعر العربيّ، ص 61.

أعضائها، وأول ما نشرته هو ديوان "المُهَاجِر" لمؤسس الندوة الشاعر قيصر المعلوف.

2- ندوة الأدب العربي⁽¹⁾

نشأت في "بيونس آيرس" عاصمة الأرجنتين، بعد انفراط عقد الرابطة الأدبية سنة (1951/1371)، ولعلها ضمت عددًا من الأدباء الذين كانوا أعضاء في الرابطة الأدبية، أو أكثرهم، وكانت موجودة حتى سنة (1968/1387) حيث احتفلت بالذكرى المئوية لميلاد الشاعر أحمد شوقي.

ثانيًا: النوادي الأدبية

أسس أدباء المهجر عددًا غير قليل من النوادي الأدبية التي كان لها دور مهم في تفعيل حركة الأدب العربي في المهجر، ورعاية المواهب الشابة، وتوجيه الأدب؛ ففي كل مدينة كبيرة سكن المهجريون كانوا يُشكّلون جمعيات ونواد، وينشرون الصحف والمجلات، وكانوا يقيمون في الجمعيات والنوادي الحفلات المختلفة، وأحيانًا يؤجرونها للحصول على عائد مالي. قال الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) يصف بيئة مدينة "سان باولو": "كانت هناك جالية لها أندية، وجمعيات، وصحافة. وكانت تُقيم الحفلات بكثرة، في سبيل الأغراض الاجتماعية، والوطنية، وكانوا يدعونني لأقول شيئًا من الشعر، فألبّي دعوتهم، وكنت أرقب هذه الأحداث بنفس ثائرة، وأصورها بشعري"⁽²⁾. ومن تلك النوادي:

1- النادي الحمصي⁽³⁾

أنشئ في مدينة "سان باولو" سنة (1920/1330)، وكانت له قاعة فسيحة تتسع لثلاثة آلاف كرسي، فضلًا عن الأروقة، والغرف، والصالونات الواسعة الفخمة.

وكان للنادي مجلس إدارة من اثني عشر عضوًا، يتم انتخابهم كل سنة، ويُشترط أن يكون أحد الأعضاء من الأدباء البارزين، يُطلق عليه لقب "خطيب النادي"، ومن أشهر مَنْ تولّى خطابة النادي الحمصي الأديب نظير زيتون الذي كان قوميّ الهوى.

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص50؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص111.

(2) محمد خفاجي، حركات التجديد، ص108.

(3) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص108.

وكانت حكومة الولاية في "سان باولو" والمؤسسات الكبرى فيها تستأجر قاعة النادي، وبعض مرافقه لإقامة احتفالاتها ما يعود على النادي بعوائد مالية تساعده في مواصلة نشاطاته المتنوعة.

2- النادي العربي⁽¹⁾

أسس في "بيونس أيرس" عاصمة الأرجنتين، وكانت تُشرف عليه نخبة من الشباب، والأدباء، ويعقدون فيه لقاءات أدبية وثقافية واجتماعية متنوعة، وغلب على نشاط النادي النزعة القومية.

ثالثاً: الروابط والجمعيات الأدبية

لجأ عدد من أدباء المهجر إلى تأسيس روابط وجمعيات أدبية في أماكن وجودهم؛ بهدف تدارس أوضاع الأدب واللغة العربية في جالياتهم، والعمل على نشر اللغة العربية، والأدب العربي، ورعاية شؤون الموهوبين وتشجيعهم على الإبداع. وقد أسهمت هذه الروابط والجمعيات بعامة، والرابطة القلمية، والعصبة الأندلسية خاصة في تشكيل ما عُرف بالأدب المهجري، وأهم تلك الروابط والجمعيات هي:

1. رابطة منيرفا⁽²⁾

أسسها الشاعر المصري الطبيب أحمد زكي أبو شادي في شهر (جمادى الأولى 1365 الموافق لشهر نيسان 1946) في نيويورك عندما هاجر إليها جراء خلافاته مع أدباء مصر، حيث استقرّ فيها حتى وفاته فجأة في واشنطن سنة (1955/1375)، وقد عمل أميناً للسّر في الرابطة، فيما رأسها الشاعر نعمة الحاج الذي شارك أبا شادي في تأسيس الرابطة. وكانت على غرار جماعة أبولو في مصر.

وكانت الرابطة تعقد اجتماعاً لأعضائها مرة في الشهر في جامعة كولومبيا بنيويورك، كما كانت تهتم بالوان الأدب العربي الأصيل. وقد ضمت الرابطة في عضويتها شعراء ومفكرين من العرب والأمريكيين، ومنهم الشاعرة صفية أبو شادي، وهي زوج مؤسس الرابطة.

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص110.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص61؛ قصة الأدب المهجري، ص106. وفيه كان الشاعر عبد المسيح حدّاد نائب رئيس الرابطة، ونعمة الحاج أسهم بجهد كبير في أعمال الرابطة؛ ممدوح محمود، تطور الشعر العربي، ص61، وفيه أنها تأسست سنة (1948م). ومنيرفا هو: اسم إلهة الحكمة عند الإغريق.

2. الرابطة الأدبية⁽¹⁾

أسسها جورج ميخائيل صيدح، الشاعر السوري المهجري (ت1978/1398)، سنة (1949/1368) في مدينة "بيونس إيرس" عاصمة الأرجنتين، وكانت على غرار الرابطة القلمية، والعصبة الأندلسية. واستمرت لمدة سنتين حيث انفرط عقدها عام (1951/1371) عندما عاد مؤسسها إلى بيروت، حيث مكث فيها سبع سنوات، ثم هاجر إلى فرنسا سنة (1959/1379)، حيث عاش فيها تسعة عشر عاماً، وبها توفي.

وقد ضمت الرابطة مجموعة من أدباء العربية في عاصمة الأرجنتين، الذين كانوا يجتمعون مساء كل يوم أربعاء من الأسبوع، في منزل مؤسس الرابطة الذي اعتبر بمثابة مقر لها، وكانوا يناقشون في اجتماعهم قضايا الأدب في المهجر بهدف الترويج عن أنفسهم. ومن أعضائها: يوسف الصارمي صاحب مجلة "المواهب" الشهرية، وعبد اللطيف الخشن، صاحب جريدة "العلم العربي" الأسبوعية، وكتاب "المغتربون"، وزكي قنصل، وغيرهم.

وقد غلب على شعر مؤسس الرابطة، جورج صيدح موضوعا الحنين للوطن، والشعر القومي، حيث نظم كثيراً من شعره في قضية فلسطين، ومنه يصف جهاد شعب فلسطين ضد الاحتلال البريطاني، ووعد بلفور، ويحثه على السير على خطى صلاح الدين من أجل تحرير وطنه، قال:

أرض تحج لها الدنيا مبايعة بيعت بفلس مُرابٍ غير محتشم
وها فلسطين كم غار قهرت وكم جيش ركدت عن الأسوار منهزم
حتى لطمت بكف لا سوار لها شعب بلا وطن، جند بلا علم
فأين سيف صلاح الدين يردعهم أماله خلف في العرب كلهم

وقد أصدر جرائد عديدة، وخمس مجموعات شعرية، وعدة دراسات أكاديمية، أهمها: "النوافل" طبعها في "بيونس إيرس" سنة (1947/1347)، و "أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية". وهي محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة، وطبعه المعهد سنة (1956/1376).

(1) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص107؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص50 و427.

3. جامعة القلم⁽¹⁾

دعت إلى تأسيسها الصحفية والأديبة اللبنانية مريانا دعبول فاخوري سنة (1964/1384)، حيث جعلت دارها مكاناً لاجتماع أعضاء الجامعة، وفتحت صفحات مجلة "المراحل" التي كانت تُصدرها منذ سنة (1954/1374) لنشر أدب أعضاء الجامعة. وقد تولّى رئاسة الجامعة دواد جرجس الخوري حتى شهر (جمادى الأولى 1387 الموافق لشهر آب 1967)، حيث خلفه الأديب فيليب لطف الله.

وما دفعها لإنشاء هذه الجماعة هو: جمع شمل أدباء المهجر الجنوبي بعد أن انفرط عقد العصبة الأندلسية، وتوقفت مجلتها عن الصدور، ثم إيجاد حلقة وصل بين أدباء المهجر والمشرق العربي بما تنقله من مقالات وقصائد عن صحف المشرق.

وقد نشرت خبر إنشاء رابطة "جامعة القلم" في مجلة "المراحل" في العدد المزدوج للمجلة ذي الرقمين (108 و109) من السنة العاشرة للمجلة، الصادر في (ذو القعدة وذو الحجة 1384 الموافق لشهر ربيعٍ آذار ونيسان 1965). وجاء في الخبر أن "جامعة القلم" تأسست بناء على اجتماع عدد من أدباء العربية في "سان باولو" عاصمة البرازيل يوم (22 صفر 1384 الموافق 1964/7/2) في منزل السيدة مريانا دعبول، حيث ناقش الحضور مصير اللغة العربية في المهجر، وضرورة الدفاع عنها ونشرها، وتعزيز الأدب العربي والحفاظ على تراثهما. وتم تكليف الأديبين يوسف الفاخوري، وشاكر الدبس بوضع قانون الجماعة، وأهدافها.

أهداف "جامعة القلم"

نشرت مجلة المراحل الناطقة باسم "جامعة القلم" سبعة أهداف تسعى الجامعة إلى تحقيقها، وهي:

1. تعزيز الأدب العربيّ، ونشر اللغة العربية في المهجر.
2. توثيق روابط الأدب العربيّ بين المغتربين والمقيمين في الوطن الأم.
3. نشر الأدب العربيّ في بلدان الاغتراب.
4. إنشاء ناد باسم "نادي الأدباء" يضم عشاق الأدب من المغتربين، وفروعهم.
5. إنشاء مكتبة تضم ما يمكن من كتب الأدب العربيّ والعالمي.

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص46-50، 592-594؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص107.

6. إنشاء مجلة أدبية لنشر نتاج أعضاء "جامعة القلم"، والتعبير عنهم.

7. إقامة حفلات أدبية، وترجمة كتب قيّمة.

شروط العضوية في الجامعة

وضع مؤسسو الجامعة شروط عدّة، رأوا أنّه يجب توافرها في الراغب بالانضمام إليها، والحصول على عضويتها سواء أكان مقيماً في البرازيل والمهجر أم مراسلاً للجامعة من المشرق العربيّ، وهي:

1. أن يتمتع بالحقوق المدنية (غير محكوم بجناية).

2. أن يكون أدبياً منتجاً لأدب ذي قيمة في عالم الأدب.

3. يتم قبول العضو بموافقة أكثرية أعضاء الهيئة الإدارية للجامعة.

4. الرابطة القلمية⁽¹⁾

جماعة أدبية تأسست في مدينة "نيويورك" بالولايات المتحدة الأمريكية من قبل عدد من الأدباء السوريين واللبنانيين سنة (1920/1339)، في الوقت الذي ظهرت فيه دعوة عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني التغريبية (التجديدية) في مصر، وبتأثير من الحرب العالمية الأولى، التي أسهمت في إنشائها كما أسمت الثورة الفرنسيّة في إنشاء الرومنطيقية في فرنسا⁽²⁾.

(1) انظر عن الرابطة: ميخائيل نعيمة، جبران، ص232؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص82؛ إيليا أبو ماضي، ديوانه: دراسة عن إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر لزهير ميرزا، ص37-92؛ أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص14؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص175؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص22؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص209؛ مارون عبود، مجدّون ومجترون، ص155؛ محمد قوبعة، الرومنطيّة ومنابع الحداثة، ص53.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص9 و173؛ مارون عبود، مجدّون ومجترون، ص156.

ظروف النشأة

انتشرت أخبار دعوة مدرسة الديوان التغريبية (التجديدية) في الأدب في أصقاع الأرض، فوصلت مدينة "نيويورك"، فلاقت صدى في قلب ميخائيل نعيمة، وعقله؛ إذ علم بوجود مَنْ يماثله في ضرورة اعتماد مقاييس جديدة في الأدب، فكتب مقالاً حياً فيه مدرسة الديوان وأصحابها، وقد نشر المقال في مجلة الفنون المهرجانية⁽¹⁾، التي كان يُصدرها نسيب عريضة. ومما قاله في تحية الديوان وأصحابه: "ألا بارك الله في مصر، فما كل ما تنشره ثرثرة، ولا كل ما تنظمه بهرجة، وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام، وتؤله رصف القوافي... غير أنني عرفت اليوم بالحس ما كنت أعرفه بالرجاء؛ عرفت أن مصرَ مصران لا واحدة؛ مصر ترى البعوضة جملاً، والمدرة⁽²⁾ جبلاً، ومصر ترى البعوضة بعوضة، والمدرة مدرة... إن مصر هذه، مصر الثانية قد قامت تُناقش الأولى الحساب، فانتصبت وإياها أمام محكمة الحياة، وسلاحها الوجدان الحي، ومحكها الحق، كأنها تقول لها: إما أن تثبتي لي حقك باعتباري فأسكت، أو أريك كل ما فيك من زيف فتسكتين، وبعبارة أخرى إن مصر تُصقي اليوم حسابها مع ماضيها"⁽³⁾.

ثم انتشرت أخبار مدرسة الديوان بين الأدباء، ومحبي الأدب في "نيويورك"، واجتمعوا على إنشاء جمعية أدبية، تكون مهمتها النهوض بالأدب العربي.

(1) جمع ميخائيل نعيمة عدداً من المقالات النقدية التي كان ينشرها في مجلة الفنون وغيرها مع هذا المقال، ونشرها في كتاب سمّاه "الغريبال"، حيث أوضح فيها نظرته للأدب والأديب، ودورها في المجتمع، وعلاقتها بالماضي والحاضر.

(2) المدر: قطع الطين اليابس وهي كالقرميد إلا أنها من الجص. اللسان: مادة مدر.

(3) ميخائيل نعيمة، الغريبال، ص 207.

تأسيس الرابطة

أول مَنْ دعا إلى إنشاء الرابطة هما الشاعران: عبد المسيح حدّاد، وجبران خليل جبران، حيث التقى في نيويورك عشرة من أدبائها هم: جبران خليل جبران، وعبد المسيح حدّاد، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، ورشيد أيوب، ونذرة حدّاد (شقيق عبد المسيح)، ونسيب عريضة، ووليم كاتسفلين، ووديع باحوط، وإلياس عطا الله— مساء يوم (2 شعبان 1338 الموافق 1920/4/20)، وناقشوا أوضاع اللغة والأدب في المهجر، واتفقوا على تأسيس جمعية أدبية.

بعد أسبوع من اللقاء أي في (9 شعبان 1338 الموافق 1920/4/27) التقى العشرة ثانية، وأعلنوا تأسيس الجمعية رسميًا، وسمّوها "الرابطة القلمية"، وانتخب جبران خليل جبران رئيسًا، وميخائيل نعيمة مستشارًا، ووليم كاتسفلين خازنًا (أي أمين الصندوق). والسبعة الباقون عملاً (أعضاء)⁽¹⁾.

لسان الرابطة

اتّخذ أعضاء الرابطة مجلة "الفنون" لصاحبها نسيب عريضة ميدانًا لنشر نتاجهم الأدبي، وآرائهم النقدية، لكنها توقفت بسبب الضائقة المالية⁽²⁾.

بعد ذلك اتّخذت الرابطة جريدة السائح، لصاحبها عبد المسيح حدّاد⁽³⁾ لسانًا لها، ينشرون فيها نتاجهم الأدبي، وآراءهم النقدية، وأحوال الحركة الأدبية في المهجر. وكانت الجريدة تُصدر كل عام-عددًا ممتازًا، يكون له صدى واسعًا في الصحف والمجلات، وعند الأدباء، ما أكسب الرابطة، وأعضاءها شهرة واسعة في المهجر الشمالي والجنوبي والوطن العربي على حدّ سواء.

وفي سنة (1921/1340) أصدرت الرابطة مجموعة أدبية دورية باسم "مجموعة الرابطة الأدبية" ضمّت عددًا من المقالات والقصائد الشعرية لتسعة من أعضائها، فيما لم يشارك فيها إلياس عطاالله، وصدرت في "نيويورك"، وبيروت،

(1) انظر: ميخائيل نعيمة ، جبران ، ص232؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص175-176؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص22؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص209.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص176؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص210؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص23. وفيه أن المجلة توقفت عن الصدور قبل نشوء الرابطة.

(3) كان الشاعر عبد المسيح حدّاد هاجر إلى نيويورك سنة(1907/1325)، وأنشأ جريدة السائح سنة (1912/1330)، وهي جريدة كانت تصدر مرتين في الأسبوع، كما كانت تُصدر عددًا ممتازًا في كل سنة.

ولاقت رواجاً واسعاً، واهتماماً كبيراً من الأدباء العرب الذين عكف بعضهم على دراسة ما فيها من أدب⁽¹⁾، لكنها لم تصدر إلا مرة واحدة بسبب نقص التمويل، ثم صدر لعدد من أعضائها نتاج أدبي كثير⁽²⁾.

مفهوم الرابطة للأدب والشعر

وضّحت الرابطة مفهومها للأدب؛ شعراً ونثراً، في دستورها الذي كتب مقدّمته مستشار الرابطة ميخائيل نعيمة، حيث نفى أن يكون كلّ ما يكتب على الورق أدباً، وكلّ مَنْ كتب مقالاً، أو نظم قصيدة موزونة أديب، بل الأدب هو: ما يأخذ معانيه وأفكاره من الحياة كما هي. والأديب هو: مَنْ تميّز برقّة الإحساس، ودقّة الفكر، وعمقه، وفوق ذلك لديه القدرة على التعبير عن الحياة.

قال ميخائيل نعيمة: " ليس كلّ ما سَطَرَ بمداد على قرطاس أدباً، ولا كلّ مَنْ حرّر مقالاً أو نظم قصيدة موزونة بالأديب؛ فالأدب الذي نعتبره هو: الأدب الذي يستمدّ غذاءه من تربة الحياة، ونورها، وهوائها. والأديب الذي نكرّمه هو: الذي خُصَّ برقّة الحسّ، ودقّة الفكر، وبعد النّظر في تموجات الحياة وتقلّباتها، وبمقدرة البيان عمّا تحدّثه الحياة في نفسه من التأثير"⁽³⁾.

أهداف الرّابطة وغاياتها

وردت أهداف الرّابطة، وغاياتها في كتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة، وهي⁽⁴⁾:

1. بثّ روح جديدة في الأدب العربيّ بحيث يتم نقله من مرحلة التقليد والجمود إلى الابتكار والإبداع في الأساليب والمعاني.
2. الإفصاح عن خلجات نفس الشاعر من: رجاء ويأس، وفوز وفشل، وحبّ وكره، ولذة وألم، وفرح وحزن، وطمأنينة وخوف (أي الثنائية).
3. الحقيقة عند أدباء الرابطة هي: النور الذي يهديهم في الحياة.

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص177؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص23؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص210.

(2) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص24-27؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص212-213.

(3) ميخائيل نعيمة، المقاييس الأدبية: الغربال، ص77.

(4) انظر: ميخائيل نعيمة، المقاييس الأدبية: الغربال، ص70؛ وانظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص178؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص211، 215.

4. البحث عن الجمال في كلّ شيء.
5. البحث عن الموسيقى.
6. عدم قطع الصّلة مع القدماء لمجرد قدمهم؛ ففيهم من الشعراء والمفكرين الذين يمكن اتخاذ آثارهم مصدر إلهام مستمر من غير داع للتقليد والمحاكاة.
7. الاهتمام بحاجات الأدباء في الحاضر، والمستقبل؛ لأن ذلك يعني المحافظة على استقلالية الإنسان.

مميزات أدب الرابطة

تلقت دعوة الرابطة القلمية التغريبية (التجديدية)، والابتدائية (الرومانسية)، مع دعوة شعراء مدرسة الديوان في مصر إلى حد كبير، حيث أشاد عباس محمود العقاد في مقدمته لكتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة، بالكتاب، ومؤلفه، والرابطة القلمية، وأعضائها، ودعوتها التغريبية (التجديدية)، حتى أنه قال: "لو لم يكتب قلم النعيمي هذه الآراء، لوجب أن أكتبها أنا" (1). وهذا دليل على قوة العوامل المشتركة بينهما في دعوتها التغريبية (التجديدية).

وقد وجه جبران خليل جبران شعراء الرابطة نحو ما يسمى "الرومانسية المجنحة" من خلال ما نظمته من أنواع الشعر مثل: الموزون، والمنثور، والمهموس (المناجاة) وهو الذي أوجده حديثاً كما يدّعي، فيما هو موجود منذ قرون في الشعر العربي، وحتى في النثر، وبخاصة في أدب الصوفية.

وقد دعا جبران خليل جبران كغيره من نصارى الشرق، والمستشرقين، وبعض تلاميذهم المسلمين إلى الخروج على قواعد اللغة العربية بحجة الواقعية، والتزام حاجات الأديب وعصره، فقال لمن سمّاهم المحافظين على قواعد اللغة: "لكم منها ما قاله سيبويه، وأبو الأسود الدؤلي، وابن عقيل، ومن جاء قبلهم وبعدهم، ولي منها ما تقوله الأمُّ لطفلها، والمتيم لسكينة ليله" (2). كما دعا ميخائيل نعيمة في مقال له بعنوان "الشعر والشاعر" إلى تحطيم القافية؛ لأنها ليست من ضروريات الشعر، واعتبرها قيّداً حديدياً يقيّد قرائح الشعراء، قال: "الوزن ضروري، أما القافية فليست من ضروريات الشعر، لا سيما إذا كانت كالقافية العربية بروي وحد ... فلا مناص لنا من الاعتراف بأنّ القافية العربية السائدة إلى اليوم سوى قيدٍ من حديد تربط به قرائح شعرائنا، وقد حان تحطيمه من زمان" (3)، ثم دعا في مقال بعنوان "الزحافات والعلل: الشعر والعروض" إلى ترك الأوزان والقوافي باعتبار أن علم العروض والقافية ليسا ضروريين، بل هما أساء للأدب، قال: "فلا الأوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر، كما أنّ المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة، فربّ عبارة منثورة، جميلة التنسيق، موسيقية الرنة كان فيها من الشعر أكثر ممّا في قصيدة من مائة بيت بمائة قافية ... العروض لم يسئ إلى شعرنا فقط، بل قد أساء إلى

(1) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص7؛ وانظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص173.

(2) جبران خليل جبران، لكم لغتكم ولي لغتي: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص94.

(3) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص85.

أدبنا بنوع عام" (1). فانظر إلى هذه الدّعوات التي يعتبر أصحابها عند كثيرين من دارسي أدبنا العربيّ قِمَمًا أدبية !!.

ومن خلال استقراء ما كتبه أدباء الرابطة بعامة، وشعرائها بخاصة، يمكن القول إنهم تميّزوا في أدبهم عن غيرهم بثلاث ميزات هي (2):

1. الاتجاه إلى النزعة الرومانسيّة، التي تأثروا بها كثيرًا في أفكارهم، وأساليبهم، وظلّوا يدعون إليها حتى بعد أن انتهت في الغرب" أمّا ادب المهجر المُمثّل في الرابطة، فظلّ ينحو نحو ذلك الأدب الأوروبي الذي هجره أصحاب" (3).

2. الدّعوة إلى التحرّر ممّا أسموه قيود التقاليد الشعريّة، أي الوزن والقافية، وهذا ما لم يلتزموه هم أنفسهم في كثير من نتاجهم؛ إذ كثير من شعرهم موزون، لكنهم خرجوا كثيرًا عن القافية الموحّدة.

3. الدّعوة إلى الابتكار والإبداع في الأدب بعامة، وفي الشعر بخاصة؛ وهذا أيضًا لم يلتزموا به؛ ففي شعرهم موضوعات: المديح، والرثاء، والوصف، والحنين للوطن، والحماسة (الوطنيّ والقوميّ)، مع التجديد في بعض المعاني والصور بما يلائم عصرهم.

أثر شعراء الرابطة في الشعر العربيّ الحديث

اتفق كثيرون ممّن درسوا شعر شعراء الرابطة القلميّة على أنّهم تركوا آثارًا واضحة في الشعر العربيّ، تمثلت في مجالين هما:

1. المضمون

ظهرت آثار شعراء الرابطة في مضمون الشعر العربيّ في موضوعين هما (4):

أ. الشعر التأمليّ والإنسانيّ

(1) ميخائيل نعيمة، الغربال، ص116-118.

(2) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص22؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص214؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص183.

(3) مارون عبود، مجدّدون ومجترون، ص156.

(4) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص217.

اهتم شعراء الرابطة بالبحث عمّا وراء الكون، والطبيعة، والحياة من أسرار، بحثًا عن الحقيقة، ففكروا في الخالق، وأصل الإنسان وماهيته؛ ونهايته، وطبيعة حياته أُمسِيَر هو أم مُخَيَّر؟! والحياة والموت، والخير والشر وغير ذلك من قضايا فكرية تأملية.

ورأى بعض الدارسين أن أبرز التأمليين من شعراء الرابطة القلمية هو إيليا أبو ماضي، وقد ظهر تأمله في قصيدة "العنقاء"، حيث قال(1):

صفرت يدي منها وبى طيش الفتى وأضلّني عنها ذكاء الألمي
حتى إذا نشرَ القنوط ضبابه فوقى فغيبني، وغيبَ موضعي
وتقطعت أمراسُ أمالي بها وهي التي من قبل لم تتقطع
عصرَ الأسى روحى فسالت أدمعًا فلمحّتها ولمسّتها في أدمعي
وعلمتُ حينَ العلم لا يُجدي الفتى أنّ التي ضيّعتها كانت معي

فالشاعر إيليا أبو ماضي، بحث عن الحقيقة، وساءل عنها النور والظلام، وتحرّى عنها في الربيع والشتاء، فلم يجدها، لكنّه لمحها (وجدها) في دموعه عندما عصر الأسى روجه.

وهو في هذه القصيدة متأثر بقصيدة الفيلسوف الحسين بن سينا (ت 1035/427)، التي تحدّث فيها بتأمل أوضح عن الروح، ومنها قوله(2):
هبطت إليك من المحلّ الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع

وقد قلدها كثير من الشعراء، أشهرهم شهاب الدّين يحيى بن حبش السّهورديّ (ت 1191/587)، في قصيدته الحائية التي مطلعها(3):
أبدًا تحنُّ إليكم الأرواحُ ووصالكم رحيانها والراحُ

(1) إيليا أبو ماضي، العنقاء: ديوانه ، 3 / 492.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1 / 422.

(3) السّهورديّ، ديوانه، ص 259.

ب. الشعر الإنساني

ويقصد به الدعوة إلى حرية الإنسان، والحق والسلام، والعدل والمساواة؛ فقد استطاع شعراء "الرابعة القلمية" نقل روحانية الشرق إلى البيئة الأمريكية المادية، وأكثر من عبّر عن ذلك إيليا أبو ماضي في قصيدة سمّاها "الطين"، وفيها يُظهر ما عاناه من حياة مادية في المهجر الأمريكي، وغياب المشاعر الإنسانية، ودعوته تمثّل حال المهاجرين المتهمين أبداً في انتمائهم للمهجر من قبل الإنسان الأمريكي، منذ زمن إيليا أبو ماضي وزملائه في الرابطة حتى يومنا هذا (2017/1439)؛ حيث تُطلّ العنصرية برأسها بين الفينة والأخرى، فتظهر بأبشع صورها، وبخاصة ضد المهاجرين المسلمين والعرب منذ تدمير برجيّ التجارة في نيويورك (المعروفة بأحداث الحادي عشر من أيلول) يوم الثلاثاء (26 رمضان 1422 الموافق 2001/9/11). قال أبو ماضي⁽¹⁾:

نسيّ الطينُ ساعة أنّه طي نّ حقيّرُ فصالٍ تيهّها وعربدُ
وكسا الخزُّ جسمه فتباهى وحوى المالَ كيسه فتمردُ
يا أخي لا تملّ بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنتَ فرقُدُ
أنتَ لم تصنع الحريرَ الذي تُلّ بسُ واللؤلؤَ الذي تنقَلُدُ
أنتَ لم تأكل التُّضار إذا جع تَ ولا تشرب الجُمانَ المنضدُ
ثم يُدكّر المتكبر على إنسانيته بالمساواة في الإنسانية، ويستنكر عليه تكبره، فيقول:

أنتَ مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي الثّيه والصّدُ

وفي قصيدة بعنوان "فلسفة الحياة" يُظهر إيليا أبو ماضي كثيراً من المعاني الإنسانية، حيث يدعو الإنسان إلى الابتعاد عن الشكوى، والإقدام على التفاؤل، وتأمل جمال الحياة، وعدم التفكير في نهاية الحياة قبل نهايتها الفعلية، يقول⁽²⁾:

(1) إيليا أبو ماضي، الجداول: من أعمال الشاعر إيليا أبي ماضي ، ص39.

(2) إيليا أبو ماضي، ديوانه، 604/3.

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ كيف تغدو إذا غدوتَ عليلاً؟
إنَّ شرَّ الجناةِ في الأرضِ نفسٌ تتوقى قبل الرّحيل الرّحيل
وترى الشوكَ في الورودِ وتعمى أن تَرى فوقها النّدى إكليلاً

ثم يقول عن المتشائم، حائاً إيّاه على التفاؤل:

هو عبءٌ على الحياةِ ثقيلٌ مَنْ يظنُّ الحياةَ عبئاً ثقيلاً
والذي نفسه بغيرِ جمالٍ لا يَرى في الوجودِ شيئاً جميلاً
وينهي قصيدته الطويلة بإجمال فلسفته في الحياة، وهي فلسفة قائمة على
التفاؤل الكامل، بقوله:
أيهذا الشاكي وما بك داءٌ كُنْ جميلاً تَرِ الوجودَ جميلاً

ج. الحنين إلى الوطن

موضوع قديم من موضوعات الشعر العربيّ، نظم فيه الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي، ولا يزالون، وسيستمر طالما بقي الإنسان، نظموا فيه أبياتاً مفردة، وثنائاً، ومقطوعات، وقصائد؛ وجاء نظمهم غرضاً مستقلاً، أو مبنوئاً في الموضوعات الأخرى.

وقد كان حنينهم للوطن بسبب عوامل عديدة، فمنهم من اغترب طلباً للرّزق، أو العلم، أو السياحة، أو السياسة؛ أو هرباً وخوفاً، أو نفيّاً وعقوبة، وغيرها، وقد تأثروا بمؤثرات عديدة، فشعروا بالغربة الروحية والمادية، واشتاقوا لكل ما كانوا ألفوه في أوطانهم⁽¹⁾.

وانظر إلى هذا البيت المفرد الذي نظمه ابن جبير الأندلسي (ت 1217/614) عندما وصل قرية "زريزان" على شط نهر دجلة قرب مشهد الصحابيّ سلمان الفارسيّ، رضي الله عنه، على مسافة قريبة من بغداد، فثار حنينه، فتمنى لكلّ مغترب عودة أمنة إلى وطنه⁽²⁾:

سقى الله باب الطاق صوب غمامة وردّ إلى الأوطان كلّ غريب

ومن شعر المهجريين في الحنين للوطن، قصيدة إيليا أبو ماضي بعنوان "الشاعر في السماء" التي حنّ فيها إلى لبنان، قال⁽³⁾:

تحنّ نفسي إلى السواقي إلى الأقاحي إلى الشذاء

إلى الروابي تعرى وتكسا إلى العصافير والغناء

إلى العناقيد والدوالي والماء والتّور والهواء

فأشرف الله من علاه يشهد لبنان "في المساء"

فقال: ما أنت ذو جنون وإئما أنت ذو وفاء

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص 231 وقالت رأياً آخر حيث ذهبت إلى أنّ غرض الحنين في الشعر العربيّ القديم لم يكن غرضاً مستقلاً بذاته؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص 189.

(2) منجد بهجت، ابن جبير الأندلسي شاعراً: آداب الرافدين، عدد (9)، ص 489.

(3) إيليا أبو ماضي، الشاعر في السماء: ديوانه ، 3 / 125.

فإنّ لبنانَ ليسَ طودًا ولا بلادًا لکن سماءُ

وعندما هطل الثلج هيجَ ذكريات الشاعر رشيد أيوب، فحنّ لأهله ووطنه، فقال⁽¹⁾:

يا ثلجُ قد هيجتَ أشجاني ذكّرتني أهلي بلبنان

بأنّ قلّ عني لإخواني ما زال يرعى حرمة العهد

يا ثلجُ قد ذكّرتني الوادي مُتّصِّيًا لغديره الشّادي

كم قد جلستُ بحضنه الهادي فكأنّني في جنة الخلد

والشاعر السوري نذرة حدّاد يحنُّ لوطنه وأهله، كلّما التقى مع واحد من أهل وطنه، بل من العرب الذين يُبادلونه التحيّة العربيّة بلفظ عربيّ مُبين، قال⁽²⁾:

ما قيلَ لي مرحبًا في كُـلِّ أسفاري

إلا وقلبي صـ _____ للأهل والـ _____ ذاري

2. في الشكل وطرائق التعبير

تمثّل تجديد شعراء الرابطة القلمية في شكل الشعر وطرائق التعبير به في ثلاث قضايا هي:

أ. الخروج على قواعد اللغة

دعا عدد من شعراء "الرابطة القلمية"، وكتّابها إلى التساهل في استعمال اللغة، وعدم الاهتمام بالألفاظ القاموسية، والقياس عليها ما دام الغرض منها واضحًا، واللفظ المستخدم يؤدي معنى مفيدًا، وممن دعا إلى الخروج على قواعد اللغة:

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص233.

(2) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص233.

1. ميخائيل نعيمة، فقد سمّى العلماء الذين يدعون إلى المحافظة على اللغة العربية باعتبارها لغة شريفة "ضفادع الأدب"، الذين يترصدون الألفاظ التي يستخدمها الأدباء، ولا تلتزم بقواعد اللغة وفق مقاييس القدماء كالثعالبي والزمخشري وغيرهما، فيجيزون ما أجازهم القدماء، ويمنعون ما لم يرد في كتبهم، أو يتفق مع مقاييسهم. وقال إنَّ الأديب في حلٍّ من الخطأ ما دام غرضه مفهوماً، ولفظه مفيداً⁽¹⁾.

2. جبران خليل جبران، هاجم علماء اللغة الدّاعين للمحافظة على قواعدهما، وألفاظها، وأساليبها، في مقال بعنوان " لكم لغتكم ولي لغتي " حيث ميّز بين اللغة التي يدعو هو إلى استخدامها (لغته)، واللغة الفصيحة (لغة غيره) بقوله: " لكم منها القواميس، والمعجمات، والمطوّلات، ولي منها ما غربلته الأذن، وحفظته الذاكرة من كرم مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم، ... لكم منها قاله سيبويه، والأسود، وابن عقيل، ومن جاء قبلهم، وبعدهم من المضحّرين المُمِلّين، ولي منها ما تقوله الأمّ لطفلها، والمحبُّ لرفيقته، والمتعبّد لسكينة ليله.

لكم منها الفصيح دون الركيك، والبليغ دون المبتذل، ولي منها ما يُتمّمة المستوحش وكلّه فصيح، وما يغصُّ به المتوجّع وكلّه بليغ، وما يلثغ به المأخوذ، وكلّه فصيح وبليغ "⁽²⁾.

3. إيليا أبو ماضي، مارس ما سمّاه دُعاة الخروج على قواعد اللغة (تجديداً) في شعره، ودعا إليه، فقال من قصيدة له بعنوان "الفتاحة " ⁽³⁾:

لست مئي إن حسبت الش	شعرَ ألفاظنا ووزنا
خالفت دربك دربي	وانقضى ما كان مئنا
واتخذ غيري رفيقنا	وسوى دنيائي مغني
فانطلق عنّي لئلا	نفقنا هماً وحرنا

(1) انظر: ميخائيل نعيمة، نقيق الضفادع: الغربال، ص90.

(2) جبران خليل جبران، لكم لغتكم ولي لغتي: المجموعة الكاملة، ص93-95.

(3) إيليا أبو ماضي، الفتاحة: ديوانه ، 744/3؛ الجداول: من أعمال الشاعر إيليا ، ص7.

وقال: إنّ الشعر هو أفكار ومعان، وشعور وإبداع، لا تقتّده الألفاظ والقواعد اللغوية، بل يجب أن يتّسع لمضامين الحياة كلّها، ببساطة ووضوح.

الحقيقة أنّ هذا ما نجده في أغلب الشعر العربيّ طوال رحلته من الجاهلية حتى يومنا، مع ملاحظة أنّ لكلّ زمن ألفاظه، وأساليبه، وتراكيبه، وحتى معانيه الخاصة، وهناك ألفاظ وأساليب وتراكيب ومعان تبقى قادرة على الجريان في مسار تطور اللغة عبر رحلتها الزمنية الطويلة بوضوح وسهولة، وليس أدل على ذلك من القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشّريف، وكثير من الشعر العربيّ. وهناك ألفاظ وأساليب يتوقف الناس عن استخدامها في حقبة زمنية ما، ويعودون لاستخدامها في حقبة أخرى وفق مستجدات عصرهم، فاللغة كائن حي، لكنّ حياتها بيد أهلها والناطقين بها، وليست حياتها بيدها.

ويستدلّ مؤيدو دعوة الشاعر إيليا أبو ماضي على ذلك، بقوله من قصيدة بعنوان " وطن النّجوم " يخاطب وطنه لبنان، بعدما عاد إليه كهلاً، وكان غادره صبيّاً يافعاً⁽¹⁾:

وطنُ النّجوم أنا هنا حدّق أتذكر مَنْ أنا؟

ألمحت في الماضي البعيد فغنى غريراً أرعنا!

جدلان يمرح في حقولك كالنسيم مدّنا

ثم يقول:

أنا ذلك الولد الذي دنياه كانت ها هنا!

أنا من مياهك قطرةً فاضت جداول من سنا

أنا من ترابك ذرّةً ماجت كواكب من منى

أنا من طيورك بلبل غنى بمجدك فاغتني

حمل الطلاقة والبشاشة من ربوعك للـدنا

(1) إيليا أبو ماضي، وطن النّجوم: ديوانه، 3/ 736؛ تبر وتراب: من أعمال الشاعر إيليا، ص453.

والحقيقة، أن هذا شعر جميل، وسهل، وواضح، ولا خروج فيه على قواعد اللغة، بل فيه عودة للتراث العربيّ، وفيه استخدام لفظة موقع "منى" وهو من مناسك الحج، التي لم يعيشها الشاعر كونه مسيحيًا، لكنه استدعاها من موروثة الثقافيّ التاريخيّ، ووظفها توظيفًا سليمًا – إن كان يقصد منى التي هي من مناسك الحج، إذ هناك من يضبطها منى، وهذا بعيد -.

3. التجديد في الأسلوب

استخدم أدباء الرابطة القلمية بعامة اللفظة السهلة، والعبارة الرقيقة الواضحة⁽¹⁾، وابتعدوا عما سمّوه جزالة اللفظ، وفخامة التعبير كما فعل محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وعبد المحسن الكاظمي، وفؤاد الخطيب، وسليمان الباروني، وسليم أبو الإقبال اليعقوبي، وإبراهيم الدباغ وغيرهم كثير من شعراء العربية، الذين يُتهمون بالسير على خطى شعراء العصر العباسي وغيرهم.

وادّعى محمد مندور أن شعر شعراء "الرابطة القلمية"؛ لسهولته هو شعر مهموس، حيث اعتبر أنّ الشاعر القويّ "هو الذي يهمس، فتحسُّ صوته خارجًا من أعماق نفسه في نغمات حارة"⁽²⁾. ومثّل عليه بقول ميخائيل نعيمة.

أخي إن عاد يحرثُ أر ضَـهُ الفـلاح أو يـزرعُ
ويبني بعد طول الهـج ر كوخًا هـدّه المـدفعُ
فقد جـفت سـواقينا وهـدّ الـدّلّ مأوانا
ولم يترك لنا الأعـدا عُ غرسًا في أراضينا

سوى أجياف موتانا

والحقيقة أنّ هذا الشعر سهل وواضح، لكننا لا نعدم مثله في العصور السابقة، وبخاصة عند الشعراء الشعبيين، وبشار بن برد، وأبي فراس الحمداني،

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص238.

(2) محمد مندور، في الميزان الجديد، ص48. وانظر حول الشعر المهموس: مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد، ص199.

والعباس بن الأحنف، وحتى عند البهاء زهير، وماماي الرّومي وغيرهم عبر كلّ عصور الأدب العربيّ.

كما أنّ بعض شعراء الرابطة نظموا شعراً بالألفاظ جزلة وعبارات فخمة في الموضوعات: الوطنيّة، والقوميّة، والحنين للوطن وغيرها. فالذي يُحدّد طبيعة الألفاظ والتراكيب هو موضوعها. ومثال ذلك قول نسيب عريضة، وقد استخدم الألفاظ الجزلة والتراكيب القوية⁽¹⁾:

يا أخي يا أخي المصاعب شتّى وبعيّد مرادنا والموارد
وأمام العيون دربٌ عسيرٌ لم تُسرّ قبلنا عليه الأوابد
مظلمٌ موحشٌ كثيرٌ الأفاعي والسعالي المستهويات الطرائد

4. التجديد في الوزن

الحقيقة أنّ شعراء "الرابطة القلميّة" لم يخرجوا على الأوزان العروضية الستة عشر، إنّما لجأوا إلى استخدام الأوزان الشعريّة القصيرة، والمجزوءة، والمشطورة، كما استخدموا الموشح لما وجدوه فيه من تغيير في أوزانه وقوافيه. وقد ذكر ميخائيل نعيمة أنّ جبران خليل جبران كان يرى: "أنّ تعدّد الأصوات يزيد في وقع القصيدة ومداها، ويسترعي انتباه القارئ أكثر من صوت واحد"⁽²⁾.

ولكن أكثر شعراء "الرابطة القلميّة" جدّدوا في استخدام القافية الواحدة، فغيروها بين مقطع وآخر. وأمثلة ذلك في شعرهم كثيرة، إنّما يجب ملاحظة قضية مهمّة في هذا الموضوع، وهي أنّ لجوء شعراء "الرابطة القلميّة" إلى استخدام الأوزان الخفيفة، والمجزوءة، والمشطورة، أدّى بالشاعر نسيب عريضة إلى نظم قصيدة بعنوان "النهاية" تعتبر المرحلة الأولى والمبكرة من ظهور شعر التفعيلة، وذلك قبل ظهور الجدل حول أول من قاله بثلاثة عقود تقريباً، فقد قال⁽³⁾:

كفّهُ _____ وه

واذفن _____ وه

(1) نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص201.

(2) ميخائيل نعيمة، جبران، ص234.

(3) نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص65.

أَسْـ______كُنْوَهِ

هَوَاَ اللّٰحْد العَمِيْق

واذْهَبُوا لا تَتَدَبَّوْهُ فَهُوَ شَعْب

مَيَّـت لـ____يَس يَفِيْق

وهي قصيدة وطنية، عبّر فيها عن حزنه وأسأه، بل نقمته على شعبه، وأمته لقبولهما بالخضوع للاستعمار، والعيش بذل وهوان.

شعار الرابطة

كان شعر الرابطة القلمية عبارة بليغة تدلّ على مدى تقديرها للشعراء، ودورهم في الحياة البشرية، وهو: "لله كنوزٌ تحت العرش، مفاتيحها السنة الشعراء"⁽¹⁾.

(1) ميخائيل نعيمة، جبران، ص237.

انفراط عقد الرابطة

ولدت الرابطة في يوم الثلاثاء (2 شعبان 1338 الموافق 1920/4/20)، ونمت وازدهرت حتى بلغت من العمر إحدى عشرة سنة، ثم ماتت فجأة عندما مات رئيسها جبران خليل جبران يوم الجمعة (22 ذو الحجة 1349 الموافق 1931/4/10) في نيويورك، ثم عاد ميخائيل نعيمة إلى قريته بسكنتا في لبنان سنة (1932/1351)⁽¹⁾، وبدأ الموت يأخذ أعضاء الرابطة المؤسسين العشرة الواحد تلو الآخر، فكان أولهم رشيد أيوب سنة (1941/1360)، وآخرهم ميخائيل نعيمة سنة (1988/1406)، وقد عُمر (99) سنة.

5. العصبية الأندلسية⁽²⁾

جماعة أدبية تأسست في مدينة "سان باولو" بالبرازيل من قبل عدد من الأدباء العرب الشاميين سنة (1933/1351).

ظروف النشأة

انصبّت جهود عدد من الأدباء، والصحفيين، والمتقنين العرب الذين هاجروا إلى أمريكا الجنوبية بعامة، والبرازيل والأرجنتين بخاصة، في أول هجرتهم على إنشاء الصحف والمجلات بهدف التعبير فيها عن أفكارهم وآرائهم في كل شيء، وعن أحداث وطنهم العربي، وأمتهم العربية بشكل خاص، فظهرت مجلة "الجالية" لصاحبها سامي يواكيم الرامي، و "الشرق" لصاحبها موسى كريم، و "الأندلس الجديدة" لصاحبها شكر الله الجرّ، التي كانت تصدر في "ريودي جانيرو" بالأرجنتين.

وقد أسهمت تلك الصحف والمجلات في نشر أدب أدباء المهجر الجنوبي، وآرائهم فازدهر، ونما، وبلغ أوج ازدهاره في أثناء الحرب العالمية الأولى، أي في (بداية العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري/ نهاية العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي)، وتركز وجود الأدباء في البرازيل ثم الأرجنتين، ثم دعا شكر الله الجرّ إلى جمع شمل الأدباء وتعزيز أدبهم، فالتقت دعوته مع دعوة الشاعر ميشال معلوف في "سان باولو"، الذي ألمه وضع الأدب في المهجر بعامة والجنوبي فيه

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص348؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص212.
(2) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص258؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص181؛ قصة الأدب المهجري، ص91؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص27-28؛ مارون عبود، مجدّون ومجترون، ص163.

بخاصة، واتفقوا على تشكيل جماعة أدبية تسدّ الفراغ الذي تركه انفراط عقد "الرابطة القلمية" في "نيويورك"، فسافر شكر الله الجرّ إلى "سان باولو"، والتقى ميشال معلوف وصحبه، واتفقوا على تأسيس العصبة⁽¹⁾.

تأسيس العصبة⁽²⁾

لاقت دعوة الأديب شكر الله الجرّ استحساناً، فقبولاً من زملائه؛ شعراء وكتاب، وفي يوم الخميس (4 رمضان 1351 الموافق 1933/1/1) تمّ الإعلان عن تأسيس الجماعة الأدبية، وأطلق عليها اسم "العصبة الأندلسية".

وانتخب الشاعر ميشال معلوف رئيساً للعصبة، واستمرّ حتى وفاته سنة (1938/1357) في بلدته رحلة بلبنان، فخلفه الشاعر رشيد سليم الخوري الملقب "بالشاعر القروي"، ثم خلفه شفيق معلوف وهو ابن أخت ميشال معلوف، أول رئيس للعصبة، واستمرّ رئيساً للعصبة حتى تشبّت شملها؛ بوفاة بعضهم، وانفصاض بعضهم، وعودة أكثرهم إلى وطنهم الأم.

وانتخب داود شكور نائباً للرئيس، ونظير زيتون أميناً للسّر، ويوسف البعيني أميناً للصندوق، وجورج حسون معلوف خطيباً للعصبة. وقد ضمت في عضويتها أكثر من عشرين أديباً، تفاوتت ثقافتهم ما بين مَنْ يُتقن لغة أجنبية مثل: شفيق المعلوف، ومَنْ يُتقن العربيّة ويُلّم بلغة بلده في المهجر بما يُساعده على التحدّث بها، وبين مَنْ يعرف قواعد العربيّة، وأوزان الشعر، ومَنْ لا يعرف ذلك إلا معرفة سطحية، لكنهم كانوا مُقبلين على تثقيف أنفسهم تثقيفاً ذاتياً، لصقل مواهبهم الفدّة، ولعلّ ذلك كان سبباً مهماً في دعوتهم للحفاظ على اللغة والشعر العربيّ.

لسان العصبة⁽³⁾

اتخذ أعضاء العصبة مجلة "الأندلس الجديدة" وسيلة للتعبير عن آرائهم، ونشر أدبهم، وكان رئيس تحريرها وصاحبها الشاعر شكر الله الجرّ، وذلك حتى

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص28؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص259؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص181.

(2) انظر: محمد خفاجي، قصة الأدب المهجريّ، ص91؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص27؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص258؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص179؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر، ص311.

(3) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص28؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص180؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص259؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر، ص312 وقد أخذ عن عيسى الناعوري أغلب ما كتبه.

عام(1935/1354). ثم أصدروا مجلة خاصة بالعصبة أسموها "العصبة"، وعهدوا إلى الصحفي والأديب حبيب مسعود برئاسة تحريرها، فكانت ملتقى أفكار أعضائها، ومسرح خواطرهم، فأسهمت ببلورة الأدب العربي في البرازيل، بحيث انتشر في المهجر والوطن العربي، وأخذ يؤثر في الأدب العربي الحديث، لكنها توقفت عن الصدور سنة (1941/1360) مع غيرها من الصحف العربية. بناء على أمر رئيس جمهورية البرازيل الذي حظر صدور أي صحيفة، أو كتاب، أو منشور بغير اللغة الرسمية للبرازيل.

وفي عام (1947/1367) أعاد إصدار المجلة الشاعر شفيق معلوف بماله الخاص، وكان هو رئيس "العصبة الأندلسية"، وأسند تحرير المجلة للأديب والخطاط حبيب مسعود، الملقب بابن نقطة العصر⁽¹⁾، الذي واصل تحريرها إلى قبيل توقفها النهائي عن الصدور عام (1954/1374)، حيث عمل في التجارة مدة يسيرة، ثم رأس تحرير مجلة "المراحل" الأدبية التي كانت تصدرها الأديبة مريانا دعبول فاخوري.

وقد تشبّتت شمل أعضاء العصبة مع الزمن، حيث توفي بعضهم، وأولهم مؤسسها وأول رئيس لها ميشال معلوف، وانفض بعضهم عن العصبة، وعاد بعضهم إلى وطنه الأم، وبذلك انتهت العصبة كما انتهت الرابطة القلمية.

سبب التسمية

تم اختيار اسم "العصبة الأندلسية" تيمناً بالتراث القيم الذي تركه العرب المسلمون في الأندلس، وفيه إشارة إلى الابتعاد عن التطرف الذي وصفت به "الرابطة القلمية".

وقد فسّر هذه التسمية رئيس تحرير مجلة "العصبة" حبيب مسعود قال: "إنّه لتيمّن بالتراث الغالي الذي تركه العرب في الأندلس ... فقد دخلنا أرض كولومبس مستترزين، طالبين عطقاً، وسائلين عدلاً، فلا يبرر تسمية بيتنا بالأندلس، إلا اعتبارنا أنّ نشر الأدب العربي في البلد الغريب، وفي الأميين من قوما هو فتح مُبين ... فليس الفضل في أن تصون لغتك وأنت قابع في دارك بين عشيرتك كالفضل في أن تصونها، وتُحصنها، وتشقى من أجلها في بلاد غريبة عنك لسائاً وعادة وعرفاً"⁽²⁾.

(1) ابن نقطة هو: محمد بن عبد الغني، أبو بكر البغدادي، المعروف بابن نقطة، عاش ما بين (1183/579 و 1231/629-)، كان عالماً بالحديث، والأنساب، بارعاً في الخط العربي، ولقبُ نقطة لحقه من اسم جارية ربّت جنته لأبيه. انظر: الذهبي، سير أعلام، 347/22؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 133؛ الزركلي، الأعلام، 211/6.

(2) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص260.

دستور العصبة

لم يكتب أعضاء "العصبة الأندلسية" دستوراً لها، كما فعل أعضاء "الرابطة القلمية"، لكن الأعضاء تعاهدوا، واتفقوا على الالتزام بأربعة مبادئ هي⁽¹⁾:

1. الدفاع عن الأدب، ونشره، من حيث هو فن، من دون تحديد مذهب فني مُعيّن.
2. لكل أديب عضو في "العصبة" حرية اختيار المذهب الأدبي والفني الذي يتبعه.
3. الحفاظ على اللغة العربية الفصحى، والتمسك بأساليبها، والتقيد بقواعدها وأحكامها.
4. حظر البحث في موضوعي السياسة، والدين على أعضاء العصبة.

أهداف العصبة

سعت العصبة إلى تحقيق أهداف عديدة، أهمها⁽²⁾:

1. جمع أدباء العربية في البرازيل والأرجنتين، وغيرهما من بلاد المهجر الجنوبي، والعمل على مؤاخاتهم.
2. تعزيز الأدب العربيّ، ونشره، والدفاع عنه باعتباره فناً وجمالاً من دون الاهتمام بمصدره، أو فروعه.
3. تأسيس منتدى أدبيّ صرف، وإصدار مجلة تنطق بلسان العصبة.
4. العمل على إقامة صلات أدبية بين العصبة وسائر الجماعات، والنوادي، والروابط الأدبية في الوطن العربيّ، ما أمكن ذلك.
5. رفع مستوى العقل العربيّ، ومكافحة التعصب بكل مظاهره، ورفض أية صبغة سياسية، أو دينية، أو إقليمية يمكن أن تصطبغ بها العصبة.

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص180؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص28؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص260، أحمد قبش، تاريخ الشعر، ص312.

(2) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص181؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص27؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص260.

6. العمل على إطلاع الأدباء العرب والقراء في الوطن العربيّ عن طريق مجلة "العصبة" على إبداعات الفكر العربي في المهجر بعامة، والبرازيل بخاصة.

7. المحافظة على عمود الشعر، وأوزانه، وقوافيه، وبلاغته.

8. الأخذ بمعاني التجديد من دون فوضى.

نشاط العصبة

استطاعت "العصبة الأندلسية" تحقيق كثير من أهدافها من خلال قيامها بالنشاطات الآتية⁽¹⁾:

1. توثيق الصلة بين العصبة والجماعات والأندية الأدبية العربية من خلال اتصال أدبائها بالعالم العربي في شعرهم الوطني والقومي.
2. قامت العصبة بنشر كثير من نتاج أعضائها الأدبي؛ شعراً ونثراً، مثل: نشر دواوين: الروافد، وزنابق الفجر لشكر الله الجرّ، وعبر، ونداء المجاديف، ولكلّ زهرة عبير لشفيق المعلوف، وأحلام الراعي لإلياس فرحات، وديوان الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) في مجلد ضخم ضم عدّة دواوين. كما نشرت أعداد المجلة التي صدرت طوال ثلاثة عشر عاماً في ثلاثة عشر مجلداً، بكلّ ما فيها من قصائد ومقالات وقصص ونقد وغيرها.
3. أقامت العصبة حفلات أدبيّة، وقوميّة كثيرة في مناسبات متنوعة، كانت بمثابة أسواق أدبيّة ومن ذلك: إحياء ذكرى المتنبي، والشيخ محمد عبده، وفرح أنطون، وجبران خليل جبران، والشريف حسين بن علي شريف مكة.

مميزات شعراء العصبة الأندلسية

اتجه اهتمام شعراء العصبة الأندلسية نحو مضمون شعرهم ومحتواه، أكثر من اهتمامهم بشكل الشعر، وذلك انطلاقاً والتزاماً بالمبادئ التي التزموا بها، والأهداف التي سعوا إلى تحقيقها، ففي الشكل حافظوا على عمود الشعر، والأوزان، والقوافي، كما حافظوا على أساليب التعبير العربيّة، ونادراً ما حاول بعضهم إحداث تغيير في أوزان الشعر الذي ينظمه؛ ولذلك سيتم الحديث عن مضمون شعر شعراء العصبة ومحتواه ضمن العناوين الثلاثة الآتية:

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص30؛ عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص261.

1- الشعر القومي والوطنيّ

ارتبط أكثر شعراء العصبة الأندلسيّة بوطنهم الأم، وأمّتهم، وحرصوا على البقاء في تواصل دائم مع الأحداث في الوطن العربيّ، فنظموا في أغلب المناسبات القوميّة، والوطنيّة، وقد لُقّب الشاعر رشيد سليم الخوري (القروي) بلقب قدّيس الوطنيّة العربيّة، لكثرة ما نظمها في تراث العرب والمسلمين، وحثّ الأمة على: التآخي، والتعاون، والنهوض، ومن ذلك قوله على لسان الأمة العربيّة(1):

أنا العروبة لي في كلّ مملكة إنجيل حب، ولي قرآن إنعام
سل عهد شامي وبغدادى وأندلسي عن عمق فلسفتي، عن عدل أحكامي
ما اخضوض الشرق إلا تحت أقدامي وازهوهر الطرب إلا تحت أعلامي

وقوله يفخر بتراث الأمة العربيّ الإسلاميّ(2):

عشّ للعروبة هاتقاً بحياتها ودوامها
انظر إلى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يُمتُّ مع ظمؤه إلى إسلامها

وكانَ لاحتلال فلسطين من قبل بريطانيا، ووعد بلفور، والثورات الفلسطينية المتتابة ضد الاحتلال، أثر واضح في شعراء العصبة الأندلسيّة، حيث كانوا يقيمون الاحتفالات في المناسبات الفلسطينية وينظمون الشعر، ويلقون الخطب تعريضاً بالقضية، ودفاعاً عنها، ومن ذلك قول إلياس فرحات يخاطب فلسطين في إحدى المناسبات(3):

ليبك لبيك يا ريحانة العرب يا بنت عدنان يا معصومة السب
إنّا اشتريناك بالأرواح عاطلة فلن نبيعك بعد الحلي بالنشب

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص262.

(2) رشيد سليم الخوري، ديوانه، ص363.

(3) إلياس فرحات، ديوانه، ص62.

يفديك كلّ فتى في قلبه قبس من نور مجدك تيّاه على الشّهب

ثم يُحرّض أبناء الأمة على السير على خطى صلاح الدّين، فلا سبيل غيره
لتحريرها، قال:

لَبّى نداء صلاح الدّين زارته في القدس يسمّعها الصّمان في حلب

النّيل يزحف والعاصي ليشتركا والرافدين مع الأردن في القلب

وبعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، وانفراط عقد آخر دولة خلافة إسلاميّة، استكملت دول الغرب الاستعمارية احتلال الكثرة الكاثرة من بلدان العرب والمسلمين، فثارت ثائرة الشعوب ضد الاستعمار، وقد نظم شعراء العصبة في الثورات كلّها مُجّدين وحائثين على الكفاح والجهاد، وقد نظم إلياس فرحات قصيدة لامية عبّر فيها عن تضامن العرب، قال⁽¹⁾:

إنّا وإن تكن الشّام ديارنا فقلوبنا للعرب بالإجمال

نهوى العراق ورافديه وما على أرض الجزيرة من حصى ورمال

وإذا ذُكرت لنا الكنانة خلّتنا نروى بسائغ نيلها السلسال

بنا وما زلنا نشاطر أهلها مُرّ الأسى وحلاوة الأمال

وبلغ من تفاني الشاعر رشيد سليم الخوري (القروي) في حبّ الأمة العربيّة، وتضامنه مع أحداثها أنه كتب في مقدّمة ديوانه: "أمّتي أنا مكثراً، ووطني أنا مكبراً، إذا اقتطع ذناب الاستعمار منه قطعة، فكأنّما أكلوا جارحة من جوارحي، وإذا هدرنا عربياً في لبنان، أو تطوان، فكأنّما شربوا نغبة من دمي، وكأنّ كلّ بلد قوي من بلادني ساعدي مفتولاً، وكلّ شعب خامل فيها، زندي مشلولاً، بل ما أعدّ ذاتي إلا خلية في

(1) إلياس فرحات ، ديوانه ، ص203.

جسد أمتي، أنا واحد من سبعين مليوناً من العرب، كلّ واحد منهم أنا، فينبغي أن أحبهم سبعين مليون ضعف حبي لنفسي⁽¹⁾.

2-الاغتراب والحنين للوطن

كما شعر شعراء "الرابطة القلمية" بالاغتراب، فحنّوا لأوطانهم، كذلك فعل شعراء "العصبة الأندلسية"، لكنهم اختلفوا عنهم في مضمون هذا الحنين، فشعر شعراء الرابطة كأن رومانسيًا خالصًا، لا تجد فيه ألمًا وحرقة على حال الوطن وأهله، فيما شعر شعراء العصبة كأن وطنيًا ممزوجًا بالحنين والشوق، لذلك يمكن اعتبار أجزاء منه ضمن الشعر الوطني والقومي. وما يجعله حنيئًا هو تعبير الشعراء عن الوطن من خلال العلاقات الإنسانية المرتبطة بالوطن من خلال: الأم، أو الطفولة، أو الحبيبة، أو من خلال الارتباط بآماكن الوطن من: منزل، أو قرية، أو مدينة، وما فيها من طبيعة. ومن ذلك قول رشيد سليم الخوري، وهو يشعر بغربتين⁽²⁾:

ما البرازيل مهجري	ليس لبنان لي حمى
إنّ نفسي غريبة	تشـتـكي البـعد فيهما
أنا ما دُمت في الثرى	بعيدًا عن السّما
مهجتي كلّها جوى	كـبـدي كلّها حـنين
أبدًا أشـتـكي النّوى	دأبـي النّـوح والأنـين

فالشاعر يشعر بغربتين مزدوجتين في مهجره البرازيل، ووطنه لبنان، لذلك فإنّه دائم الشكوى والحزن. والشاعر نصر سمعان، ردّ على مَنْ كانَ لآمه على حنينه إلى مدينته حمص، بقوله⁽³⁾:

قالوا أتصبو إلى حمص فقلت لهم قلبي بغير هواها غير خفاق

(1) رشيد سليم الخوري ، ديوانه ، ص15.

(2) رسيد سليم الخوري ، ديوانه ، ص174.

(3) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص269.

تلك الخمائل جئات منورة بكلّ زهرة ذكي الطيب عبّاق
والطير ما بين تغريد وزقزقة والماء ما بين فوّار ورقراق
والريّح تمرّح في الأرواح ناثرة حلى الطبيعة من زهر وأوراق
وللتواغير أنات تبتُّ بها شكوى صباية مشتاق لمشتاق

3- الشعر الإنساني

نظم شعراء "العصبة الأندلسيّة" كثيرًا في الموضوع الإنساني، فتغنّوا فيه بعواطف الأمومة، والأبوة، والمعاني التي تتولد عنهما، ومشاعر الآباء نحو الأبناء، والأحفاد، وهذا كله يظهر من خلال صدق العاطفة التي يتفق عنها الشعر، ومن ذلك قول الشاعر توفيق بربر في ابنته الصغيرة (جزيلا)، مُعبّرًا عمّا يختزنه من عواطف لها، قال(1):

صغيرة بيتي، وحبّة قلبي وزهرة عيشي، وثمره حبّي
ومعنى وجودي، وكنه خلودي وبيت قصيدي، وآية ربّي
كأنّ التّسيم الحنون حباها أدقّ المعاني لتسبي وتصبي
تزقزق حولي، فتشرق شمسي ويزهر قفري، وتورق دربي
وتغدو الحياة سلامًا وبردًا وإن الحياة لحرب بحرب

ونظم كثير من شعراء "العصبة الأندلسيّة" أشعارًا في أصحاب المهن البسيطة مثل: ساعي البريد، ومُنضّد الحروف الطباعية، وماسح الأحذية، والعُتال، والورّاق، والفلاح، والشرطي؛ لما يقدّمونه من خدمات مهمّة لعامة النّاس، ولأنّ الإنسانيّة في أبسط صورها تعني: احترام الإنسان حقوق أخيه الإنسان، وأن يُعامله

(1) عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص272.

بمحبة وتقدير، وعليه فأصحاب تلك المهن البسيطة هم أجدر من غيرهم بالمحبة والتقدير والاحترام⁽¹⁾.

وقد وصف شفيق معلوف ساعي البريد، مذكراً بفضلته في زرع الفرح في قلوب مَنْ يُسلمهم الرسائل البريدية، فقال مخاطباً له⁽²⁾:

يا ساعياً بابتسامات توزّعها على الشّفاء بلا مَنْ وترديد

كم وجه أم عجوز إن بررت له لم تبق من أثر فيه لتجعيد

تُلقي إليها كتاباً إن يُصبّ يدها شدّته باليد بين النّحر والجيد

كأن كلّ غلاف منك ملتحف لابن إلى صدر تلك الأم مردود

واشترك شعراء "العصبة الأندلسيّة" مع شعراء "الرابطة القلميّة" في النظم الفلسفيّ عن الإنسان؛ مَنْ هو؟ ومن أين جاء؟ وإلى أن يسير؟ ودعوا إلى المحبة والسلام، وبعضهم تحدّث عن الإنسانيّة على أنّها شبه عقيدة عندما دعا إلى التمسك بحقوق الإنسان ممثلة بالحرية، والعدالة، والمساواة، ومن هؤلاء: إلياس فرحات في قصيدة "سلام الغاب"، وشفيق معلوف في أناشيد "عبر"، ونعمة قازان في قصيدة "حرية" وغيرهم⁽³⁾.

واعتبر بعض الدّارسين مضمون الشعر الوطنيّ، والقوميّ عن معاناة الإنسان العربيّ تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي اهتماماً بالإنسان؛ لأنهم بذلك عالجوا مشكلات إنسانيّة، فتأثروا بأحداث وطنهم، ودعوا إلى محاربة الإستعمار⁽⁴⁾.

الفرق بين شعر شعراء الرابطة القلميّة، والعصبة الأندلسيّة

على الرّغم من كثرة عناصر التوافق واللقاء بين شعراء "الرابطة القلميّة"، و"العصبة الأندلسيّة" إلا أنّ الممارسة العملية للأدب أظهرت وجود فروق مهمّة بين شعر شعراء الجماعتين الأدبيتين في المهجر الأمريكي، وأهم تلك الفروق هي⁽¹⁾:

(1) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص274.

(2) شفيق معلوف، سنابل راعوث: قصائد مختارة، ص80.

(3) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص273.

(4) انظر: عزيزة مريدن، حركات الشعر، ص275.

1. تمسك شعراء "العصبة الأندلسية" بقواعد اللغة العربية، وألفاظها السليمة، وأساليبها القوية الرزينة، فيما دعا شعراء "الرابطة القلمية" إلى عدم الالتزام بقواعد اللغة العربية، واستخدام العامية، والأساليب والألفاظ البسيطة الأقرب إلى العامية.
2. اهتم شعراء "العصبة الأندلسية" بالدعوة إلى التجديد في مضمون الشعر، ومحتواه، وحافظوا على أشكال الشعر من حيث الالتزام بالأوزان العروضية، والقافية، أما شعراء "الرابطة القلمية" فقد دعوا إلى التجديد في مضمون الشعر ومحتواه وأشكاله، ونظموا على طريقة الشعر المنثور، والنثر الشعري، وظهر ذلك في شعر جبران خليل جبران، كما أحبوا موسيقى الموشحات، لتتنوع أوزانها، وتعدّد قوافيها، فنظموا على منوالها كثيراً، لا بل إن موسيقى كثير من أشعارهم جاءت قريبة من موسيقى الموشحات.
3. اهتم شعراء العصبة الأندلسية بموضوع الوطن والقومية أكثر من أي مضمون آخر، فيما اهتم شعراء "الرابطة القلمية" بموضوع الوجدان، والطبيعة، فجاء شعرهم أقرب إلى الرومانسية.
4. كان لشعراء "الرابطة القلمية" دستور مكتوب التزموا به، أما شعراء "العصبة الأندلسية" فلم يحتكموا إلى دستور مكتوب، لكنهم التزموا بمبادئ عامة، فجاء شعرهم أقرب إلى الشعر العربي الأصيل في وطنهم الأم من حيث الشكل والمضمون.
5. اهتم شعراء "العصبة الأندلسية" بتوثيق الصّلات مع وطنهم العربي، ومتابعة أحوال وطنهم، فكان ما نظموه في القضايا الوطنية، والقومية في أقطارهم رافداً مهماً لما نظمته الشعراء العرب في تلك القضايا، أما شعراء "الرابطة القلمية"، فيكاد موضوع الوطنية القومية يختفي من شعرهم.

مميزات مدرسة شعراء المهجر

على الرغم من الفوارق السابقة الواضحة التي تُميّز بين شعراء "الرابطة القلمية"، وشعراء "العصبة الأندلسية"، إلا أن بعض الدارسين يرى جمع الجماعتين

(1) انظر: محمد خفاجي، حركات التجديد، ص83؛ قصة الأدب المهجري، ص147؛ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، ص564. عزيمة مريدن، حركات الشعر، ص261؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص53 و69؛ مارون عبود، مجدّدون ومجترون، ص155-168.

الأدبيتين في إطار واحد، مع الجماعات الخمسة الأخرى، ويسمّي ذلك الإطار باسم مدرسة شعراء المهجر، أو الأدب المهجري، أو الأدب في المهجر، وغيرها من المسمّيات، التي تطلق على ما أبدعه الكتاب العرب المهاجرون إلى دول المهجر، في القارات الأمريكية الثلاثة، من ألون الأدب العربيّ، وصنوفه، وموضوعاته، سواء أكان كتب بالشعر أم بالنثر، ويرى أن هذا الأدب تميّز بميزات عديدة، لوّنت أدب أدباء المهجر بمقادير متفاوتة من أديب إلى أديب، وليس فقط بين أدباء الجماعتين الأدبيتين الأبرز، ويمكن الحديث عن تلك الميّزات في محورين رئيسين، هما:

أولاً: الشكل

ويقصد به القالب التعبيري الذي يصوغ به الأديب أدبه، وهذا يتضمّن ميّزتين هما⁽¹⁾:

1. الدّعوة إلى الخروج على ما سُمّي قيود الأدب العربيّ القديم وأساليبه. وأوزانه، وقوافيه. (ويقصد بالقديم كلّ ما قبل وجود الأدب في المهجر).

رأى المهجريون أنّ اللغة وسيلة نقل الأفكار والمعاني، وليست غاية في ذاتها، ولا يجوز تقييد معاني الحياة الجديدة، بألفاظ وأساليب الحياة القديمة التي لم يعيشها أدباء المهجر، بل يجب التعبير عن الحياة الجديدة بألفاظ الحياة الجديدة نفسها، الحياة المتطوّرة باستمرار. وهذه الميزة ظهرت في شعر شعراء "الرابطة القلمية"، وتكاد تختفي من شعر شعراء "العصبة الأندلسيّة"، واستخدم شعراء المهجر بعامة بعض غرائب الغرب من استعارات، وكنائيات، وخيال، وأساطير.

كما جدّوا في الأوزان الشعريّة، فنظموا على منوال الموشح لكثرة أوزانه، وحرّية تخيّر قوافيه، وكتبوا الشعر المنثور (النثر الشعريّ)، والشعر المرسل، وأكثروا من النظم على الأوزان الصافية، والبحور المجزوءة.

2. الدّعوة إلى اختيار الأسلوب الفني التعبيري الخاص بالأديب.

وجد أدباء مدرسة المهجر أنفسهم في بيئة جديدة من حيث: الطبيعة، والمجتمع، والثقافة وغيرها، وعندما أبدعوا أدبهم، دعا كثيرون منهم إلى خلق أدب يعبر عن حاجاتهم الجديدة بكلّ ما فيها، مع رفض الصلّة الأدبية بحياة المجتمع الذي هاجروا منه، كما ظهر في أدب أعضاء "الرابطة القلمية"، فيما مزج أعضاء

(1) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص69؛ محمد خفاجي، حركات التجديد، ص183، 188-189؛ قصة الأدب المهجري، ص147؛ أحمد قبش، تاريخ الشعر العربيّ، ص355؛ أنور الجندي، الشعر العربيّ المعاصر، ص565.

"العصبية الأندلسية" حاجاتهم الجديدة مع حياة مُجتمعهم الأم في موضوعات أدبهم، وحافظوا على أساليب اللغة القوية في التعبير عن ذلك، إلا أن الفريقين سعيًا إلى إبداع أدب حرّ قويّ يحمل الأفكار والمعاني التي يؤمنون بها، ولم يطلب أي من أعضائه الالتزام بأسلوب محدّد للتعبير عن أفكاره، ومعانيه، وبذلك كان لكلّ أديب من أدباء المهجر طابعه الخاص، الذي تظهر فيه خصائص شخصيته، إذ كلّ أديب كان يسعى إلى أن تعبّر ألفاظ أدبه وأساليبه عن المعنى الذي يريده بدقة، وأن يكون أثر ذلك في نفس القارئ جميلًا، ولذلك يُقال: إن أدب جبران خليل جبران امتاز بالتمرد والثورة على التقاليد كلّها، وأدب فوزي معلوف امتاز بجمال التشابيه، ولطف الخيال، وأدب ميخائيل نعيمة امتاز ببساطة اللغة، والتفكير العاطفي، وأدب رشيد سليم الخوري (القروي) امتاز بدقة الإحساس في موضوع الحنين للوطن، وبالثورة في موضوع الشعر الوطني والقوميّ.

وبذلك يمكن القول إنّ لكلّ أديب من أدباء المهجر أسلوبه الفني الخاص، المُعبّر عن شخصية صاحبه.

ثانيًا: المضمون والمحتوى

ويقصد به الموضوعات والمعاني التي تضمّنها أدب المهجر، فالمهجريون وجدوا أنفسهم في مجتمع جديد، ووطن جديد، ولمّا كانوا آمنوا بأن يكون الأدب معبرًا عن معاني الحياة، فقد جعلوا مضامين أدبهم بعامّة، وشعرهم بخاصّة تمتاز بالآتي:

1- الحنين إلى الوطن

اصطدم أدباء المهجر في مهاجرهم بمجتمع مادي، ووطن جديد لم يألفوه في وطنهم الأم، فشعروا بالاغتراب، وعبروا عنه بالحنين الجارف إلى الوطن، وقد أحسن الشاعر نعمة قازان كلّ الإحسان، في التعبير عن حالة الاغتراب الشاملة التي وجد نفسه فيها – ومثله كثيرون من أدباء المهجر - عندما قال في معلقته "الأرز" (1):

وكنْتُ مع الله في قريتي فصِرتُ بلا الله في غُربتي

وهو بذلك يعبر عن السعادة، والطمأنينة المفقودتين – تقريبًا في المهجر، الذي على الرغم من تحقيقه فيه هدفًا مهمًّا من أهداف هجرته، وهو المال والمجد والشهرة، إلّا أنّه فقد روحه وإيمانه الذي يبيت في نفسه السعادة والطمأنينة، قال:

هَجَرْتُ وَلِلنَّفْسِ أَطْمَأْهُهَا وإِنِّي مع الحظّ في هجرتي

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص80 ؛ محمد خفاجي، قصة الأدب المهجري، ص721-722.

فلا المال أشبعَ من جوعتي ولا المجدَ أطفأ من غلّتي

ومنها:

هي النفسُ تحيا بإحساسها وليس على الحسّ من قدرة

ومنها:

فلا! لا أحبُّ سوى قريتي ولا، لا أريد سوى أمتي

وكانَ رشيد سليم الخوري (القروي)، أكثر شعراء المهجر حنينًا للوطن، وأقواهم في التعبير عن وطنيته وقوميّته، فيكاد وطنه لا يُفارقه، فكلّمًا رأى شيئًا في البرازيل، ظهر له فيه خيال وطنه، قال في قصيدة له بعنوان "أحيانًا"، وقد أظهر لوعة حارقة، ورغبة جارفة في العودة إلى وطنه⁽¹⁾:

أحبّابنا! سكّنت على ال أغصان أصوات البلابل

وأتى الرُّعاة من الجبا ل ولم يعد في الحقل عامل

قوموا نعودُ إلى الحمى عاد الجميعُ إلى المنازل

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82.

وقد صوّر القروي نفسه حبّه للبنان، وفضّله على مهجره، فقال(1):

غرسْتُ بلبنان وردَ الأمل فقلّ للبرازيل أن تُحلا
وجدتُ عليه بدمع المقل فقلّ للأمازون أن يبخلا
وحليتُ قلبي بنبع العسل فقلّ لليالي: أمطري حنظلا

وكان شعراء المهجر، وبخاصة الجنوبي يرون وطنهم سوريا ولبنان معاً، وبعضهم يراه سوريا بمعناها الواسع، فهم يحتّون إليه وطناً كبيراً، ومن ذلك قول الشاعر القرويّ يُحقّر، ويزجر ابن وطنه السوري الذي يذمّ سوريا، ويمدح غيرها(2):

عجباً لسوريّ يُحقّر أرضه والخلق يسجد للتراب السوري

ويقول إيليا أبو ماضي مفاخرًا بسوريا، ومفضلاً أهلها على غيرهم من البشر(3):

الأرض: سوريا، أحبُّ ربوعها عندي، ولبنان أعزُّ جبالها
والناس أكرمهم عليّ عشيرها روحي الفداء لرهطها ولآلها
تشتاق عيني قبل يُغمضها الردى لو أنّها اكتحلت ولو برمالها

وصوّر مدى تعلّقه بوطنه سوريا ولبنان فقال(4):

أنّا في نيويورك بالجسم وبالر وح في الشرق على تلك الهضاب
أنّا في الغوطة زهرٌ وندى أنّا في لبنان نجوى وتصايب

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص85.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص85.

(3) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص86.

(4) محمد خفاجي، حركات التجديد، ص185.

لكنّ ما يمنعه من العودة هو سبب هجرته، إنّه الثروة، وخشية الفقر، فقد أدت حروب روسيا وأوروبا على الدولة العثمانية الإسلامية، والفتن التي أثارها وغدتها بين فئات المجتمع، وما أحدثته من دمار في مصادر الرزق، والحصار التجاري -إلى تدهور اقتصاد الدولة العثمانية، ما كان سبباً رئيساً في الهجرة، قال(1):

أروم إلى رُبى لبنان عوداً فيمنعني عن العود افتقارُ

ولو خيّرتُ لم أهجر بلادي ولكن ليس في العيش اختيارُ

2-التأمل

أي التفكير في الكون، والإنسان وحياته، وما وراء الحياة، وعلاقتها بعضها ببعض، وقد امتاز بهذه الميزة شعر شعراء المهجر الشمالي، فغلبت على شعرهم؛ وذلك في رأيي لكون صدمتهم بمادية الحياة أكبر من صدمة شعراء المهجر الجنوبي، وتأثرهم القويّ بأداب الغرب ومعاييرهِ الفنيّة، ما أدى إلى رفضهم الأدب العربيّ بكلّ ما فيه، فغلب التأمل على شعر: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي، وغيرهم من شعراء الرابطة القلمية، أما شعراء المهجر الجنوبي فكانت صدمتهم الثقافية أقلّ تأثيراً، لمحافظتهم على صلاتهم بأداب العرب وثقافتهم، وتمثلهم لها في شعرهم، لكنّ التأمل ورد في شعر بعضهم، ومنهم: فوزي المعلوف في قصيدته "على بساط الريح"، و "شعلة العذاب"، والشاعر القروي في قصيدة "بين البقر والبشر"، والشاعر إلياس فرحات في قصيدة "بين الطفولة والشباب" وغيرهم.

ومن المهم ملاحظة ثلاثة أمور في موضوع التأمل هي: أنه موجود بكثرة في الأدب العربيّ، وبخاصة عند ذوي النزعات الفلسفية، والمتصوفة، وفي الشعر الدينيّ، فظهر عند أبي العتاهية (ت 826/211)، وأبي العلاء المعريّ (ت 1057/449)، وابن سينا (ت 1035/427)، والإمام أبي حامد الغزالي، محمد بن محمد (ت 1111/505)، والسُّهْرَوْرْدِيّ، يحيى بن حبش (ت 1191/587) وغيرهم. كما أنّه كان لدى شعراء المهجر الشمالي، فصبغ أغلب أدب أدباء المهجر شعراً ونثراً، فيما كان لدى أدباء المهجر الجنوبي يظهر في الشعر أكثر منه في النثر، وانحصر في قصائد بعينها، ثم إنّ تأمل شعراء المهجر الشمالي كان فيه مسّ بالعقائد الدنيّة، وأحياناً فيه كفر بواح، وإذا ما تأملناه بدقة نجد أنّه يخلو من المضمون الفكري السليم،

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر ، ص82.

ويظهر ذلك في المقطوعتين اللتين يتمثل بهما كثير ممّن يدرسون الأدب المهجري، وهما:

قول جبران خليل جبران في قصيدته "المواكب"، وهي تتكوّن من (203) أبيات، ينفي وجود العدل في الغاب، وفي المدينة على حدّ سواء، قال على لسان فتى الغاب (1):

ليس في الغابات عدلٌ	لا، ولا فيها العقاب
فإذا الصّفا فأكفى	ظلمه فوق الثّراب
لا يقول السّرو: هذي	بدعة ضدّ الكتّاب
إنّ عدلّ الثّاس تلجّ	إنّ رأثه الثّمس ذاب

وقول إيليا أبي ماضي في قصيدته "طلاس" متسائلاً، ومُتشكّكاً ومُشكّكاً في خلق الإنسان، وحياته، ومصيره(2):

جئتُ لا أعلم من أي	ن ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّا	مي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً إن	شئتُ هذا أم أبيتُ
كيفَ جئتُ؟ كيفَ أبصر	تُ طريقاً؟ لستُ أدري

أما فوزي معلوف، فيظهر تأمّله في قصيدة "على بساط الريح"، وهو تأمل طبيعي، لا كفر فيه، ولا شك أو تشكيك، قال في نشيد "العبد" منها(3):

أنا عبد الحياة والموت، أمشى مكرهاً من مهودها لقبوره

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص91.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص91.

(3) انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص90.

عبد ما ضمّت الشرائع من جو ر يخطُ القويُّ كلَّ سطورة
 بيراع: دُم الضعيف له جد رٌ ونوحُ المظلوم وقعُ صريره
 أنا في قبضة العبودية العم ياء أعمى مُسيرٌ بغروره
 كلّ ما بي في الكون أعمى ومنقا دٌ على رغمه لأعمى نظيره

3- النزعة الإنسانية

يقصد بها: النظر إلى الحياة نظرة واسعة، النظرة التي تجعل الإنسان أخًا للإنسان، ويسعى إلى إقامة مجتمع يسوده العدل والمساواة والأخوة، ومن أوضح الدلائل على سيادة هذه النزعة في الأدب المهجري، وبخاصة لدى شعراء "الرابطة القلمية"، الإكثار من استخدام عبارتي: يا أخي، يا رفيقي، وهو أسلوب نداء رقيق، يلمس شغاف القلب، فينعكس حنانًا وحبًا كما أنهم دعوا إلى التفاؤل في مواجهة الحياة وصعابها.

وقد دفع عمق الإحساس الإنسانيّ شعراء المهجر إلى تحويل الشعور الإنسانيّ عندهم إلى نقمة على الاستعمار، فدعوا إلى تحرير أوطانهم، وشعوبهم، وكلّ الشعوب الضعيفة المستعمرة، وتمكينها من العيش بحرية، وسعادة، فتقوم بدورها في بناء الحضارة الإنسانية.

ويلاحظ أنّ هذه النزعة سادت بتأثير من مبادئ الرومانسيّة التي لا تواجه الحياة، بل تهرب منها إلى الطبيعة، والمثل غير الموجودة على الأرض، وهو ما دعا إليه الاستعمار، وأشاعه بين الأدباء، فجعلهم يققون موقفًا سلبيًا من قضية التحرّر الوطنيّ، ومكافحة الاستعمار بالقوة، التي بها تمكّن الاستعمار نفسه من استعباد الشعوب الضعيفة، ونهب ثرواتها، وذلك خروج على مهمّة الأديب، ودوره في الحياة، التي ظهرت بوضوح زمن حروب الفرنجة، حيث وصف حال الأمة، ودعاها للتضامن والوحدة، ثم حرّضها على الجهاد، فكانت لها حرّيتها.

ومع شديد الأسف يواصل الاستعمار حتى يومنا هذا (2017/1439) إشاعة هذا الأسلوب الذي يسمّى إنسانيًا لدى بعض مثقفي الأمّة، الذين يجعلون الجهاد ضد الاستعمار إرهابًا، فيما هو يواصل قهر الشعوب واستعبادها، ونهب ثرواتها، باسم القانون الدولي الذي وضعه هو نفسه في الحربين الكونيتين الأولى والثانية، ولا زال يستخدمه لجلد الشعوب، وقهرها، ويحظر على المسلمين (الذين هم في نظره عبيد)

أخذ حريتهم إلا بما يحلّه لهم من وسائل، وهو نفسه لا يستمع إلى تلك الوسائل، ولا يُعبرها أي اهتمام؛ لأنه أساساً لا يرى أنهم أهل للحرية التي يفهمها. فالدول الاستعمارية المسيحية والصين تقهر الشعوب المسلمة، وتحتل أرضها، وتنهب ثرواتها بالقوة المسلحة، وهي تحرمهم من الدفاع عن أنفسهم، وأرضهم، وثرواتهم بالقوة التي لا تساوي شيئاً مقابل قوتهم، وتصفهم بالإرهاب والتطرف، ثم هي تحتلهم اليوم باسم محاربة الإرهاب والتطرف، وتعمل على تنظيم حياتهم وفق ما تشاء، حيث تريد أن يقطعوا علاقتهم بدينهم، ولغتهم، وتراثهم، وحضارتهم.

ومن أمثلة النزعة الإنسانية ما يقوله إيليا أبو ماضي في قصيدة له بعنوان "ابتسم"⁽¹⁾:

قال: السماء كئيبة! وتجهّما قلت: ابتسم، يكفي التجهّم في السّما
قال: الليالي جرّعتني علقما قلت: ابتسم، ولن جرعت العلقما
فعلّ غيرك إن رآك مرثما طرح الكأبة جانباً وترثما

4- حبّ الطبيعة

اندمج شعراء المهجر كلهم تقريباً في الطبيعة، فأحسّوا بها إحساساً عميقاً، فناجوها، واستلهموها وتمثّلوا بها، وحملوها آمالهم وآلامهم، وقد أوحى إليهم بالحنين إلى أوطانهم، ومنّ يطالع نتاج شعراء المهجر يجد الغاب، وما فيه، وقد عبّروا عنه تعبيراً صادقا عن سعادتهم، باعتبار الغاب رمزاً للبساطة والجمال، واهتموا بالخريف وما يحدثه في الطبيعة من قتل وتحطيم باعتباره رمزاً للآمال المحطمة، وطيبة الأمل، واهتموا بالرياح وترانيمها، فناجوها مناجاة الروح المحلقة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في قصيدة "المواكب" لجبران خليل جبران، حيث يأتي فتى من الغابة، يعزف ألحاناً جميلة، فيلتقي شيخاً خارجاً من المدينة، وقد أثقلته همومها ومشاكلها، فيسأل الفتى الشيخ، مفضلاً حياته على حياة الشيخ، قال⁽²⁾:

هل تخذت الغاب مثلي من زلّ دون القصــــــــــــــــور
فتتبعــــــــــــــــت الســــــــــــــــواق وتســــــــــــــــقت الصــــــــــــــــخور

(1) إيليا أبو ماضي، ابتسم: ديوانه ، ص655.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص99.

هل جلستَ العَصْرَ مثلي بينَ جفَنَاتِ العَنَبِ
والعناقِي دُ تَدَلَّتْ كَثْرَيَاتِ الذَّهَبِ
هل فرشتَ العشبَ ليلاً وتلَحَّفتَ الفَضَا
زاهداً فيمَا سِيأتي ناسياً مَا قد مضى
وفي قصيدة "النهر المتجمد" يبتّ ميخائيل نعيمة النهر همومه، ثم يختتمها بالتفاؤل، الذي جعله يقول⁽¹⁾:
سَقَفُ بَيْتِي حديد ركنُ بَيْتِي حَجَرُ
فأعصف في يَارِياح وانتحبُ يَاشَجَرُ
واقصف في يَارَعُود لستُ أخشى خَطَرُ

5- بساطة التعبير

أمن شعراء المهجر، وبخاصة الشمالي أن الشعر فنّ الحياة من دون تكلف أو تقليد؛ فتخلّوا عمّا أسموه قيود القديم، وأسلوبه الفني؛ لذلك نظموا شعرهم بألفاظ بسيطة، وعبارات واضحة، وموسيقى عذبة غنائية، مهما كان الموضوع الشعريّ الذين ينظمون فيه؛ لذلك انتشر شعرهم بسرعة في المهجر والوطن العربيّ، ثم أخذ كثيرون من شعراء الوطن يسيرون على خطى شعراء المهجر، وقد ظهرت بساطة التعبير، والتحرّر في الأسلوب، والتنوّع في الموضوعات كثيراً لدى: جبران خليل جبران (وعلى الرغم من أنّه ليس لجبران من الشعر الموزون إلّا قصيدة " المواكب"، إلّا أنّ كثيراً من الدارسين يجعلونه في كل قضية شعرية يتحدّثون عنها)⁽²⁾، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة أكثر من غيرهم.

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص101.

(2) انظر: أنطوان القوال، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص249، حيث قال إنها العمل الوحيد الذي تقيد فيه بالوزن والقافية. ؛ وفي: مارون عبود، مجددون ومجترون، ص163 "إن جبران شاعر في منشوره لا في منظومه، أراد أن يُفلسف نظماً فقال أشياء هي أفكار أكثر منها

ومثال بساطة التعبير، وعذوبة الموسيقى قصيدة "موكب الفؤاد" لنسيب عريضة، التي تحدّث فيها عن حيرة قلبه، ومنها⁽¹⁾:

قلبي بلا شـراع يطـوفُ في البحـار
قد قارب التداعي من كثرة الأسفار
سـفينة حـقيرة ليس لها ربّان
في ظلمات الحيرة منارها الإيمـان
طاف البحارَ يـرجو جزائر الخـود
لعـلّه أن ينجـو من لـجّة الوجـود

وقصيدة "طمأنينة" لميخائيل نعيمة، ومنها قوله⁽²⁾:

باب قلبي حصينٌ من صنوف الكـدر
فأهجمي يا همومٌ في المسا والسحر
وانزلي بالآلوف يا خطوبَ البشـر

6. الدّعوة إلى الإلحاد، والخروج على رجال الدّين

دعا عدد غير قليل من أدباء المهجر، وبخاصة أعضاء "الرابطة القلمية" إلى عدم التسليم الأعمى بما يقوله رجال الدّين المسيحي في شروحهم للكتب الدينية وتفسيراتهم لها، وذلك بتأثير من الحياة الأمريكية (الولايات المتحدة) التي عاشوها حيث شعروا بحرية عامة، وانعدام الرقابة لرجال الدّين، فالحرية المبتوثة في شعرهم هي نتاج حرية الإنسان العامة، والإنسان المصلح لمجتمعه كما يقولون، وبعضهم

موسيقى". ثم يذكر أنّه تحوّل إلى الكتابة بلسان الدولار والشلين ، ولم يعد يكتب بالعريّة بحثاً عنهما.

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص107.

(2) عيسى الناعوري ، أدب المهجر، ص111.

اعتبر ما يقوله بعض رجال الدين ليس أكثر من شعوزات يحشونها في أذهان العامة، فشئوا حملات عنيفة عليهم، ومن هؤلاء: جبران خليل جبران، وأمين الريحاني، وميخائيل نعيمة، حتى اتهم جبران والريحاني بالإلحاد، فأحرقت الكنيسة الكاثوليكية في بيروت أحد كتب جبران، كما وضعت كتبه وكتب أمين الريحاني في القائمة السوداء، التي يُحرم على الكاثوليك قراءتها؛ لمخالفتها تعاليم رجال الدين الكاثوليك وتفسيراتهم للإنجيل. وقد ذكر مارون عبود أنّ جبران كان يعتقد أنّ الكتاب هم قادة الإنسانية، ووصل الأمر به إلى الاعتقاد بأنه قريب من النبوة: "ثم تضخمت هذه الفكرة في رأس جبران فخال أنّه فرخ نبي" (1).

وتبع جبران والريحاني الأديب ميخائيل نعيمة، فكرّر معانيهما في كتبه وشعره، وأحياناً كان أشدّ منهما في حملاته على رجال الدين حتى إنه دعا إلى ما أسماه تحرير الفكر من عبودية المذاهب، وإلى الارتفاع في الدين، فوق الطائفية والمذاهب، وأن الإنسانية وحدة واحدة لا مذاهب فيها ولا طوائف؛ فهي خرجت كلّها من مذهب واحد، وتسير نحو مصب واحد. وقد غلب على المهجريين بعمامة، وأعضاء الرابطة بخاصة معالجة القضايا الدينية، وجنحوا في أدبهم "إلى إحياء مذاهب هرمة شائخة، قوامها وحدة الوجود، فقعدوا يجترّون ما عند القائلين بها من آراء، ويُظفون الأكفان الصوفية، ويكوونها لنا؛ فالدودة أخت لنا، والغراب ابن عمنا... أمّا عملياً فنصلي الوروار ناراً حامية إذا حام على خلية نحلنا، ونقتل البقرة، والعنزة، والحمارة إذا اغتالت ورقة من اغصان جنينتنا ... أمّا الحصاة الكبرى (من موضوعات أدب المهجر) فكانت لرجال الدين، كانت الثورة عليهم في كل مكان، وعلى أسلوب واحد... حتى جعلوهم مصدر شقاء البشر" (2).

وهذه في رأيي دعوة في ظاهرها سليمة، لكنّ جوهرها يقود إلى الخروج على الأديان كلّها، فيما الله، سبحانه، الذي خلق الإنسان أرسل الرّسل لتبليغ الإنسان الذين القويم، وهدايته إلى طريقه المستقيم، الذي يؤدي به إلى ما فيه خيره في الدنيا والآخرة، ثم ختم الرّسل بمحمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم، ورسالته الإسلام الذي جعله خاتم الديانات، فقال: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (3)، وقال: (وَمَنْ بَتَّغَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (4). والإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله،

(1) مارون عبود، مجدّون ومجتزون، ص159.

(2) مارون عبود، مجدّون ومجتزون، ص158.

(3) آل عمران، 19/3.

(4) آل عمران، 85/3.

سبحانه، للأمة، فقال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)⁽¹⁾.

وقد عبّر جبران خليل جبران عن رأيه في الدّين في قصيدته "المواكب" إذ قال⁽²⁾:

والدّين في النّاس حقٌّ ليس يزرعه غيرُ الأولي لهم في زرعه وطره
من أمل بنعيم الخلد مُبشّر ومن جهول يخاف النّار تستعر
كأنما الدّين ضربٌ من متاجرهم إن واطبوا ربّحوا أو أهملوا خسروا
ليس في الغابات دينٌ لا ولا الكفر القبرُ القبيح
فإذا البابُ غلّ غلّى لم يقل: هذا صحيح
إنّ دينَ النّاس يأتِي مثل ظلّ ظلّ وريح
لم يَقم في الأرض دينٌ بعد طهه والمسيح

أما شعراء "العصبة الأندلسيّة" في المهجر الجنوبي، فقد هاجموا الدّين من خلال استبدالهم إياه بدين جديد هو العروبة، وهو الدّين الذي نشره الاستعمار الأوروبي والروسي القيصري؛ وغرّروا بالعرب المسلمين من خلال الدّعوة إلى الأخوة في العروبة، واللسان والموطن، ومجدّوا الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، لأنّه مفخرة للأمة التي نشأوا فيها، ورأوا أنّ الدّين لا يجوز أن يُفرّق بينهم ما دامت تلك الرّوابط تربطهم، ولذلك رأيناهم يشاركون في بعض الاحتفالات الدينيّة الإسلاميّة، وبخاصة المولد النبويّ، وعيد الفطر، والأضحى، وغير ذلك من أعياد باعتبارها أعياداً عربيّة، كما دعوا إلى ما أسموه التسامح الدّيني والأخوة الوطنيّة، وذلك كله لتسهيل ولوجهم إلى عقول، وقلوب كثير من أبناء الأمة.

(1) المائدة، 3/5.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص116.

ومن ذلك قول الشاعر القروي في عيد الفطر⁽¹⁾:

أكرم هذا العيدَ تكريمَ شاعرٍ يتيه بأياتِ النَّبيِّ المعظمِ

ولكنني أصبو إلى عيدِ أُمَّةٍ محررة الأعناق من رقِّ أعجمي

إلى علمٍ من نسج عيسى وأحمد وأمنة في ظله أخت مريم

فهو يدعو بجرأة إلى الثورة على الدولة العثمانية الإسلامية، والخروج عليها فيما الحرب كما كانت تُشن عليها باسم المسيحية.

ثم يدعو إلى الكفر الصريح فيقول:

سلامٌ على كُفرِ يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

فمن من المسلمين يسعى إلى جهنم، فليذهب وراء القروي، ويعتنق دينه القومي، الذي يعيش في ظله العرب منذ أكثر من مائة سنة في جهنم الدنيا تحت حكم الاستعمار الأوروبي، والروسي المسيحي، وذلك منذ سمعوا صيحات القومية من القروي وغيره، وما زالوا يعيشونها منذ سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية.

وسار على خطى القروي الشاعر إلياس فرحات في مهاجمة الدين بعامة، والإسلام بخاصة من خلال ترجيح دين القومية، ومن ذلك قوله⁽²⁾:

ما خطط الدينُ التُّخومَ لأُمَّةٍ إلا وقد نخر الفسادُ عظامها

فهو يرى أن الدين يُفسد أُمَّة العرب، وكل أمة متدنية، وهذا ما لا يعتقده الغرب المسيحي، الذي يُعامل المسلمين على أساس الدين، والحقيقة هي أن الرابطة الدينية هي المحرك الرئيس للشعوب، وهذا ما زال كثير من زعماء العرب ومن يُسمون أنفسهم قادة الفكر في الوطن العربي يرفضون الاعتراف به. وقال⁽³⁾:

فلو أوصى بكره العرب دينٌ لكننتُ إذن إمامَ الملحدينا

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص120.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص121.

(3) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص121.

والحقيقة التي تغيب عن القوميين هي أن الله، سبحانه وتعالى، كرّم العرب أفضل تكريم من خلال اختياره آخر الأنبياء، وخاتمهم منهم، وجعله لغتهم لغة القرآن الكريم، الذي هو رسالة هدى للبشرية كلها حتى يوم القيامة، وهي – أيضاً- لغة أهل الجنة. وبذلك على دعاة القومية الكفر باليهودية والمسيحية، والإيمان بالإسلام.

وقال في قصيدة يعثف فيها أهل لبنان؛ لوقوفهم إلى جانب فرنسا ضد الثورة السورية الكبرى سنة (1925/1344-1927/1346)، وأغلبهم كانوا من النصاري المرتبطين كلياً بفرنسا، التي أصلاً سلخت لهم هذا الجزء من سوريا وسمّته لبنان، قال (1):

أبناءً يعرب إخوانٌ إذا قعدوا للحادثاتِ، وإخوانٌ إذا قاموا
إخوانكم وذوكم ليس يفصلهم عنكم لدى غير الأيامِ إسلامُ
إن كانَ يأمُرُ دينٌ بالعداءِ لهم فالكفرُ بالدينِ للديانِ إعظامُ

وعندما استقلت سوريا، وأعلنت في دستورها سنة (1950/1370) أن دين الدولة هو الإسلام، ضج شعراء المهجر، وطالبوا بصراحة بمبدأ لا زال يردده حتى اليوم (2017/1439) كثير من زعماء العرب والمسلمين الذين يحكمون شعوبهم لصالح الاستعمار المسيحي، حتى بدأوا يبطلون – بدعم أسيادهم- أحكام الإسلام واحداً تلو الآخر، وليس أدلّ على ذلك من دعوة رئيس تونس "الباجي قائد السبي" إلى إلغاء أحكام الميراث، الوارد فيها نصوص قرآنية لا لبس فيها، والمساواة بين المرأة والرجل فيها، وإلى إلغاء أحكام الزواج، الوارد –أيضاً- فيها نصوص قرآنية واضحة وصريحة، والسماح للمسلمة بالزواج من أهل الذمة والكفار – ذلك المبدأ شعاره: الدين لله والوطن للجميع، وهو شعار وضعه الاستعمار المسيحي.

نسي أولئك المهجريون، وتلاميذهم في الوطن العربي والإسلامي اليوم أن هذا المبدأ حتى في بلاد أسيادهم لا يُطبّق، فأوروبا وروسيا وأمريكا يريدون إسلاماً جديداً، تُفصله على مزاجها، وهواها؛ إسلاماً يلغي الإسلام الذي ارتضاه الله لأمة الإسلام بعامّة، والعرب منهم بخاصّة.

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص121.

ومن ذلك قصيدة "دين الدولة في دستور سوريا" للشاعر جورج صيدح،
ومنها، قوله⁽¹⁾:

تُحاسِبُنِي دَمَشْقُ عَلَى ضَمِيرِي	فِيالَيْتَ الْحَسَابَ عَلَى الْأَيْدِي
وَتَحْسِبُنِي دَخِيلًا فِي حِمَاهَا	كَأَنَّ الضَّادَ فِيهَا غَيْرَ ضَادِي
ذَرِينِي يَا دَمَشْقُ أَعْدُّ لِحَدِي	بِأَرْضِ الْمُلْحِدِينَ مِنَ الْعِبَادِ
فَدِينِي غَيْرَ دِينِكَ لَمْ يَفِرَّقْ	وَلِيدًا عَنْ وَلِيدٍ فِي الْمَهَادِ
وَلَمْ يَشْرِكْ بِحَبِّكَ أَعْجَمِيًّا	وَيَنْبِذُ نَسْلَ غَسَّانَ وَعَادِ
ذَرِينِي أَعْبُدِ الْوَطَنَ الْمَفْدَى	عَلَى شَرَعِ التَّضَامَنِ وَالتَّفَادِي
خَيَالًا صُورَةَ الْفِيحَاءِ فِيهِ	وَالْوَانَ الْحَوَاضِرَ وَالْبُؤَادِي
أَحَدَقَ لَا أَرَى فِيهِ جَرَأًا	يُضَمِّدُهَا الْأَسَاءَةُ عَلَى فُسَادِ
وَلَا أَثَرَ الصَّلِيبِ عَلَى يَدِيهِ	وَلَا أَثَرَ الْهَلَالِ عَلَيْهِ بَادِ
ذَرِينِي أَبْعَثِ الذِّكْرَى نَذِيرًا	لِشُعْبٍ مِنْ خَلَائِقِهِ التَّمَادِي
بَنَى أَرْكَانَ عِزَّتِهِ اتِّحَادًا	وَيَأْبَى أَنْ يَعِيشَ عَلَى اتِّحَادِ
وَمَا اسْتَسْلَمَهُ لِلدِّينِ إِلَّا	كَتَسَلَّمَ السَّلَاحَ إِلَى الْأَعَادِي
إِذَا نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَوَادِ	أَيَعْصِمُهُ الْكِتَابُ مِنَ الْعَوَادِي؟
دَعُوا سَنَ الشَّرَائِعِ وَالْفَتَاوِي	وَسَلُّوْهَا سِيُوقًا لِلْجَلَادِ
أَقْلُ الدِّينِ فَقَّةً وَاجْتِهَادًا	وَأَكْثَرُهُ اسْتِثْنَاءً لِلْجَهَادِ

(1) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص122.

7- الوصف والتصوير

الوصف عند ابن رشيق القيرواني هو أصل موضوعات الشعر كلها، فلا يوجد موضوع شعريّ من دون وصف، وقد أجاد كثير من شعراء العربيّة منذ العصر الجاهلي، وحتى اليوم (2017/1439) في وصف ما يعجبهم، ويثير إحساسهم، وبتّ بعضهم فيما وصفوه الحياة، وناجوه مناجاة النّساك للباري، سبحانه وتعالى، والعاشقين، والمتصوّفة، وغيرهم.

وعلى الرّغم من ذلك رأى بعض الدّارسين _ من غير دليل _ أنّ هذه ميزة اختصّ بها الأدب المهجريّ؛ شعراً ونثراً، باعتبار أنّه " قدّم منها ألواناً عجاباً في مختلف صور الحياة، ونوازع النّفس البشرية، والفكر الإنسانيّ"⁽¹⁾. ومن ذلك قول ميخائيل نعيمة في مقالة بعنوان " الصّخور"، في كتابه "البيادر": " ومن صخور السّفوح ما عدّ به صيّئ الطّرق التي يسلكها حبيبه البحر عند عودته من زيارته العديدة له، فما إخالكم تجهلون ما بين صيّئ والبحر من محبة لا تُضاهيها محبة قطّ، ففي الصيف ما ينفك البحر يغمر بأنفاسه وجه صيّئ: فأنا سحاب، وأونة ضباب، وأنا ندى، ما أظنّ جنة عدن عرفت ألطف أو أخفّ منه. أمّا في الخريف، وقد راح صيّئ يستعدّ لغفوة الشتاء، فيصعد إليه البحر مراراً، ويغسله من أم رأسه حتى أخمضيه كأنّه العروس تُعدّ للزّفاف. ويأتي الشتاء، فيطير البحر إلى صيّئ، ليغفو وإياه غفوتها الطويلة البيضاء. ويجيء الربيع، فيستفيق العروسان، ويعود أحدهما إلى شواطئه في الطريق التي رصفها له الآخر بفلذات من كبده"⁽²⁾.

وقول جورج صيدح في وصف ناطحات السحاب في نيويورك: (3)

كوىّ تُطلّ على الأكوان أعينها وأذنها تستقي أخبار باريها

أنوارها تكشف الأفاق معلنة عن سلعة ربما الأملاك تشربها!

وقول إلياس فرحات في وصف "الراهبة" (4)

أطلت من الدبر عند الضّحى وفي ناظريها بريق الأسى

(1) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص124.

(2) ميخائيل نعيمة، الصّخور: البيادر، ص206.

(3) عيسى الناعوري، ادب المهجر، ص129.

(4) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص129.

فتاة كانَ الإلهَ براها ليجعلها فتنةً للّهي
ولكنّها في صباح الحياة عرا وجنتيّها شحوبُ المسا
رماها الزّمانُ بهجر الحبيب فداوت ضلالَ الهوى بالهدى
تصلّى فتحسبها دميّة من العاج ساجدةً للدمى
وتلثم تلك الدّمى بخشوع فيوشكن يلثمها من جوى

8. ظهور ما سمي "الشعر المهموس" في بعض شعر شعراء المهجر رأى بعض دراسي الأدب العربي في المهجر أنّ أكثر شعر شعراء المهجر كان مناجاة للحياة، وتصويرًا صادقًا لكل ما فيها، وأنّ هذا التصوير كان بعبارات شعرية رقيقة. وقد سمّى محمد مندور هذا الشعر "الشعر المهموس"؛ إذ رأى أنّ الشاعر القوي "هو الذي يهمس فتحسّ صوته خارجًا من أعماق نفسه في نغمات حارة"(1).

9. كثرت في شعرهم الرحلات الخيالية إلى السماء والعالم الآخر تأثرًا بالمعري في "رسالة الغفران"، وابن شهيد الأندلسي في "التوابع والزوابع"، وعباس العقاد في "ترجمة الشيطان"، وجميل صدقي الزهاوي في "ثورة الجحيم" وغيرهم، فنظم فوزي المعلوف ملحمة "على بساط الريح"، وشفيق المعلوف ملحمة "عبقر".

(1) محمد مندور، في الميزان الجديد، ص48.

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا الكتاب، أمكنني الوصول إلى النتائج، والتوصيات الآتية:

أولًا: النتائج

توصلت في هذا الكتاب إلى نتائج عديدة أهمها:

- 1- أن حملة نابليون على مصر لم تكن أبدًا بداية للنهضة العربية لا في الأدب ولا في غيره، بل هي محاولة ثانية لاستئناف الحروب الصليبية، والشار لهزيمة ملك فرنسا "لويس التاسع" في معركة المنصورة سنة (1250/648)، على يد الدولة الأيوبية الإسلامية. فكانت الحملة بداية الغزو العسكري، والثقافي المستمر حتى يومنا هذا (2018/1439)، والهادف إلى تحقيق ما ورد في خطاب "صموئيل زويمر" في مؤتمر المبشرين الذي عقد بالقدس الشريف سنة (1935/1354). وقد سار الأدب العربي بعدها في طريق التغريب شوطًا كبيرًا.
- 2- حركات التغريب، التي سُميت بـ "المدارس أو المذاهب" ظهرت في مصر في المركز الأول لما لها من دور في الوطن العربي، وفي المهجر، وتسرب بعضها؛ جزئيًا أو كليًا إلى هذا القطر العربي أو ذاك، ولم تنتشر في الأقطار العربية كلها، وعليه لا يجوز، ولا يصح أن ندرس الأدب العربي الحديث من خلال تلك الحركات مهما كانت مُسمياتها، وليس أدلّ على ذلك من النظر في قائمة الشعراء الذين قيل إنهم انتسبوا لتلك الحركات، وقائمة الشعراء في مصر وغيرها من الأقطار العربية، فالفرق شاسع بين القائمتين.
- 3- إن حركات التغريب، وعلى الرغم من الدعم الذي تلقته في حينه من وسائل الإعلام، ومن الاستعماريين البريطانيين والفرنسيين، وعلى الرغم من الدراسات التي حظيت بها تلك الحركات، وما تزال من قبل مؤيديها إلا أنها لم تُعمر طويلاً، فأطولها عمرًا عاش عقودًا معدودة، ثم توقف فجأة عن الحياة، ولم يعد شيئًا مذكورًا.
- 4- سعت حركات التغريب باسم الحداثة والتجديد إلى إفساد عقول الناشئة، وتزهيدهم في الثقافة، والحضارة، والتراث العربي الإسلامي، وعملت على الحط من قيمة العرب والمسلمين، ورفع قيمة الأمم الغربية، والمسيحية، حتى

قال المستشرق الفرنسي شارل بيللا (ت1413/1992): إن الأدب العربي أدب غربي مكتوب بحروف عربيّة، وهو غربيّ مع ما فيه من فكر هابط.

5- الأدب الذي أنتجه أغلب الأدباء الذين انتموا لحركات التغريب، لا يُمثل حياة العرب والمسلمين، ولا ثقافتهم، ولا حضارتهم، ولذلك أسهم في تغريب كثير من الناشئة. وعلى الرغم من بدء تراجع دور ذلك الأدب منذ عقدين ونيف إلّا أنّ دوره ما زال قائماً بفعل دعائه الذين تشرّبوه-بسبب المناصب المهمة التي يشغلونها في أنظمة الحكم بعامة، والتربية والتعليم بخاصّة-ويرفضون إعادة قراءة النتاج الأدبي العربيّ في العصور التي وُصفت بالانحطاط والتخلف من غير وجه حقّ.

6- أصيب دُعاة التغريب في مضامين الشّعَر العربيّ، ومَن تبعهم، بانفصام معرفي عن الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وذلك من خلال اعتمادهم الإبهام والغموض، والأساطير، والرّموز، والشخصيات والحوادث التاريخيّة غير العربيّة الإسلاميّة، فاضطرّ كثيرون منهم إلى شرح مُبهماتهم، ورموزهم، وأساطيرهم لعلّهم يقتربون من القراء، أمّا استخدامهم الكلمات الأجنبية فكان دليل انهزامهم الثقافيّ لا دليل تقدّم وتحضّر، وقد صدق فيهم قول ابن خلدون "والمغلوب أبداً مولعٌ بتقليد الغالب". وأمّا استخدامهم العاميّة، فأوقعهم في غموض وإبهام ما بين منطقة جغرافيّة وأخرى في القطر العربيّ الواحد، وأكثر من ذلك بكثير بين الأقطار العربيّة.

7- استطاع الشعر العربيّ الأصيل أن يواصل جريانه، وتجاوز الصُّخور التي أُلقيت في مجراه التاريخيّ من دون أن يوقف ذلك المجرى أو يُحوّله، وسرعان ما اختفت تلك الصُّخور، أو أُلقيت إلى حيث أتت في بحار الغرب. وقد ظهر ذلك بعودة أغلب كبار الشعراء إلى الشّعَر الموزون، وإلى النُظم في الأغراض الشّعريّة التي كانوا اعتبروها تقليديّة ومتخلّفة؛ ذلك أن أغراض القول الإنسانيّة واحدة منذ وُجد آدم، عليه السلام، وإلى أن يرث الله، سبحانه وتعالى، الأرض وما عليها، لا جديد فيها إلّا المخترعات الحديثة.

8- لا صحّة البتّة في الأوصاف التي ألصقت بالأدب العربيّ طوال قرون عديدة من: جمود، وركاكة، وجدب فكريّ، وتلاعب بالألفاظ، وسيطرة البديع، والتفوق في أغراض ذاتية. ولا صحّة في الأوصاف التي ألصقت بالعصور التي مرّ فيها الأدب من مثل: عصور الجذب الثقافيّ، والتخلف السياسيّ، وانعدام الحرية.

9- سيطر على أنصار التغريب (التجديد)، ودعائه آراء غريبة في القديم والحديث، من دون النظر إلى حقيقة القديم والحديث؛ فالقديم عندهم سخي، لا أحد يستخدم ألفاظه؛ لأنّ الدهر أكل عليها وشرب. والألفاظ ذاتها يُصبح المعنى فيها جميلاً وحديثاً، وثائراً على التّفوّع إذا ما استخدمها شاعر مُستَغرب، فيما التّقدم عندهم يعني الخروج من إطار الحضارة العربيّة الإسلاميّة، والولوج إلى الحضارة الغربيّة المسيحيّة، وغيرها حتى لو كانت أسخف الحضارات، فالمهم هو الانسلاخ عن الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

10- الأغراض الشعريّة التي ادّعوا أنّها جديدة، وروّجوا لها، ودعوا إليها، هي كلّها موجودة في مجرى الشعر العربيّ الأصيل، إلّا المخترعات الحديثة، والدّعوة إلى الذاتية، والحزن، والانغماس في وصف الطبيعة زمن الاحتلال الاستعماريّ للدول العربيّة، حيث كانت هذه الدّعوة خدمة مجانيّة للاحتلال، وانحرافاً عن الواجب الذي كان على الشاعر أن يقوم به في زمن العدوان على الأمة واغتصابها، وذلك كما فعل شعراء العربيّة في زمن المواجهة مع الفرنجة(الصلبيين)، والمغول، حيث استنهضوا الأمّة، وحثّوها على المواجهة، ثمّ حرّضوها على الجهاد، فكان لهم الخلود، وللأمّة النّصر، لكن مع الأسف أسقط المستشرقون وتلاميذهم هذه الحقبة من مناهج التعليم المدرسيّ، والجامعيّ في أغلب البلاد العربيّة والإسلاميّة، وذلك بهدف تمكين الاستعمار من الأمّة وثقافتها، وتاريخها.

ثانياً- التوصية

أهم ما أوصي به هو: ضرورة إعادة قراءة المصادر الأدبيّة، والتاريخيّة، والثقافيّة العربيّة الإسلاميّة من أجل إعادة كتابة أدبنا، وتاريخنا، وثقافتنا وفهمها.

والتوقف عن اجترار أقوال المستشرقين وتلاميذهم. وهذا يتطلب من جامعاتنا وحكوماتنا الإنفاق اللازم على البحث العلميّ، وتشجيعه، والتوقف عن إيجاد عمادات للبحث العلميّ في الجامعات، أو وزارات في الحكومات من دون موازنات كافية، أو بانتظار هبات من هذه الدولة أو تلك، فتلك الدّول لن تدعم بحثاً علمياً لا يخدمها، ويؤدّي إلى نهوض الأمّة، واستقلالها، وتفوّقها، فيقود إلى وحدتها التي تُرهب الأعداء، بل هم يدعمون الأدب الذي يُغذّي الإقليميّة، والطائفية، وكل ما فيه خروج على قيم الأمّة ومعتقداتها، والحفاظ عليها مُتفرّقة، ومُتناحرة، ومُتخلّفة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر

- 1- إبراهيم، حافظ، ديوانه، ضبط وتصحيح وشرح وترتيب أحمد أمين وزميله، ط3، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.
- 2- أيوب، رشيد، ديوان الأيوبيات، مدونة لسان العرب، 1916.

<http://Lisaanularab.blogspot.com>

- 3- البارودي باشا، محمود سامي، ديوانه، تحقيق وضبط وشرح علي الجارم وزميله، بيروت: دار العودة، 1998.
- 4- جبران، خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران: نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوّال، ط1، بيروت: دار الجيل، 1994/1414.
- 5- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت1241هـ)،

أ. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين، القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت. (صفحات من تاريخ مصر، 4/37).

ب. مظهر التّقدّيس بزوال دول الفرنسيّس، اختصار وتعليق وفهرسة موضوعيّة محمد بن حسن الشريف، مراجعة وتقديم عبد الستار سعيد، ط1، جدّة: دار الأندلس الخضراء، 1999/1419.

- 6- الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط4، بيروت: دار النهار للنشر، 1991. (ذكريات:11).

- 7- الخفاجي، أحمد بن محمد، شهاب الدّين (ت1069هـ)،

أ. ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدّنيا، تحقيق محمد عبد الفتاح الحلو، ط1، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، 1967/1386.

ب- شفاء الغليل فيما في اللغة العربيّة من الدّخيل، تقديم، وتصحيح، وتوثيق، وشرح محمد كشّاش، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998/1418.

8- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808هـ)، المقدّمة، تحقيق وتقديم وتعليق عبد السلام الشّدادى، ط1 [طبعة خاصة في خمسة مجلدات]، الدار البيضاء: خزّانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005.

9- ابن خلّكان، أحمد بن محمد (ت681هـ)، وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968-1977.

10- الخورى، رشيد سليم، الأعاصير، مطبعة مجلة الشرق، دت.

11- الريحاني، أمين، الريحانيّات، القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

12- ابن سلّام الجمحي، محمد بن سلام (ت232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، جدّة: دار المدني، 1974.

13- ابن سناء الملك، هبة بن جعفر (ت606هـ)، دار الطّراز في عمل الموشّحات، تحقيق ونشر جودة الرّكابي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1949 /1368.

14- السّهرورديّ، يحيى بن حبش (ت587هـ)، ديوانه، دراسة وتحقيق مشهور الحبازي، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1437هـ.

15- أبو شادي، أحمد زكي، الأعمال الشعريّة الكاملة، بيروت: دار العودة، 2005.

16- شكري، عبد الرحمن، ديوانه، جمع وتحقيق نقولا يوسف، وشارك في الجمع محمد رجب البيومي، مراجعة وتقديم فاروق شوشة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

17- شوقي، أحمد،

أ. أسواق الذهب، مصر: مطبعة الهلال، 1932.

ب. دول العرب وعظماء الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، 1970.

- ج. الشوقيات، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت. (أربعة أجزاء).
- 18- شيخو، لويس، الآداب العربيّة في الرّبع الأوّل من القرن العشرين، الجزء الأوّل 1800-1870م، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1910.
- 19- طوقان، إبراهيم، الأعمال الشعريّة الكاملة، ط2، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993.
- 20- طه، علي محمود، ديوانه، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.
- 21- العقاد، عباس محمود، هدية الكروان، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.
- 22- ابن العماد الحنبليّ، عبد الحيّ (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار الآفاق الجديدة، د.ت.، (ذخائر التراث العربيّ).
- 23- القزويني، محمد (ت1335هـ)، طروس الإنشاء وسطور الإملاء: الأدب العراقي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تحقيق جودت القزويني، ط1، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، 1998/1418.
- 24- أبو ماضي، إيليا،
أ. ديوانه، بيروت: دار العودة، د.ت.
ب. من أعمال الشاعر إيليا أبو ماضي: الجداول، الخمائل، تبر وتراب، بيروت: دار كاتب وكاتب، 1988.
- 25- المحبّي، محمد أمين بن فضل الله (ت1111هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة: المطبعة الوهبيّة، 1284هـ.
- 26- المرصفي، حسين، الوسيلة الأدبيّة إلى العلوم العربيّة، تحقيق وتقديم عبد العزيز الدسوقي، القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1982.
- 27- مطران، خليل، ديوان خليل، القاهرة: طبع دار الهلال، نشر دار المعارف، ط2، 1949.

- 28- ابن معصوم، علي بن أحمد (ت1119هـ)، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، ط2، الدوحة: مطابع علي بن علي، 1382هـ.
- 29- ابن المعمار البغدادي، محمد (ت 642هـ)، الفتوة، تحقيق ونشر مصطفى جواد وزملائه، تقديم مصطفى جواد، ط1، بغداد: مكتبة المثنى، 1958.
- 30- المقرئزي، أحمد بن علي (ت 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم وزميلته، مراجعة أحمد زيادة، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998، (صفحات من تاريخ مصر: 3/39).
- 31- الملائكة، نازك، الديوان، بيروت: دار العودة، 1997. مجلدان.
- 32- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، 1388/1995.
- 33- ابن منير الطرابلسي، أحمد (ت548هـ)، شعره، جمعه، وحققه، وقدم له سعود عبد الجابر، ط1، الكويت: دار القلم، 1402/1982.
- 34- الموسوعة العربية العالمية، ط2، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1419/1999.
- 35- الموسوعة العربية الميسرة، طبعة جديدة، بيروت، القاهرة، تونس: دار الجبل، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، 2003-2004.
- 36- نعيمة، ميخائيل،
أ-الغربال، ط15، بيروت: نوفل، 1991.
ب-البيادر، ط12، بيروت: نوفل، 1996.
ت-همس الجفون، ط6، بيروت: نوفل، 1996.
- 37- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626هـ)، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، د. ت.

ثانيًا: المراجع

- 1- الأثري، محمد بهجة، أعلام العراق: كتاب تاريخي أدبي انتقادي يتضمن سيرة الإمام الألوسي الكبير، وتأبين العلماء والأدباء وتراجم نوابغ الألوسيين، القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبة الحصري، 1345هـ.
- 2- الأحمد، نجيب، فلسطين: تاريخاً ونضالاً، ط2 (مزيدة ومنقحة)، عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 2004.
- 3- إسماعيل، عزّ الدين، الشعر العربي المعاصر: قضايا وظواهره الفنيّة والمعنوية، بيروت: دار الثقافة، د.ت.
- 4- الباقر، محمد وزملاؤه، البعثة العلمية إلى دار الخلافة الإسلاميّة، بيروت: المطبعة العلمية، 1334/1916.
- 5- الجندي، أنور، صفحات مجهولة من الأدب العربيّ المعاصر، ط1، القاهرة: المكتبة الأنجلو المصريّة، 1979.
- 6- جوهريّة، واصف، القدس الانتدابية في المذكرات الجوهريّة: الكتاب الثاني في مذكرات الموسيقي واصف جوهريّة 1918-1948، تحرير وتقديم عصام نصّار وسليم تمّاري، القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2005.
- 7- الحاوي، إيليا، خليل مطران طليعة الشعراء المحدثين، ط2، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1981.
- 8- حثي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وزميله، أشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور، بيروت: دار الثقافة، د.ت.
- 9- حسّون، علي، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط3، بيروت: المكتب الإسلامي، 1415/1994.
- 10- حسين، محمد محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر؛ الجزء الأول: من الثورة العربية إلى قيام الحرب العالمية الأولى، الجزء الثاني، من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية، ط3، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1392/1972.
- 11- خفاجي، محمد عبد المنعم،

- أ. حركات التجديد في الشعر الحديث، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2001.
- ب. دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ط1، بيروت: دار الجيل، 1992/1412، جزآن.
- ج. قصّة الأدب في مصر، ط1، القاهرة: المطبعة المنيريّة بالأزهر، 1375/1956.
- د. قصّة الأدب المهجريّ، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1986.
- هـ. مع الشعراء المعاصرين، القاهرة: المطبعة المنيرية، 1956.
- 18- خليل، إبراهيم، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ط4، عمّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2011/1432.
- 12- داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية: الجزء الثاني: الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، القسم الأول: الراحلون (1800-1955)، بيروت: منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، 1955.
- 13- الذّهان، سامي،
- و. الشعر الحديث في الإقليم السوري، مصر: معهد الدراسات العربية، 1960.
- ز. قدماء ومعاصرون، مصر: دار المعارف، 1961.
- 14- الرّمادي، جمال الدين، من أعلام الأدب المعاصر، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- 14- الزركلي، خير الدّين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط11، بيروت: دار العلم للملايين، 1988.
- 15- السّحرتي، مصطفى، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، ط2، جدّة: تهامة للنشر والمكتبات، 1984/1404.
- 16- أبو سعد، أحمد، الشعر والشعراء في العراق (1900-1958)، بيروت: دار المعارف، 1959 (تاريخ الشعر العربي المعاصر: 2).

- 17- سعيد، إدوارد، **خارج المكان: مذكرات**، ترجمة فواز طرابلسي، ط1، بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، 2000.
- 18- شاكِر، محمود محمد، **رسالة إلى ثقافتنا**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأعمال الفكرية، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 1997.
- 19- شرارة، حياة، **صفحات من حياة نازك الملائكة**، ط1، لندن: رياض الرئيس للكتب والنشر، 1994. (حكايات مع الأدباء).
- 20- الصاوي، أحمد حسين، **المعلم يعقوب: بين الأسطورة والحقيقة**، ط2، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2009.
- 21- صبري، محمد، **الشوقيات المجهولة: آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها**، دراسات وأصواء جديدة على حياة الشاعر، وعصره، وأدبه، ط2، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003/1423، (ذاكرة الكتابة، 40).
- 22- ضيف، شوقي، **الأدب العربي المعاصر في مصر**، ط5 [مزيدة موسّعة]، مصر: دار المعارف، 1974 (مكتبة الدراسات الأدبية: 24).
- 23- طوقان، فدوى، **أخي إبراهيم: الأعمال الشعرية الكاملة لإبراهيم طوقان**، ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993.
- 24- العالم، جلال، **قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام، أبيدوا أهله**، ط2، طرابلس الشام: د. ن.، 1974/1395.
- 25- عباس، إحسان، **نظرة في شعره: الأعمال الشعرية الكاملة لإبراهيم طوقان**، ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993.
- 26- عبد النور، جبّور، **المعجم الأدبي**، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1979.
- 27- عبود، مارون،
- ح. **رواد النهضة الحديثة**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2015.
- ط. **الرؤوس**، ط2، بيروت: دار المكشوف، 1959.
- ت. **مجدّدون ومُجترّون**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.

- 28- عزّ الدّين، يوسف، **التجديد في الشعر الحديث: بواعثه النفسية وجذوره الفكرية**، ط2، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2007.
- 29- العطوي، مسعد بن عيد، **الأدب العربي الحديث**، ط1، تبوك: شبكة الألوكة، 2009/1430.
- 30- عمارة، محمد، **السجل الأسود لحملة نابليون: تلاميذ المعلم يعقوب يحتفلون بذكرى (200) عام على الحملة الفرنسية على مصر**، مجلة المجتمع، العدد (1297)، غرة محرم 1419/28/4، 1998، ص20-28.
- 31- فروخ، عمر،
- ي. **هذا الشعر الحديث...**، ط1، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1980/1400.
- ك. **شاعران معاصران: إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي**، ط1، بيروت: المكتبة العلمية ومطبعتها، 1954/1374.
- 32- القط، عبد القادر، **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر**، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1981/1401.
- 33- قوبعة، محمد، **الرومنطيقية ومنابع الحداثة في الشعر العربي: الرابطة القلمية أنموذجاً**، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس (1)، كلية الآداب، منوبة، 2000. (سلسلة: آداب م40، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية).
- 34- كشك، محمد جلال، **ودخلت الخيل الأزهر**، ط3، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1990/1410.
- 35- الكيالي، سامي، **الأدب العربي المعاصر في سورية (1850-1950)**، مصر: دار المعارف، 1959.
- 36- محمد، نظمي عبد البديع، **أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب: دراسة تحليلية نقدية موازنة**، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- 37- مصطفى، إبراهيم، وزملاؤه، **المعجم الوسيط**، القاهرة: مجمع اللغة العربية، د.ت.

- 38- الناعوري، عيسى، أدب المهجر، ط3، مصر: دار المعارف، 1977 (مكتبة الدراسات الأدبية:14).
- 39- نصّار، حسين، في الأدب المصري، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002/1422.
- 40- نعيمة، ميخائيل، جبران خليل جبران، ط13، بيروت: نوفل، 2009.
- 41- النويهيّ، محمد، قضية الشعر الجديد، ط2[مزيدة ومنقحة]، القاهرة: دار الفكر، مكتبة الخانجي، 1971.
- 42- هدارة، محمد مصطفى، دراسات في الأدب العربي الحديث، ط1، بيروت: دار العلوم العربية للطباعة والنشر، 1990/1410.
- 43- هيكل، أحمد، موجز الأدب الحديث في مصر، مصر: مكتبة الشباب، 1993.